اقرأ

دكتور حسين مؤنس

إدارة عموم «الزير»
وقصص أخرى





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

دكتور حسين مؤنس

إدارة عموم «الزير»

وقصص أخرى

اقرأ ٤٠٧

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٧)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

إدارة عـــموم الزّيـــر



كانوا لا يخاطبونه إلا بـ «سيدنا» ، لأنهم كانوا يحبونه . وكان يسعده هذا الخطاب منهم ، لأنه كان يحبهم ..

وكان يقول : هذا أعظم الألقاب وأقربها إلى القلوب . . لهذا نحن نقول : سيدنا أبو بكر ، وسيدنا عمر ، وسيدنا عثمان ، وسيدنا على .. هل كان يمكن أن نقول : صاحب الفخامة أبو بكر ، أو صاحب الجلالة عمر مثلا ؟ .. ومع ذلك فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى كانوا يحكمون بلاداً هى من أوسع وأعظم الممالك والإمبراطوريات .. لهذا فأنا أحب من قومى أن يخاطبونى بسيدنا ، وسيد القوم خادمهم لما تعرفون .. وأنا خادم هذا البلد وأهله . .

وكان لا يمكث فى قصره يوماً كاملا ، بل هو دائم التجوال فى بلاده

وفى ذات يوم كان عائداً إلى قصره وإلى جانبه وزيره ، ومن خلفهما بعض الحرس . كانوا جميعاً على صهوات الخيل ، وكان اليوم قائظاً تصب فيه الشمس غضبها على الناس ، أشعة من نار تلسع وتزهق الأنفاس...

ووقف الركب الصغير تحت شجرة صفصاف وارفة الظلال ، وأخرج سيدنا منديلا ضخماً ومضى يمسح عرقه ويتأمل ما حوله ، فاسترعى نظره سيل متصل من الناس يذهبون إلى ضفة النهر ، وينحدرون إلى الماء فيشربون ثم يصعدون . ولاحظ أنهم يعانون فى ذلك مشقة كبيرة ، فنظر إلى الوزير وقال :

ــ إنى أرى الناس يقاسون من العطش فى مثل هذا اليوم القائظ .. ألم تفكر فى شىء يخفف عنهم مشقة النزول إلى النهر لمجرد الحصول على شربة ماء ؟

ــ أمرك ياسيدنا . . نحن رهن الإشارة ، وسيدنا يفتح الله عليه دائماً

بأسعد الآراء .. من الممكن أن تنشئ حوضاً أو صهريجاً أو سبيلا أو أى شىء تأمر به ..

ففكر سيدنا لحظة ثم قال :

ــ إن خير الأمور أبسطها .. وأنا واثق من أننا إذا قررنا إنشاء حوض مات الناس من العطش قبل أن يتم الحوض .. ضعوا هنا ، تحت هذه الشجرة، زيراً .. زير ماء كبيراً بسيطاً .. زير ماء بحمالة وغطاء وبضعة أكواز .. وليقم على خدمته واحد من رجالنا ..

ثم نظر إلى الحرس من خلفه وقال لواحد منهم :

ــ أنت ياصابر .. تعال .. هذه عشرة دنانير من مالنا .. اذهب الآن فاشتر زيراً وما يلزمه ، واغسله واملأه ماء وضعه تحت هذه الشجرة ، واختر واحداً من أصحابك لتتعاونا على ملء الزير مرة بعد مرة .. وأنت أيها الوزير عليك بالإشراف على هذا الموضوع .. أريد أن يكون الزير هنا اليوم مليئاً نظيفاً دائماً ، والناس يشربون منه ماء صافياً زلالا ..

وأخذ صابر الدنانير وذهب لشأنه ..

وسار سيدنا ووزيره وبقية الحرس ، ومضى الوزير ــ على عادته ــ يقول :

ــ والله ياسيدنا ما أعطاك الله الملك إلا لأنك أذكى الناس أجمعين ، وأطيبهم أجمعين ، وأكرمهم أجمعين .. ما أبدع الفكرة النيرة التى لا تخطر إلا على بال موهوب .. مجرد زير .. زير بسيط بحمالة وغطاء ؛ وهل هناك أحلى أو ألذ أو أبرك من ماء الزير ؟

وتركه سيدنا يسترسل فى كلامه المزوق هذا . كان يعلم أنه كله ملق ومداهنة ، ولكن هكذا كان وزراء ذلك العصر والأوان : يحسبون أن هذا المديح المزخرف واجب من واجباتهم ، ولا يمكن صرفهم عنه . هكذا كان وزراء أبيه ، وهكذا وزراؤه هو ، وهكذا سيكون وزراء ابنه وإلى أن يبدل الله الأرض ومن عليها ..

* * *

ومرت الأيام والشهور والأعوام ..

وفى ذات أصيل كان سيدنا يتحدث مع وزيره فى حديقة قصره فى شئون البلاد ، فرأى زيراً صغيراً تحت شجرة ،فالتفت إلى الوزير وقال :

— هل تذكر الزير الذى وضعناه تحت الشجرة ليشرب منه الناس ؟ أما كانت فكرة لطيفة ؟ ..

— لطيفة ؟ .. إنها فكرة عبقرية ياسيدنا .. لقد طورناها وعدلناها حتى أصبحت شيئاً مهولا ..

— ماذا تعنى بتطويركم إياها ؟ .. زير وغطاء وماء وكوز . . ماذا يمكن أن تتطور هذه ؟ ..

— سيدى .. إنكم تعرفون أننا دائماً فى تطوير وتحسين.. إن بلدنا فى مقدمة البلاد النامية ، لأن كل شىء فيه ينمو ويتقدم ويتحسن . . لايمكن أن يظل فيه شىء على حاله .. لابد أن يساير الزمن ..

— وكيفساير الزير الزمن ؟ ..

فانفرجت أسارير الوزير وأشرق وجهه ، ونهض واقفاً وأنشأ يقول فى زهو عظيم :

— سأقص عليكم ياسيدنا القصة من أولها ، لأنى أعلم أنك تحب أن تقف دائماً على دقائق الأشياء ..

واعتدل سيدنا فى مجلسه ليستمع ، ومضى الوزير يقول :

— فى اليوم التالى لصدور أمركم إلى خادمكم صابر بشراء الزير ، أرسلت فى طلبه لأتأكد من أنه نفذ الأمر ، فوجدته قد فعل .. وذهبت بنفسى فوجدت الزير تحت الشجرة ،والناس يشربون منه جماعة بعد جماعة ، وخادمكم صابر وصاحبه يملآن الزير كلما فرغ ..

وبعد مدة وجدنا أن الإقبال على الشرب من الزير قد زاد ،لأن الناس استعذبوا ماءه وجعلوا طريقهم عليه . وحدث مرة أن انكسر الزير ،فأتانى صابر يطلب نقوداً لشراء غيره ، فأعطيته ..

ثم رأيت أن الأمر ينبغى ألا يستمر فى هذه الحدود الضيقة ؛ فما دام الناس يتزاحمون على الشرب من الزير ، فقد أصبح مرفقاً شعبياً ؛ ونحن – جرياً على سياستكم الرشيدة وإتباعاً لتوجيهاتكم السديدة – لابد أن ننهض بكل ما يعود على الشعب بالخير ..

وبناء على ذلك ، بدأنا فأقمنا بناء صغيراً يحمى الزير والعاملين عليه : ثلاثة حوائط بسيطة يعلوها سقف يقوم تحته الزير . وارتاح الناس لهذا وسعدوا به ، وتزايد إقبالهم على الزير ..

ووجدنا أن المشقة شديدة على صابر وزميله فى الوقوف إلى جانب الزير وملئه طول اليوم ، فابتنينا لهما غرفتين ليستريحا فيهما ، ووضعنا فيهما مالابد منه من أثاث بسيط ..

ونظرنا فإذا القواعد المالية تقضى بإنشاء جهاز إدارى للزير ، لأن الدولة أصبح لها هناك مبنى وأثاث و « عهدة » ..

لهذا كان لابد من إنشاء مأمورية صغيرة للزير فأنشأناها ، وعينّا فيها رئيس قلم وعينّا معه كاتبين : واحداً للعهدة ، وواحداً للشئون المالية . .

فتعجب سيدنا وقال :

– شئون مالية ؟ .. ماذا تقول يارجل ؟ .. زير وماء وغطاء وكوز .. تصبح لها مأمورية وشئون مالية ؟ !

فضحك الوزير وقال :

– حلمك ياسيدنا .. أنتم تعلمون أن للإدارة أصولا .. وللضبط والربط قواعد .. والدولة لايمكن أن تدع مالها وممتلكاتها سائبة ينهبها من يريد .. فما دام هناك مبنى للدولة يعمل فيه موظفون ، فلا بد من إدارة مالية .. ولا يخفى على علمكم الواسع أن الأمر اقتضى أن نفتح اعتماداً مالياً لمأمورية الزير ، فوضعنا فيها خزانة للنقود أودعناها سلفة ، فقد ينكسر الزير أو يتلف الغطاء أو يضيع الكوز ..

– ماشاء الله . . ماشاء الله . . ثم ماذا ؟ . .

– هذا قليل من كثير ياسيدنا .. إننا نحلمك نسير فى عملنا على أحدث الطرق فى الإدارة وضبط المال .. بفضل هذه الأساليب سنخرج قريباً من نطاق الأمم النامية إلى عالم الأمم التى تم نموها فعلا . . أين كنا ؟

– كنت تتكلم عن الإدارة المالية والخزانة والسلفة ..

– آه .. معذرة ياسيدنا .. إن ذاكرتكم لا نظير لها فى الدنيا ..

– بعد ذلك رأينا أن إقبال الناس على الشرب من الزير قد تزايد وتزايد ، وأن الزير ينكسر كثيراً ، وكذلك غطاؤه وحمالته وكوزه ، فقررنا أن نحول المأمورية إلى إدارة ، وأن ننشئ فيها أربع إدارات فرعية : إدارة الفخار ، وإدارة الحديد ، وإدارة الخشب ، وإدارة الصفيح ..

– لماذا هذا كله ؟ ..

– إدارة الفخار مختصة بشئون الزير ، وإدارة الحديد مختصة بشئون الحمالة ، وإدارة الخشب للغطاء ، وإدارة الصفيح للكوز ..

فابتسم سيدنا وقال :

– والماء ؟ .. الماء الذى من أجله كل هذا ؟ .. أليست له إدارة ؟ ..

فنظر إليه الوزير فى إعجاب وقال :

– حقاً إنك لأمير ابن أمير ! .. والله ما خلقك الله إلا للسيادة والحكم وتدبير الأمور .. لقد نسينا ذلك حتى نبهتنا أنت إليه ياسيدنا .. غداً بإذن الله ننشئ إدارة الماء ..

– ثم ؟ ..

– ثم وجدنا أن مبنى إدارة الزير قد ضاق عن أن يسع حركة العمل الجبارة التى تدور فيه .. فاعتمدنا مبلغاً كافياً ووسعناه وزدنا فيه طابقين ، وجعلناها إدارة عامة .. إدارة عموم الزير ..

– وكم من المال تكلف المبنى ؟ ..

– شيئاً بسيطاً .. حوالى مائة ألف دينار ، بالأثاث وكل شىء

– وما هو المبلغ المخصص لإدارة عموم الزير هذه ؟ ..

ــ لا أذكره بالضبط ، ولكنى أقول لسيدنا على وجه التقريب : نحو أربعين ألف دينار سنوياً ..

ــ سبحان الله ! .. زير وضعناه فى الطريق ليشرب منه السابلة حسبة لله تعالى ، تصل تكاليفه اليوم إلى أربعين ألف دينار سنوياً ، غير ما تكلفته المبانى ؟ !

ــ هكذا شئون الدول ياسيدنا .. إن إدارة عموم الزير مرفق خدمات .. الاعتبار الأول لما يؤديه للأمة من نفع .. وفى سبيل هذا النفع يهون أى مبلغ يتكلفه ..

ــ ما أبرعك فى مثل هذا الكلام ..

ــ عفواً ، عفواً ياسيدنا .. هذا قبس من نور ذكائكم .. إن البراعة وقف عليكم ياسيدنا ، وما أنا إلا خادم من خدمكم .. ومنكم ياسيدنا تعلمت الدنيا فنون الإدارة .. إن كل جامعاتنا فيها معهد عال للإدارة .. ولدينا إلى جانب ذلك المجمع القومى لفنون الإدارة ، وفى كل مؤسسة من هذه المؤسسات يعمل عباقرة فى شئون إدارة الأعمال ، لورأيتهم ياسيدنا يتناقشون ويحللون ويفلسفون لرأيت عجباً ، ولا نشرح صدرك بما بلغناه من تقدم ، ولتأكدت من أن بلدنا قد صار فى عهدكم المبارك ، فى مقدمة بلاد العالم فى ميدان العلوم . ومع ذلك فقسما بالله العلى العظيم ، إن إشارة واحدة منكم لتغطى على علم هؤلاء جميعاً وعلى فلسفتهم كلها . .

ــ دعك أيها الوزير من هذا الكلام ، وقل ما توزيع هذه الأربعين ألف دينار ، على نواحى الإنفاق فى إدارة عموم الزير ..

ــ سأقول لكم ياسيدنا على وجه التقريب لا الضبط .. حوالى ٣٥ ألف دينار للباب الأول ، باب المرتبات .. و ٣ آلاف دينار نقل وصيانة ، وألفان أدوات كتابية ..

ــ والماء ؟

ــ الماء ؟ .. لا شىء .. لقد ركبنا طلمبة هيدرو دينامو إليكترونية لرفع

الماء وتنقيته ، وفقاً لآخر الأساليب العلمية ، ودفعه إلى الزير فى أنابيب خاصة ..

– مادام الماء ينقل إلى الزير بهذه الطريقة . فلماذا بند النقل والصيانة الذى ذكرته ؟

– بند النقل .. أقصد بعض السيارات التى أوجبت شراءها حركة العمل الكبيرة .. سيارة خاصة لمدير عام إدارة عموم الزير ، وسيارتان جيب للتنقل السريع للموظفين : وسيارة فنطاس لنقل الماء ..

– ولماذا هذه ؟

– لنستخدمها فى حالة تعطل الطلمبة الهيدرو دينامو إليكترونية .. إنها تتعطل كثيراً ..

– وهل كل هذه السيارات ضرورية ؟

– ياسيدنا .. إن إدارة عموم الزير على إتصال دائم بدواوين الدولة الأخرى .. هناك مكاتبات ومراسلات لا نهاية لها مع وزارات الأشغال والخزانة والاقتصاد والخارجية والداخلية و ..

– الخارجية ؟ ! ما شأن إدارة عموم الزير بوزارة الخارجية ؟ ..

– المؤتمرات ياسيدنا .. المؤتمرات .. لقد أصبحت إدارة عموم الزير إدارة ذات شهرة عالمية ، ومديرها يحضر كل سنة مؤتمرين ثلاثة : فى لندن ، فى باريس ، فى نيويورك ، وغيرها .. فى المؤتمر الأخير الذى عقد فى طوكيو ألقى خطاباً أعجب الناس به إلى درجة أننا اضطررنا إلى طبعة وتوزيعه على الدول .. شىء يعلى قدرنا ..

– وهل فى هذه الدول كلها إدارات عموم للأزيار ؟ ..

– لا ياسيدنا .. إننا نفخر على دول العالم أجمع بأن تجربتنا هى التجربة الرائدة .. ولكن هذه الدول لديها مؤسسات ومعاهد للدراسات المائية ، ومديرنا العام رجل نشيط لايدع مؤتمراً إلا اشترك فيه ، وهو ينتهز كل فرصة للدعاية لسيدنا وإصلاحاته وبرامجه التقدمية ..

— ماشاءالله .. ماشاءالله .. وهل لديك تفاصيل أخرى عن هذه الإدارة العظيمة التى أنشأتها من لا شىء ؟ ..

— نعم .. لدينا ابتكار استمارات للشرب ..

— استمارات ؟ ! ..

— لقد رأينا ، بعد استشارة الدكتور وجيد وجدى وجدانى ، دكتوراه مع مراتب الشرف كلها ، فى العلوم الإدارية والتنظيمية والحسابية ، وأستاذ مادة التنسيق الليترى لإدارة الأعمال التكنولوجية فى المعهد الأعلى لشئون الإدارة .. رأينا ، بعد استشارة هذا الأستاذ العظيم وبتوجيهه ، أن نطبع أربعة أنواع من الاستمارات ..

— ولماذا الاستمارات أصلا ؟ ..

— لكى نحصى كل شىء .. إن الإحصاء اليوم ياسيدنا أساس سياسة الدول، وقد رأينا أن الناس يشربون ويمضون دون أن تكون لدينا فكرة عن أعدادهم أو أنواعهم ..

— فهمت !.. فهمت .. وما هذه الاستمارات ؟ ..

— استمارة بيضاء يملأها الذين يمرون بالزير مصادفة ويشربون مرة واحدة ولا يعودون .. واستمارة حمراء للذين يشربون كل يوم مرة واحدة بانتظام .. واستمارة صفراء لمن يعتمدون على الزير فى شربهم طول النهار ، هؤلاء استمارتهم على هيئة بطاقة أو «كارنيه» يحمل صورتهم .

— والاستمارة الرابعة ؟ ..

— هذه هى الزرقاء، وهى تحرر فى الإدارة لترسل للحاسب الإليكترونى .. إن عملنا ياسيدنا يجرى على أحدث الأساليب العلمية، ولدينا تقرير سنوى مفصل مبين فيه مصير كل نقطة ماء تصل إلى الزير .. وكما قال الشاعر :

ماضاع قط درهم بحساب وألوف بغير حساب تضيع !

— حقاً إنك لوزير همام .. بمثلك تعمر الدول ..

— عفواً ، عفواً ياسيدنا .. هذا كله نقتبسه من حكمتكم .. أرجو

أن تثقوا فى أننا عن قريب جداً سنخرج من عنق الزجاجة ، سننتقل من طابور الأمم النامية إلى صف الأمم التى تم نموها فعلا ..

* * *

وفى ضحوة اليوم التالى أخذ سيدنا نفراً من رجاله وحاشيته وقال لهم: خذونى إلى إدارة عموم الزير ، وقولوا للوزير يلحق بى هناك ..

ووصل سيدنا إلى مقر إدارة عموم الزير ، فإذا هو مبنى شاهق ضخم مكتوب عليه «إدارة عموم الزير» بخط الثلث العظيم ، وناس كثيرون داخلين وآخرون خارجين ، وسيارات تصل وأخرى تقوم ، وحركة كبيرة متصلة .. وعلى الباب امرأة تبيع عرضحالات وأوراق دمغة، وقد أعطت ابنها الطفل بعضاً منها فوقف بها إلى جانب الباب ..

وقال سيدنا لمن معه :

ـ أحيطوا بالدار فلا يدخلها ولا يخرج منها أحد ، وليدخل بعضكم فينبهوا على كل موظف وفراش بأن يبقى فى مكانه لا يغادره إلى أن نخرج من هنا ..

ثم دخل فجعل يتأمل الناس رائحين غادين .. وطلب أن يأخذوه إلى غرفة المدير العام ، ودخلها فإذا سيادته غير موجود ، ولكن وكيل الإدارة خف إليه مرحباً ..

وجلس سيدنا على أريكة وثيرة ، وقال للموظف الذى مثل بين يديه:

ـ لقد سمعت الكثير عن هذه الإدارة وعن نشاطكم فيها .. كيف الحال ؟ ..

ـ طيب جداً بفضلكم ياسيدنا .. كل شىء يسير على أحسن صورة. لولا أن العمل يتزايد ، فنحن فى حاجة إلى مزيد من الموظفين ..

ـ سنرى الآن .. تعال معى لنرى أقسام إدارتكم هذه ونطلع على سير الأعمال فيها ..

وسار الوكيل يتدحرج إلى جانب سيدنا ،وبعد قليل لحق به مدير الشئون العامة ، وهو رجل طويل عريض عابس الوجه دائماً ، قدم نفسه وحيا تحية عظيمة وسار يشرح ويفصل .. هذه إدارة الخشب : غرفة مدير إدارة الخشب ، غرفة السكرتير الخاص للمدير ، سكرتارية الإدارة ، المكتب الفنى ، غرفة خبير الأخشاب ، إلى آخره ، إلى آخره ..

ووصل سيدنا إلى باب لم يكتب عليه شيء، فدفعه ودخل فإذا خلية نحل : مكاتب ، مكاتب ، مكاتب .. موظفون يقرأون الجرائد ويكتبون ويتحدثون ..آنسات يكتبن على الآلة الكاتبة ويقرأن المجلات الملونة ويثرثرن .. فراشون ذاهبون بالقهوة والشاى والساندويتش ، وعائدون بالصوانى عليها الأكواب فارغة .. لغط كثير ، وكلام كثير ..

وأسرع إليه رجل قصير القامة يختنى وجهه خلف نظارة سميكة ، فقدم نفسه : «خادمكم رئيس قلم الصادر والوارد» .. وسار معه سيدنا حتى وقف أمام مكتبه ، ورأى أكوام الأوراق والدفاتر وعليها السجلات ، فتناول ورقة ونظر فيها وسأل عن ماهيتها ..:

ـ هذا خطاب من إدارة الخشب إلى إدارة الحديد ..

ـ وهذا ؟

ـ خطاب من إدارة الحديد إلى إدارة الخشب ..

ـ ماذا تقول إدارة الحديد لإدارة الخشب ؟ .. اقرأ الخطاب ..

فتناوله الموظف ومضى يقرأ :

« السيد مدير إدارة الخشب

تحية طيبة وبعد ، فنتشرف برجاء الرد على خطابنا رقم ٥٧٣٢ على ٢١٢ بتاريخ ٦ / ٦ / ١٩٦٠ ، بشأن طلب الإفادة بتخانة خشب غطاء الزير المستعمل حالياً للاسترشاد به فى تحديد تخانة حديد حمالة الزير .

وتفضلوا ... »

وتناول سيدنا خطاباً آخر وقال :

ـــ وهذا ؟ ..
ـــ من إدارة الشئون المالية إلى إدارة شئون العاملين ..
ـــ وهذا ؟ ..
ـــ من إدارة شئون العاملين إلى إدارة الشئون المالية ..
وكان الوزير قد وصل ، فأوسعوا له ، فتقدم معتذراً عن تأخره ، فقال له سيدنا :
ـــ أين المدير العام ؟
ـــ إنه فى مؤتمر فى بودابست ..
ـــ كيف عرفت بهذه السرعة أنه فى بودابست ؟ .. هل تعرف كل حركة أو سكنة لموظفى دولتنا ؟ ..
ـــ لا .. ولكن ..
وضحك مرتبكاً بعض الشيء .. فأسرع أحد الواقفين يقول وعيناه تلمعان ببريق التشفى :
ـــ إن سيادة المدير العام ابن أخت السيد الوزير وصهره ..
وأسرع الوزير يقول :
ـــ والله يا سيدنا ما عينته لأنه قريبى ، بل لأنه المتخصص الوحيد فى هذا الموضوع ، لقد درسه فى أكبر الجامعات ..
ـــ طبعاً .. طبعاً .. مافى ذلك شك ..
وسار سيدنا من مكتب لمكتب ، ومن طابق لطابق .. يتفرج ويتعجب ، ثم قال للوزير :
ـــ والزير ؟ .. أين الزير ؟ ..
ـــ إنه فى قاعته الخاصة ياسيدنا ، فى الدور الأرضى . .
وأخذوا المصعد إلى الدور الأرضى ، وأسرع مدير الشئون العامة يريد أن يسبق الجماعة ، فناداه سيدنا :
ـــ لا تسبقنا .. لا داعى لذلك ..

ودخلوا قاعة واسعة متربة يغطى الغبار كل مافيها ، لها باب واسع يفتح على الطريق فى الناحية الخلفية من المبنى ، وعلى الباب جلس على منضدة عرجاء موظف ينطق مظهره بالتعاسة : وأمامه أربع مجموعات من الاستمارات : بيضاء ، وحمراء ، وصفراء ، وزرقاء .. وإلى جانبها سجل ضخم مفتوح ،والموظف يتحدث مع صاحب له، ولا ناس هناك داخلين أو خارجين . قال سيدنا :

ـــ هذه قاعة الزير ؟ ..

فقال مدير الشئون العامة بعد لحظة ارتباك :

ـــ نعم .. نعم .. إننا ننشئ الآن قاعة أخرى ..

ـــ والزير ؟ .. أين الزير ؟ ..

فنظر مدير الشئون العامة ووكيل الإدارة أحدهما إلى الآخر ثم إلى الوزير ، ثم إلى حنية فى الجدار ، أشار أولهما إليها وقال :

ـــ لا أدرى .. كان ينبغى أن يكون هنا ..

وقفز الموظف الجالس إلى جانب الباب ، وأسرع فصار أمام سيدنا وقال :

ـــ الزير أرسلوه إلى الورش الأميرية ياسيدنا ..

ـــ منذ متى ؟ ..

ـــ من أربعة أشهر خمسة .. كان الماء يتسرب منه ، فجاءت لجنة من الخبراء وقررت نقله إلى الورش الأميرية ليصلحوه هناك ..

فضرب سيدنا كفاً بكف وقال :

ـــ إذن .. هذا كله .. ولا زير ؟ !

فقال مدير الشئون العامة :

ـــ لا ، لا ياسيدنا .. الزير موجود .. فقط فى الإصلاح .. ستقوم باستعجالهم ..

ونظر سيدنا فإذا رجل مسكين هزيل ينهض عن كرسى غير بعيد من

موضع الزير ويقبل نحو سيدنا ، وصاح سيدنا :

ــ صابر ؟ !

ــ نعم ياسيدنا .. خادمك صابر .. لقد كذبوا عليك ياسيدنا .. الزير ليس هنا منذ ستين ..

ــ وأنت ؟ .. مالك شاحب الوجه ضعيفاً كما أرى ؟ ..

ــ إننى لا أتقاضى مرتباً من ستين ونصف ياسيدنا .. إننى أموت جوعاً .. :

ــ سبحان الله ياناس ! .. الوحيد هنا الذى له عمل معلوم .. الوحيد الذى أقام فى موضعه مخلصاً .. لا يتقاضى شيئاً .. وكل هذه الزنابير تقبض مرتبات !

والتفت إلى وكيل الإدارة وقال :

ــ لماذا لا يقبض هذا الرجل راتبه ؟

ــ لأن له إشكالا إدارياً مالياً .. فقد كان صابر تابعاً لإدارة حرس سيدنا ، ثم تقرر نقله من ستين ونصف إلى إدارة عموم الزير ، فوجدنا أن راتبه لا تنطبق عليه القواعد واللوائح المالية ، فأرسلنا نسأل وزارة الأشغال ـــ ونحن نتبعها ــ وهذه بعثت تسأل ديوان الموظفين ، وديوان الموظفين أرسل يسأل مجلس الدولة ..

ــ كل ذلك والرجل لا يتقاضى ما يتقوت به ؟ !

ــ لا نستطيع إعطاءه راتباً ياسيدنا .. من يتحمل المسئولية ؟ .. ثم إنه لا يحمل مؤهلات .. عندما أردنا تقييم وظيفته لم نستطع ، وكذلك لم نعرف على أى أساس نصرف له راتبه.. لذلك سألنا الجهات المختصة وللآن لم يأتنا رد .. ما ذنبنا ؟ ..

فسار سيدنا خطوات حتى بلغ الكرسى الذى كان يجلس عليه صابر فانحط عليه ، كأنما ناء تحت ثقل الحزن الذى عصر قلبه من أجل خادمه المسكين ، ولبث لحظة يلوم نفسه على أنه كان السبب فى مصيره ، ثم

نظر إلى صابر – وفى عينيه مع الأسف والندم اعتذار – وقال له :

– من الآن .. تعود إلى قصرنا كما كنت .. ويصرف لك راتبك عن المدة الماضية ، ويضاعف لك الراتب .. من الآن ..

ثم نظر إلى الوزير وقال :

– اكتب يا أخانا هذا كله .. هذه أوامر لك .. أنت الذى ستقوم بالتنفيذ .. اسمع يا صابر .. خذ .. هذه عشرة دنانير .. اشتر زيراً ومايلزمه، وضعه تحت شجرة .. أين الشجرة التى وضعت تحتها الزير الأول ؟ ..

– كانت هنا ، فى هذا الموضع .. قطعوها ليقيموا البناء ..

– سامحهم الله .. بل لا سامحهم .. وأين زميلك الذى كنت اخترته ليعمل معك ؟ ..

– مات .. أماتوه ..

فصاح سيدنا :

– كيف ؟ ..

– عندما أرادوا قطع الشجرة حاول منعهم ، فضربوه وفصلوه . فمات غماً ..

ففكر سيدنا ملياً ، ثم قال :

– ابحث لى عن زوجته وأولاده ، وقل لرئيس شئون القصر يحسن عوضهم ويرتب لهم معاشاً كافياً . . اذهب أنت الآن واشتر الزير واملأه وضعه كما قلت لك ، واختر واحداً من رجالنا ليقوم بأمره ، وسأدفع له أنا راتبه من مالى الخاص ..

ثم التفت إلى الوزير وقال له :

– أما أنت يا صاحبى فقد أنشأت هذا كله ، وحملت ميزانية الدولة نفقات باهظة ، لكى تخدعنا وتعين أقاربك بعد أن ضيعت الغرض الأساسى الذى توخيناه .. فأما هذا المبنى فسنرى كيف نستخدمه فى أمر آخر من مصالح العباد .. وأما هؤلاء الموظفون فأنت عينتهم كلهم

٢٠

وأنت ملزم بهم .. من مالك الخاص تدفع رواتبهم كما قررتها لهم ..

فصاح الوزير مرتاعاً :

ـ ولكن ياسيدنا .. إن مالى الخاص لا يحتمل تلك النفقة.. سينفد بعد شهر واحد ..

ـ لن ينفد بعد شهر ولا أشهر.. وبعد أن ينفد مالك يأخذون رواتبهم من مال زوجتك وأولادك وإخوتك وأبناء عمك وأبناء خالتك وبقية أقاربك الذين أغنيتهم من مال الدولة .. ستظلون تدفعون رواتب أولئك الناس دون خصم أو خفض أو نقص، حتى ينفد كل مالكم وتعودوا كما عرفناكم .. يا وكيل الإدارة .. عليك تنفيذ هذا وأنت مسئول عنه أمامى .. أما السيد المدير العام فاستعيدوا منه كل درهم أنفقه فى رحلته وكل رحلة سابقة قام بها ، فهى رحلات ملفقة مصطنعة ، ثم دعوه لقريبه الوزير يرتبان أمورهما كما يريدان .

فاطمة عبد النور



كان قطار الصعيد يخطف الأرض فى ظلام الليل كأنه البرق ، ليقطع المسافة من جرجا إلى نجع حمادى فى نصف المدة المقررة . كان وقوفه فى جرجا قد طال ، حتى خشى الناس أن يكون فى الأمر عطل طويل. وكنا قد أخذنا القطار من أسيوط حوالى منتصف الليل ، فاغتسلنا وأوينا مسرعين إلى هذه الأسرة المصغرة التى يحشرونها فى عربات الليل واحداً فوق الآخر ، وما إن هبطت رؤوسنا على الوسائد حتى سقطنا نياماً ، والقطار يهز أبداننا هزاً يوقظ الأحجار . .

ولكننا كنا مجهدين ، فقد قضينا يوماً من أيام المحاكم القاسية : جلسنا إلى منصة القضاء أنا وزميلى القاضى عبد الرحمن فكرى عثمان — الذى يرقد فى السرير الأعلى فى هذه الخلية التى ننام فيها فى القطار — وزميل ثالث من أجلاء القضاة . وقد بكرنا فى العمل لأن زميلنا الثالث هذا من سكان القاهرة ، وهو حريص دائماً على أن يعود إلى القاهرة بعد الجلسة ، فظللنا فى مكاننا حتى قرب الخامسة بعد الظهر ، مابين مرافعات واستجوابات ومراجعة محاضر ومناقشات ، حتى بلغ بنا التعب مداه ، وما إن رفعت الجلسة وأوينا إلى قاعة الاستراحة حتى انطلق صاحبنا يعدو إلى المحطة آخذاً طريق القاهرة ..

أما نحن فقد استرخينا فى مقاعدنا ريثما يفرغ زكى علام من أمر ترتيب المائدة ، فأنا أقيم فى أسيوط ، وقد تعودت أسرتى أن ترسل إلى الطعام فى استراحة المحكمة لكى أتناوله مع من حضر من زملائى القضاة والمستشارين. وكان زكى علام طباخي ، وكانت له شهرة كبيرة بين أهل القضاء .

وأكلنا صامتين ، ثم مضينا نحتسى القهوة ، فإذا نحن فى ذلك سمعت جرس التليفون . ونادانى رئيس كتبة المحكمة ، ونهضت إلى مكان التليفون فإذا المتكلم وزير العدل نفسه . سألنى عن قضية العوامر وكيف تسير ، ولم

تكن هذه القضية معى وإنما كانت مع زميلى القاضى عبد الرحمن فكرى عثمان . . وكان الوزير يعرف ذلك ، ولكنه أراد أن يرجونى أن استحث عبد الرحمن للسير فيها بشىء من السرعة،فقد تعرض الوزير لاستجواب عنيف عنها فى مجلس الشيوخ فى اليوم الأسبق ، وهاجمه بسببها خصمه السياسى راغب علوى المحامى وعضو مجلس الشيوخ عن أسوان هجوماً شديداً :

وكان راغب محامياً مشهوراً ذا باع طويل فى القضايا والمحاكم ، وكان أصدقاؤه يقولون إنه برلمانى ممتاز له صولات وجولات فى مجلسى البرلمان . ووعدت الوزير بأن أبذل غاية جهدى فى تحقيق ما طلب ، فسألنى إن كانت لدينا جلسات بقية الأسبوع ، فقلت إن لدينا أربعة أيام استعداد ودراسة قبل الجلسة القادمة يوم الأحد المقبل، فطلب إلى أن أذهب مع عبد الرحمن إلى أسوان الليلة، وأن أبحث الأمر معه ومع السلطات هناك ، وقال إنه ينتظر منا نحن الاثنين تقريراً قبل السبت القادم ، فوعدته بذلك :

وعدت إلى غرفة الاستراحة فإذا عبد الرحمن مستوسن كما تركته ، فجعلت أتأمل وجهه الهادئ النبيل ، وكانت تربطنى وإياه صداقة حميمة وإن كنت أكبره بنحو سنوات خمس. فقد تعاصرنا فى الدراسة فى باريس، وكان لنا صديق ثالث هو هذا الوزير الذى يكلمنى الساعة . وكنا هناك لا نفترق: نحضر الدروس معاً ،ونقرأ نفس الكتب،ونتقاسم نفس الأحلام.: ولم تكن أحلامنا لتخرج عن أن نكون فى يوم من الأيام مستشارين فى القضاء العالى . وقد كنا ، بل أصبح واحد منا وزيراً ..

وطلبت باشكاتب المحكمة ورجوته أن يحجز لنا تذاكر السفر ، فقال لى إن المستشار عبد الرحمن حجز تذكرته من أمس،وحجز كذلك الاستراحة الحكومية فى أسوان ، فرجوته أن يحجزلى تذكرة ثانية مع غرفة نوم ، وأن يخطر المسئول عن الاستراحة الحكومية فى أسوان بأننى قادم أيضاً ، وأننا

سنظل هناك إلى يوم الجمعة .

دارت فى ذهنى هذه الأشياء كلها وأنا راقد فى فراشى والقطار يجرى كالمجنون فى ظلمات الليل ، وأزحت ستار النافذة فى حذر ، ونظرت فإذا بالقطار يعبر النيل ، فلابد أننى أغفيت بعض الوقت فلم أشعر بوقوف القطار فى نجع حمادى . وكان نور خفيف يسرى فى الكون كله ، ومن بعيد رأيت غابات النخيل التى تحدد حافة الوادى فى هذا الجزء من الصعيد الجوانى ..

وبعد قليل أحسست بحركة فى السرير الأعلى،فحسبت صديقى قد صحا ، ولكنه سكن مرة أخرى فعرفت أنه لم يستيقظ وإنما كان يتقلب فى فراشه . وحسدته على هذا النوم الطويل الذى كان من خصائصه طول حياته ، وكان هو فخوراً بذلك ، لأن القاضى المستريح البال هو القاضى العادل . هكذا كان يقول دائماً .

وكانت القضية التى نحن ذاهبان من أجلها قضية عويصة ، مثل كل جنايات الريف التى تدخل فيها ثارات الأسر ومنازعات الأرض والسلطان . ففى منتصف ليلة من ليالى ديسمبر ١٩٤٦ قتل إسماعيل عبد الحميد عامر عميد أسرة عامر وهو خارج من بيت عمدة قرية الرمادى قبلى مركز إدفو ، وكانت له فيها ضيعة كبيرة . وانقلبت الدنيا عقب ذلك، لأن العوامر كانوا أسرة خطيرة الشأن فى المديرية كلها . كانوا تجاراً أثرياء يقومون بجانب ضخم من تجارة مصر مع السودان ، وكان لهم وكلاء وعملاء فى الخرطوم وأم درمان وأسيوط والقاهرة، فضلا عن أسوان طبعاً، وكان فى الأسرة أطباء ومهندسون ومحامون من خيرة الناس فى القطر كله ، وكنت أعرف منهم عدداً طيباً .

وحامت الشبهة — بداهةً — حول آل جادالله عيسى ، وهم أسرة منافسة للعوامر ، وكانوا أعيان المزارعين من أهل مديرية أسوان . وكان مركزهم قرية الجعافرة ، وكانوا يقولون إن ولى الله سيدى جعفر المدفون فى

الطريق الزراعى المؤدى للقرية هو جدهم لأمهم . وكان هؤلاء الناس ذوى جمع وقوة وثروة وحسب،وكانت فيهم صلابة ونخوة وشهامة لا تقل عما كان لمنافسيهم . وكان فى نسائهم — كما يقول الناس — جمال آسر بديع : وقد اشتهرن بشيوع العيون الخضراء فيهن . وكان العوام منهم يقولون إن أصل جدتهم البعيدة حجازية ، وأن عينيها رمدتا مرة فداواهما سيدنا على ابن أبى طالب بأن وضع أصابعه على جفنيها ، فشفيتا للحال ، وعندما فتحتهما كانتا خضراوين كعينى قطة جميلة . أما المتعلمون منهم فكانوا يقولون إن نفراً من المماليك ذوى العيون الخضراء لجأوا إلى جدهم عندما طاردهم الفرنسيون ، ثم تزاوجوا معهم فأورثوهم لون العيون الأخضر الجميل .

وأخيراً أفاق صاحبى وجلس فى فراشه . وكان القطار إذ ذاك ينهب الأرض نهباً فى الطريق إلى الأقصر ، وكان نور الفجر قد أخذ ينفذ من خلال الستر ، فأزحت ستار النافذة الصغيرة قليلا وقلت :

— صباح الخير ..

فرد التحية ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

— أخيراً طلع النهار !

فقلت ضاحكاً :

— ومالك أنت تشكو طول الليل ؟ لقد أغمضت عينيك فى أسيوط فلم تفتحهما إلا هنا قرب الأقصر ..

— هذا صحيح ، ولكن صدقنى إذا قلت لك إننى لم أنعس لحظة واحدة ..

— وكيف ذلك ؟ إنك لم تتحرك فى فراشك إلا مرة واحدة ..

— كنت تراقبنى ؟ .. معنى ذلك أنك أنت أيضاً لم تنم ..

— أجل .. أظن أننى أول الأمر نعست أربع ساعات أو خمساً . .

ثم دلى ساقيه من الفراش وقفز إلى الأرض ومضى يبحث عن أدوات الحلاقة ، وقال وهو يتثاءب :

ـ لا أظن أنى سأنام إلا عندما تنتهى هذه القضية ..

وفتح صنبور الماء ووضع أصابعه تحته ينتظر مجىء الماء الساخن. وقع ضوء النافذة على وجهه فراعنى ما رأيت : كان وجهه عابساً جداً متغضناً جداً ، وكان يتأمل المنظر من خلال الستار وهو سابح مع أفكار بعيدة ، فشعرت بخوف عليه ..

وذكرت ما كان أساتذتنا يقصونه علينا ، من أن بعض المحققين ينصرفون بكليتهم إلى القضايا التى تستهويهم وتتحدى مهارتهم وذكاءهم بتعقيدها ، فيندمجون فيها اندماجاً يجعلهم يشعرون أنهم الطرف الرئيسى فى القضية ، والطرف الثانى هو المجرم المجهول ، ويصبح التحقيق والبحث صراعاً عنيفاً خطراً بين الجانبين ، لأن القضية تصبح بالنسبة لهم مسألة كيان ، مسألة وجود : إما أن يجلوا القاتل أو يتفكك كيانهم كله ..

هناك محققون كثيرون فى أوربا استغرقوا فى قضايا كهذه ، وعجزوا عن الوصول إلى المجرم ، فاستقالوا .. لأنهم شعروا أنهم انهزموا وخسروا أنفسهم فى الصراع مع المجرم . فى إيطاليا حدث مرة أن محققاً ظل يوالى العمل فى قضية واحدة سنوات ، وتعلق بذهنه أن المجرم شخص معين ، ومضى يجمع الأدلة فى صبر طويل ، وأقام الدعوى ، ثم تبين أنه مخطئ وأن المجرم إنسان آخر ، فانتحر ..

أشياء مثل هذه دارت بذهنى وأنا أنظر إلى صديقى وهو يحلق ذهنه فى تكاسل وشرود ، فقلت له :

ـ لقد طالما نصحتنا بألا نأخذ القضايا بأعصابنا ..

ـ وها أنا الآن بحاجة إلى من ينصحنى ..

وفرغ من حلاقة ذقنه ، فقمت إليه وقلت له :

ـ عبدالرحمن ، لماذا تأخذ القضية بهذه العصبية ؟ إن الجنايات بطبعها معقدة ومتعبة ، فلماذا لا تدعنى أشاركك حمل هذا العبء ؟

ـ هذا يسعدنى ويريح قلبى ، فقد أهلكتنى هذه القضية ، وهاهى قد

تعقدت زيادة ودخلت فيها السياسة ومجلس الشيوخ ، ووضع راغب عدوى رأسه فيها !

سأقص عليك كل شيء ، ومن الآن فصاعداً نعمل معاً خطوة خطوة .

* * *

وكان القطار قد وصل محطة الأقصر واستقر فيها ، فأسرعنا بإكمال ارتداء ثيابنا ، وخرجنا نتمشى على الرصيف ، ريثما يقوم الخدم بتحويل غرفة النوم إلى غرفة جلوس كما هى العادة فى القطارات . ورآنا زكى أفندى برسوم ناظر المحطة ، فأسرع يحيينا ويدعونا إلى القهوة ، وأضاف أن القطار سينتظر نحو نصف ساعة ، فشكرناه ومضينا إلى بوفيه المحطة فطلبنا شاياً وشيئاً نأكله . وقلت لعبد الرحمن :

ـ أين وصلت بالقضية الآن ؟

فنظر إلى وعلامات الحيرة بادية فى وجهه ، وقال :

ـ أظن أن هذه القضية دخلت منذ أيام قليلة فى دور جديد يجعلنا نغير اتجاه التحقيق تماماً . .

ـ لماذا ؟ .. ماذا حدث ؟

ـ ثبت عندى أن القاتل ليس من الجعافرة ..

ودهشت لهذا النبأ ، فقد كنت أسمع من عبدالرحمن أن القاتل لايمكن أن يكون إلا من هذه الأسرة ، فهناك دلائل كثيرة تشير إلى ذلك : وقبل الجريمة بعام وبضعة أشهر قتل رجل كبير من الجعافرة ، وأشارت الأصابع كلها إلى العوامر ، وإلى إسماعيل عبدالحميد عامر بالذات : وكان هناك تحقيق وكلام كثير ، ولكن عبد الرحمن فكرى عثمان ، الذى تولى التحقيق فى قضية مقتل إسماعيل عامر بتكليف خاص من الوزير ، رفض رفضاً قاطعاً أن يقبض البوليس على أحد من آل عامر . كان من رأيه أن أعمال العنف والقهر تضر بالعدالة : كان يراقب ويتابع ويحقق ويستجوب ، دون أن يسمح للبوليس بأن يمس أحداً ؛ وكانت طريقته

تلك موضع ملاحظات ونقد كبير من رجال القضاء ..

وقلت له بعد لحظة تفكير :

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ خطاب من مجهول فتح لى الطريق ، كما هى العادة. خطاب من سطر واحد بخط لا يقرأ تسلمته من أسابيع يقول: «ياسعادة القاضى .. اسألوا عفيفى علوان وكيل شيخ خفر قرية الجعافرة» . وبعد أن عصرنا هذا الرجل عصراً ، تكلم وقال إن جادالله عيسى شيخ الجعافرة كان قد تصالح فى السر مع إسماعيل عبد الحميد عامر شيخ العوامر ، كانت هناك مفاوضات واتصالات كثيرة بين الجانبين .

ـ ولماذا فى السر ؟ ..

ـ لأن المسألة ...

وفى هذه اللحظة كان السفرجى يضع الطعام على المائدة . ولاحظ صديقى أنه يتمهل ، فهو من أهل أسوان فى الغالب ، ويريد أن يسمع شيئاً ، فانتظرنا حتى فرغ ومضى ، فاسترسل عبدالرحمن يقول :

ـ المسألة فيها حريم . . نسوان . كانت لعبد النور أحمد جاد الله عيسى ـ وهو ابن عم بعيد لجاد الله عيسى ـ بنت يقولون إنها غاية فى الجمال، اسمها فاطمة : سمراء فارعة الطول خضراء العينين ذات ملامح لم أر أجمل منها فى حياتى ..

ـ رأيتها ؟ ..

ـ نعم ، واستجوبتها مراراً .. وستعرف كل شىء ، فلنسر على مهل.. فاطمة عبد النور أحمد جادالله هذه تزوجت مرتين . فى المرتين مات الزوج قتيلا بعد الزواج بقليل ، فوقف سوق المسكينة وتشاءم الناس منها.

ـ لابد أن القاتل فى الحالتين واحد .. رجل يريد أن يتزوجها هو..

فضحك وقال بهدوئه الذى أعرفه فيه من سنوات بعيدة :

ـ أراك بدأت تأخذ القضية بأعصابك . هل تسمح لى بأن أوجه

إليك نفس النصيحة الآن ؟

فلم أتمالك أن ضحكت من نفسي ، وعدت مسرعاً أسأل :

ـ إذن من القاتل ؟

ـ لو عرفت القاتل لما كان هناك داع لهذه الرحلة ..

وسكت قليلا ، ثم رشف شيئاً من الشاى ، واستطرد يقول :

ـ بعد بحث طويل تبين أن إسماعيل عبد الحميد عامر رأى هذه الفتاة فاطمة ذات مرة ، لا أدرى كيف ، ولكن قيل لى إنهما تلاقيا مصادفة عند تاجر مجوهرات فى أسيوط ..

ـ تعتقد أن ذلك تم مصادفة ؟

ـ لا أظن .. هذه المسائل لها دائماً أعماق وجذور ، ولابد أن تكون قد سمعت أن إسماعيل كان رجلا يعجب النساء . كان فى الحادية والخمسين من عمره ، ولكنه ذو هيئة وطلعة ووسامة ، وأخبار مغامراته ـ إلى تلك السن ـ كانت كثيرة .. المهم أنه لقى فاطمة هذه ووقع فى غرامها من النظرة الأولى كما يقولون ، وأعتقد أنها هى الأخرى أحبته بنفس العنف كما سترى بعد قليل ..

وهنا أقبل ناظر المحطة زكى أفندى برسوم ينبهنا إلى أن القطار على وشك الرحيل ، فعدنا إليه . وتحرك القطار فى طريقه إلى أسوان ، واسترسل صديقى يقول :

ـ أين كنا ؟ آه .. هل قلت لك إننى تبينت بعد ذلك أن إسماعيل لقى فاطمة مرتين أو ثلاثا بعد ذلك ؟ كانت لقاءاتهما قصيرة وسريعة فى محل نفس الجواهرجى فى أسيوط أو فى محل تاجر أقمشة هناك أيضاً . .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ من فاطمة نفسها . إنها امرأة غريبة جداً : جميلة وعنيفة ونافرة ، كأنها فرسة شابة تأبى أن تقاد أو تستأنس ، ذكية لماحة كأنها عجوز طُلَعة لا يفوتها شىء ، ورقيقة لطيفة أنيسة إذا أرادت ووثقت فى أحد.

إنسانة غريبة .. فريدة فى بابها دون شك ، لا أدرى إن كان ذلك الذى يترصد أزواجها ويغتالهم يعرف عن طبعها وخصالها ما أعرفه أنا ..

ـــ فإذا كان يعرف ؟ ..

ـــ فإننى أعذره فى جنونه ..

بعد أن تقابل إسماعيل وفاطمة مرتين أو ثلاثاً كما قلت لك ، اتفقا على الزواج . لقد جن بها هذا الرجل جنوناً جعله مستعداً لأى شىء فى سبيل الحصول عليها ، ولكنه خاف من أولاده . أنت تعرف حرص الأولاد الكبار على الإرث والتركة ، وخوفهم الشديد من أن تدخل عليهم آخر عمر أبيهم امرأة جديدة تنجب أولاداً جدداً ..

وقد خطر ببال إسماعيل أن يتغلب على هذه الصعوبة بالقول بأنه يريد أن يعقد صلحاً عاماً بين العوامر والجعافرة ، وأوحى إلى أتباعه أن يذيعوا فى المديرية كلها أن الأسرتين قد أصابهما شر كبير من جراء هذه الخصومة ، وأن الوقت قد حان للصلح والعقل وحقن الدماء والعيش فى سلام ..

ثم سكت قليلا ، وابتسم ومضى يقول :

ـــ حقاً إن الحب شىء عجيب ! هذا الرجل الذى أنفق معظم عمره فى حرب الجعافرة لم يعد لديه مانع من أن ينسى كل شىء ويغفر كل شىء ، ويصالحهم ويعانق رئيسهم الشيخ جادالله عيسى .. كل ذلك من أجل الحب .. من أجل فاطمة عبد النور ..

وقد لقيت دعوة إسماعيل للصلح قبولا من عمدة قرية الجعافرة ، واسمه رمضان عبد الوافى ، وهو رجل عاقل مسالم لا يريد معارك ولا ضرب نار . فأعلن أنه يرحب بدعوة إسماعيل ويعرض أن يقوم بالوساطة بين الأسرتين ، وأسرع إليه إسماعيل وزاره فى قريته ومركز عموديته ، وقال إنه يفوضه للتفاهم مع بقية الجعافرة على الصلح . ولكنهما كتما الأمر ريثما يتحدث رمضان عبد الوافى مع الشيخ جادالله عيسى وبقية رؤساء

الجعافرة ، وسارت الأمور سيراً بطيئاً . .

* * *

وقد كتم الرجل موضوع فاطمة عبد النور عن أولاده ، ولكنهم — بطريقة ما — سمعوا به وأوجسوا منه خيفة . . إن له من الأولاد ثلاثة، ومن البنات ثلاثاً أيضاً ، ومن الغريب أن هذا الرجل الضخم الفخم لم ينجب إلا أولاداً لا يسعد بهم قلب ولا تقر بهم عين ، صعاليك صغار العقول لاهم لهم إلا اللعب والجرى وراء بنات الليل فى القاهرة ، ومن حسن الحظ أن أزواج بناته رجال محترمون يعتمد عليهم ، ولولاهم لساءت أحوال هذه الأسرة الكبيرة كثيراً . .

وقد حدث فى أكتوبر ١٩٤٦ — أى قبل الجناية بشهرين — أن أحدهم — واسمه كمال عامر — أتى إلى أسوان مع نفر من أصحابه ليفرجهم على الآثار كما زعم ، وقد قضوا هناك ثمانية أيام أو تسعة، ثم عادوا إلى القاهرة.

بحثت طويلا عما إذا كان كمال عامر قد قابل أباه أثناء هذه الزيارة . قالت لى أمه إنه لم يره ولا نزل فى بيت من بيوت الأسرة ، وأنه قضى المدة مع أصحابه فى الفنادق ، وهذا كلام لم أصدقه أبداً . وبحثت بعد ذلك عما إذا كان هذا الشاب قد قابل رمضان عبد الوافى عمدة الجعافرة ورسول الصلح ، فعرفت أنهما تقابلا فى أحد فنادق أسوان وقد أنكر ذلك كل من كمال ورمضان إنكاراً تاماً ، ولكن الواقعة صحيحة وعليها شهود كثيرون .

وعن طريق رمضان عبد الوافى ، علمت أن اجتماعاً عقد فى بيته قبل الجريمة بثلاثة أسابيع وضم إسماعيل عبد الحميد عامر وجادالله عيسى رئيسى العائلتين ونفراً من أنصار كل منهما ،وكان مجموع من حضر الاجتماع تسعة أنفار ، هم فى الحقيقة سادة هذه المديرية وأصحاب الأمر فيها . .

وكان من الممكن أن تنجح خطة إسماعيل وتعود على الجميع بالخير ، لو أنه عرف كيف يصبر ويضبط نفسه قليلا ، ولكن الحب لا يعرف

الصبر ، وياويل الشيخ إذا لعب بقلبه الهوى !

وفى أواخر أكتوبر الماضى دبر إسماعيل لقاء مع فاطمة ، ومن الغريب أنهما اتفقا على أن يكون اللقاء فى القاهرة . ولقد تعبت كثيراً حتى وضعت يدى على الخيط الذى كان يصل هذا الرجل بتلك المرأة ، فى ذلك الصعيد الجوانى الذى لا يجرؤ فيه أحد على النظر إلى امرأة ليست من أهله . لو درى صديقنا وزير العدل كم هى عسيرة هذه التحقيقات هنا ! ..

بعد لأى ما استطعت أن أصل إلى هذا السر ، فوجدت آخر الأمر أن الرسول بين الاثنين رجل صغير لا تكاد تأخذه العين : قطعة إنسان تسمى «عنبر» ، وهو رجل يرتدى جلباباً أبيض ومعطفاً أسود ، ويضع على رأسه طربوشاً طويلا داكن الحمرة ، وتحت الطربوش ترى وجهاً صغيراً لطيف الملامح ، ولكنه شديد النفور والخوف حتى لا ينظر إليك فى عينيك أبداً . وهو يحمل دائماً حقيبة يد فيها أمشاط وبودرة ومساحيق وعطور ، ولهذا يسميه الناس «عنبر» . وهذا الرجل يطوف بالمستشفيات ومدارس البنات وبعض البيوت ، يعرض بضاعته على الممرضات والمدرسات والسيدات . وقد دهشت عند ما تبينت أنه ناجح فى عمله هذا ، فإنه يبيع فى اليوم بما يتراوح بين سبعة جنيهات وثمانية ، وربما عشرة ؛ وأكثر من نصف هذا المبلغ ربح له ..

ولكن هذا لم يكن المورد الرئيسى لذلك الرجل الضئيل العجيب ، لأن مورده الحقيقى وشغله الذى كان ينفق فيه ذكاءه ونشاطه هو التوسط بين المحبين . ولقد تكشفت لى عند استجوابه أشياء فى غاية الغرابة ، عن الحب والهوى فى ذلك الجزء المتزمت من بلاد الله ، أشياء لا يجوز ولا يليق ولا يحسن أن أذكر منها أدنى طرف ..

ولم يدهشنى هذا فى شىء ، فإن الناس هنا بشر كما هم فى أى مكان آخر على الأرض ، والبشر — بطبيعتهم — عرضه للحب وللضعف وللرغبة وللخطيئة وللزلل .. والله سبحانه وتعالى لم يخلق إبليس عبثاً .. ولكن

الذى أدهشنى أن يكون هذا الإنسان الصغير الضعيف : الذى يخاف من ظله ، هو الذى يتصدى لعمل كهذا كله مخاطر ، وتصور أنت ما يمكن أن يحدث له لو علم الناس بوساطاته وسفاراته ومهماته ..

— على أى حال لقد انتهى أمره الآن ، ولن يدعه أهل الصعيد حياً ..

— لا أدرى .. أنا شخصياً لن أكشف له سراً ، فقد أفضى إلىّ بما عنده بعد أن أمّنته على حياته وسمعته وتعهدت له بذلك بشرفى ، ولم يكن لى بد من أن أفعل ذلك .. بل إننى لم أكلف بالبحث عنه وكيل نيابة ولا مخبراً ولا رجل بوليس ، لأنه كان من الممكن أن يختفى فلا نجد له أثراً .. إنما كنت أنا الذى سعيت إليه بنفسى وتعقبت خطواته . ودخلت عليه منفرداً فى غرفة يسكن فيها فى أسيوط ، وفيما عداى وإياك وزملاءنا المحققين لن يعلم إنسان بأمر هذا الرجل . ولقد وعدنى وعد رجل بأن يترك هذا كله الآن ، وأن يعيش بعيداً جداً . وبالفعل هو الآن مقيم فى بلد من بلاد القطر بعد العدة لافتتاح متجر صغير ..

— أين ؟

— هذا سر بينى وبينه لا يعلمه غيرنا إلا الله سبحانه .

.. المهم أنه دبر لهما اللقاء فى بيت يملكه إسماعيل فى الدقى . ذهب هو قبلها بخمسة أيام وأقام فى البيت دون أن يخطر خادماً أو حارساً ، ثم أتت هى فى سيارة أجرة يصاحبها عنبر . ولم تمكث معه — فيما أكد لى هذا — إلا ساعة ونصفاً اتفقا خلالها على الزواج، ثم خرجت إلى سيارة أجرة ثانية كان عنبر قد أعدها لتذهب بها إلى بيت قريبة لها فى بندر الجيزة . كانت الحجة التى تعللت بها أنها أتت من الصعيد لتعرض نفسها على طبيب أمراض نساء، وقد مرت فى الطريق بطبيب النساء وكشف عليها فعلا وكتب لها دواء ، كل ذلك بتدبير عنبر وتنظيمه الذى يثير العجب ..

ولم يرها أحد لا فى الذهاب ولا فى الإياب ،ولا شك فى أمرها أحد، وكان من الممكن جداً أن تمر هذه المخاطرة بسلام ، ولكن إسماعيل كشف

أمر نفسه بصورة تدل على نزق وعجز عن ضبط النفس : كان يعلم أنها ستأخذ مع قريبتها تلك قطار الصعيد من محطة الجيزة فى الليلة التالية . فذهب — متستراً فى زعمه — ووقف فى ركن مظلم من المحطة ليراها وهى داخلة . ودخلت . ولا تدرى كيف حانت منها التفاتة إلى الركن الذى هو فيه فرأته . . وأجفلت لحظة . ثم استجمعت جأشها . . ونظرت قريبتها ناحيته وقالت : ما هذا ؟ . . من هذا ؟ . .

وأسرع إسماعيل خارجاً من المحطة . وكان مع فاطمة وقريبتها رجلان من أهلهما. فحسبا أن هذا المسرع بالخروج قد تعرض لنسائهما بشر . فأسرعا خلفه وأخذا بتلابيبه .. ووقف الرجل واستدار . ونظر إليهما نظرة سيد عزيز لا يعرف قلبه الخوف من أحد وقال : ماذا تريدان ؟ . . وعرفه أحدهما فبدت الدهشة على وجهه وقال : إسماعيل عامر؟! .. ماذا تعمل هنا يا إسماعيل يا عامر ؟ ..

وريعت فاطمة فأسرعت تصعد القطار وخلفها قريبتها . واستقرتا فيه . وقام القطار وذهب . وكان من سوء حظ إسماعيل أن هذا الرجل كان من كهول الجعافرة . يعرفهم ويعرف العوامر معرفة جيدة . فثبت مكانه ونظر إلى إسماعيل وقال :

— تجرى وراء نسائنا يا إسماعيل ؟ !

— أنا أجرى وراء نسائكم يا محمود رحيمة ؟.. أنا إسماعيل عبد الحميد عامر أنظر إلى حرمة من الجعافرة ؟ . . إن الذى جرى بيننا كثير يا محمود، لكن برضه أنتم أشراف وإحنا أشراف . والأشراف لا ينظرون إلى نساء بعض . .

وهدأت هذه الكلمات — التى قالها إسماعيل عامر بثبات وفى صوت خفيض — من غضب محمود رحيمة وأحس بشىء من الحرج فقال :

— إذن ماذا كنت تعمل هنا ؟

ـ أى شيء إلا ما تظن .. مهما حصل بيننا فالجعافرة لحمنا ودمنا وشرفهم شرفنا . . تعالوا بنا من هنا .. لنجلس فى مقهى بعيد عن هذا المكان ، ولنخز الشيطان . .

هذا الكلام قصه علىّ محمود رحيمة ، وأضاف :

ـ أنا أعرف أنك قد تفكر فى اتهامى بقتل إسماعيل . وأنا لا يهمنى أن أتهم أو أن يجرى لى أى شيء . فأنا صعيدى ابن صعيدى . وإحنا الصعايدة ناس من حديد ، وإسماعيل عامر رجل ملء ثيابه .. صحيح أنه عدونا . ولكنه عدو شريف وعدو الشريف شريف مثله . .

فقلت لصديقى :

ـ وهل قبضت عليه ؟

ـ لا ياسيدى . أنا لا أقبض على الناس فى الصعيد . هؤلاء ناس أشراف أحرار ، إذا آذيتهم أو أهنتهم لم تحصل منهم على شيء . أسوأ ما يعمله المحققون هنا أنهم يسرعون بالقبض على الناس . وفتح محاضر التحقيق ووضعهم فى الزنزانة أو التخشيبة . وتركهم ينامون على الأرضية الأسمنت متغطين بالبرش .. هنا لن يصبحوا بشراً ، ولن يصدقوك أبداً .. فى هذه القضية أنا لم أقبض على أحد. ولا أرسلت العساكر يأتونى بأحد، ولم أدع البوليس يضع يده على أحد ..

معذرة .. ربما لهذا السبب لم نستطع الوصول إلى المجرم .. ،

لا أدرى .. ولكنى واثق من أن هذا هو الطريق الوحيد لحل معضلة كهذه ..

ثم سكت ..

وظللت أنتظره أن يتكلم . ولكنه أشعل سيجارة ونظر من نافذة القطار ثم عاد إلىّ يقول :

ـ ماذا تنتظر ؟ .. لقد قلت لك كل ما عندى . . هل تراه قليلا ؟ ..

– بالعكس .. لقد وصلت إلى معلومات كثيرة جداً ،ولكن القضية زادت تعقيداً ..

– هذا صحيح ، ولكن هذه هى الطريقةالوحيدة للوصول إلى نتيجة.. الجناية كانت أول الأمر كقطعة صخر لا يدرى أحد مم تتركب .. ما عملته إلى الآن هو أنى كسرتها .. أصبحت قطعاً صغيرة .. تستطيع أن تقول إنه صار لدينا بدل الحجر الواحد مائة حجر ..بدل المشكلة الواحدة مائة مشكلة . . ولكننا نرى داخل المشكلة . . نرى شيئاً كثيراً جداً . .

وسكت لحظة ثم عاد يقول :

– وأنت ، ما رأيك ؟

– هناك ناس كثيرون ممكن أن تحوم حولهم الشكوك : محمود رحيمة مثلا .. أنا لا أستبعد أن يكون قد أذاع خبر حادث محطة الجيزة ..ولماذا تستبعد أن يكون أحد الناس قد أوصل الخبر إلى أولاد إسماعيل ؟ ..

فأسرع يقول :

– آه .. نسيت أن أقول لك أن عمدة الجعافرة قال لى إن اثنين من أولاد إسماعيل اتصلا به وقالا له إنهما سمعا إشاعة تقول إن أباهما سيتزوج قريبته ، وحذراه من ذلك ..

– أحدهما ابنه كمال عامر الذى حدثتنى عنه ..

– لا ، ولكن أخويه الآخرين ، ياسين وسعد الدين ..

– هل استجوبتهما ؟

– أكثر من مرة ، وشكوكى تحوم حول سعد الدين ،فهو شاب أصفراوى وخبيث وفى غاية القسوة .

– وأين يقيم ؟

– المفروض أنه يقيم فى أسوان ، ولكنه دائماً فى القاهرة .

– ولماذا تحوم شكوكك حوله ؟ ..

ـ لأنه ثبت لى أنه تغيب عن أمكنته المعهودة تسعة أيام من ديسمبر ، وقد وقعت الجريمة خلالها ..

ـ هذا لابد من القبض عليه ..

ـ اطمئن ، إنه فى أضيق من زنزانة السجن .. إن رجالى فى أعقابه خطوة خطوة .. من شهرين تقريباً حاول الاتصال بفاطمة ، قال لأصحابه إنه مستعد للزواج منها بدل أبيه ..

ـ وماذا دار بينهما ؟ ..

ـ لم ترض أن تقابله مرة واحدة .. إنها مختفية تماماً عن الأعين .. ولكنى أعرف بالضبط ماذا تعمل فى كل لحظة من لحظات النهار أو الليل. وقد تبينت أن لسعد الدين عامر رجلا يتبعه مثل ظله ، وهو شرير معروف؛ وهناك احتمال كبير جداً أن يكون هو القاتل . .

ـ حققت معه طبعاً ؟ . .

ـ دون شك ، وقد أمرناه ألا يغادر القاهرة ، وهو تحت مراقبة دائمة .

وكان قد تعب من الحديث ، وتعبت أنا أيضًا من الإصغاء وحصر الذهن ، فسكتنا . ووصل القطار إلى أسوان ، فخرجنا من المحطة صامتين واتجهنا إلى الاستراحة .

كان الوقت ظهراً ، اتصلنا بوكيل النيابة . وبزميل له انتدبناه من القاهرة من شهور ، وأخطرنا رجال البوليس بوصولنا ، وتغدينا ، وأوينا إلى الفراش لنستريح شيئاً قبل أن نخوض الجولة الأخيرة من هذه المعركة . .

صحونا بعد راحة قصيرة وقد تجدد نشاطنا ، وأحسسنا أننا نستطيع مواصلة العمل حتى الصباح . كنا قد اتفقنا على أن أول ما نفعله هو الذهاب إلى «الرمادى قبلى» للمعاينة ومراجعة الوقائع . لم نصدق أعيننا عندما رأينا عمدتها داخلا علينا . .

هل تستطيع أن تقول لى كيف تنتقل الأخبار فى الريف ، دون

تليفون . دون تلغراف . دون إذاعة ؟ ! .. قال لنا إنه أتى مصادفة (وهل فى ذلك شك ؟ !) كان غرضه أن يبلغ وكيل النيابة المقيم أنهم قبضوا على رجل غريب ثبت لديهم أنه كان يحوم حول القرية ليلة الحادث، وأنهم ضبطوا معه سلاحاً . وقد أتى معه بالرجل والسلاح للتحقيق والبحث والفحص .

من أول وهلة تبينت أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون القاتل . فقد كان المسكين ثلاثة أرباع أعمى . لكى يجلس على كرسى لابد أن يتحسسه بيده أولا مخافة أن يجلس فى الهواء . تبينت كذلك أنهم ضربوه ضرباً مبرحاً . كان ذلك بادياً على رقبته الطويلة وفى صدره المفتوح . عندما كشفنا ثيابه رأينا عجباً ، ما أتعس الضعيف فى هذه الدنيا !

وقال العمدة :

ـ لقد اعترف بالجريمة ياسعادة البيه .. اعترف وبصم بأصابعه العشرة ..

قلت له :

ـ لو فعلنا بك أنت ما فعلتم به لاعترفت بقتل سيدنا الحسين يا شيخ..

وبعد لحظة قال عبد الرحمن :

ـ هذا الرجل لم يفعل شيئاً . .

وصاح العمدة :

ـ تطلقون سراح مجرم ؟

ـ أولا هو ليس مجرماً . . على الأقل لم يثبت ذلك .. لن نطلق سراحه ، ولكننا سنعامله معاملة إنسان لإنسان .. فكوا قيود الرجل حالا ..

والتفت إلى أحد مساعديه وقال :

ـ خذ هذا الرجل ودعه يغتسل ، وغير له ملابسه وأعطه عشاء ودعه ينم فى إحدى الغرف هنا ، سنحتاج إليه فى التحقيق ..

وقال للعمدة :

ـ لماذا لا تكتب تقريراً عن حكاية هذا الرجل يا عمدة ؟ .. ادخل غرفة من الغرف هنا واكتب كل شيء بالتفصيل .. إذا كانت الكتابة تتعبك فليساعدك أحد الكتبة ..

واستدعينا بعد ذلك ناساً كثيرين. سمعنا كلاماً كثيراً جداً ، وكتب الكتبة محاضر تملأ مجلدات . ثم نظر عبد الرحمن فى ساعته وقال :

ـ الساعة الآن الثانية والنصف بعد منتصف الليل .. أظن أنه قد آن أن نستريح .. سننام هنا ، هل عندك مانع ؟ الاستراحة الحكومية ليست أحسن من هنا على أى حال ..

وقال وكيل النيابة :

ـ هنا غرفة نوم فيها سريران .. أعدتها المديرية لحالات الطوارئ

ـ حسناً .. لم نكن نعرف ذلك ..

وكان الخدم قد أعدوا لنا شيئاً من الطعام فى غرفة صغيرة ، فمضينا نتناول شيئاً مما وجدناه على المائدة . كنا متعبين جداً . ولكن أذهاننا كانت تطن وتوش كأنها خلايا نحل ..

* * *

وعندما قاربنا على الانتهاء . ولم يبق على المائدة إلا وكيلا النيابة دخل خفير فأدى التعظيم وقال :

ـ سعادة البيه .. هناك حرمة تريد أن تقابلكم ..

ـ حرمة ؟ .. أى حرمة ؟ ..

ـ حرمة لابسة أسود من فوق لتحت .. يظهر عليها يافندم أنها من عيلة كبيرة .. فنظرت إلى زميلى والدهشة تملأ وجهى ، وظللت أنتظر أن يقول شيئاً ، وأخيراً قال :

ـ هاتها ..

وبعد دقيقة كانت فى الغرفة امرأة طويلة لم نر لها وجهاً ، لأنها غطت رأسها كله بخمار سابغ .. وسمعت صوتها يقول بثبات :

ــ أريد أن أتحدث إلى القضاة وحدهم ..

ــ هذان ياسيدتى مساعدانا وهما وكيلا نيابة ، وما ستقولينه أنت لابد أن يسجلاه هما .. فليس هناك أى معنى لإخراجهما .. من أنت ؟

وقال الخفير :

ــ تعبت معها يا فندم .. لا تريد أن تقول ..

ــ إذن فاخرج أنت وأغلق الباب وقف عنده ، لا نريد أن يدخل أحد .. سمعت ؟ .. تفضلى ياسيدتى .. تفضلى اجلسى ..

وسارت فى خطًى متزنة وجلست ، ثم كشفت عن وجهها . أحسست فى نفسى أننى رأيت هذا الوجه قبل ذلك . ونظرت إلى عبد الرحمن فإذابه ينظر إليها صامتاً واجماً وقد فتح عينيه على اتساعهما فى دهشة كبرى . وقالت السيدة :

ــ أنا فاطمة عبد النور جادالله عيسى ..

وصمتت لحظة ، ثم عادت تقول :

ــ أنا قتلت إسماعيل عبد الحميد عامر فى ٦ ديسمبر من العام الماضى .

وقال عبد الرحمن وهو لا يصدق ما يسمع :

ــ أنت قتلت إسماعيل عامر ؟ !

ــ نعم قتلته عند منتصف الليل وهو خارج من بيت قريبى رمضان عبد الوافى عمدة الجعافرة .. قتلته بهذا السلاح ..

وأخرجت من ثيابها بندقية ووضعتها على المنضدة . تناولها عبد الرحمن وفحصها ثم قال : ماوزر سبرينجفيلد عيار ٣٠–٦ صناعة أمريكية . بالضبط هذا هو السلاح الذى استعمل ..

ــ وهل كان العمدة يعرف بوجودك ؟ ..

ــ لا .. لم يعرف إلا خادمى برهوم عطية الذى قبض عليه العمدة وضربه ليقر ..

ونظرت إلى عبد الرحمن وقلت :

ـــ هذا هو الرجل الذى أمرت بمعاملته معاملة حسنة ، هاهو شريك فى الجناية ..

فقالت السيدة :

ـــ لا .. ليس شريكاً ولا يعرف شيئاً ، أتيت به ليدلنى على الطريق ليس إلا ، ولكى يحمينى إذا حاول أحد الاعتداء علىّ فى ليل الريف والغيطان ..

فسألها عبد الرحمن :

ـــ ولماذا قتلت إسماعيل عامر ؟

ـــ انتقاماً لشرفى . كان قد وعدنى بشرفه بالزواج : على هذا الأساس قبلت لقاءه على انفراد فى بيت فى حى الدقى بالقاهرة . هناك اتفقنا على أن يتم الزواج قبل أن ينقضى شهران . بعد ذلك بدأ يراوغ ويسوف . فى ٢٠ نوفمبر أرسل إلىّ يقول إنه يرى أنه لابد من تأجيل الزواج ستة أشهر. قال إنه سيتصل بى ليشرح الموضوع . لم يتصل . أرسلت إليه رسولا فتهرب من مقابلته . لم يعد هناك شك فى خيانته . لا يغسل الشرف إلا الدم ، لهذا قتلته ..

ـــ كيف قتلتيه ؟

فأخرجت من صدرها مظروفاً وناولته لعبد الرحمن ، كان المظروف مفتوحاً أخرج منه عبد الرحمن حزمة أوراق كبيرة ، وقالت هى :

ـــ هنا تجدون تفصيل كل شىء .. إنه اعتراف بخطى وإمضائى كتبته خلال اليومين الماضيين .

وقال عبد الرحمن :

ـــ هذا كلام كثير .. إنه يحتاج إلى وقت كثير لقراءته ..

ـــ نعم . إلى أن تقرأوه ،هل تسمحون بأن آوى إلى غرفة لأستريح ؟ لى ثلاثة أيام بلياليها لم أنم . .

وأخذناها إلى الغرفة التى كنا سننام فيها فى الطابق الأعلى : لحسن

الحظ كانت النوافذ كلها محصنة بالحديد . كلفت مساعدينا وكيلى النيابة بحراسة الغرفة . رجوتهما أن يقوما بذلك بالتناوب، وألا يكلا ذلك إلى أحد. وعدنا إلى غرفتنا، واسترخى كلانا فى كرسيه محاولا اصطياد لحظة نعاس..

* * *

كانت الساعة الثانية والربع صباحاً عندما أفقنا على أصوات تنادينا . دخل علىّ وكيل النيابة مذعوراً وقال :

— المتهمة انتحرت . .

— انتحرت ؟ كيف وأنتم هناك ؟

— قطعت شرايين يديها بموسى كانت معها ، وتصفىّ دمها كله طول الليل . .

— نادوا الطبيب ، افعلوا أى شىء ، لابد من إنقاذها . .

— لافائدة . . الطبيب الشرعى هناك ،وهو يؤكد أنها ماتت منذ أكثر من ساعتين . .

وصرخت دون وعى منى : ولكن لماذا انتحرت ؟ . .

وفى هدوئه المعتاد ، قال عبد الرحمن وهو يشعل سيجارة :

— لأنها تحبه أكثر من الحياة ياعزيزى . . قتلته ، وكان من الممكن أن يظل سرها مكتوماً إلى الأبد . . ولكنها لم تحتمل الحياة بعده . . يا إلهى ! ما أظلم الحب! ما أقساه! ما أحرّ نيرانه فى قلب المحب المهجور، وخاصة إذا كان أصيلا من طراز فاطمة عبد النور .

البـــؤس



لا أدرى — على وجه التحديد — متى ولدتُ ، فقد كان ذلك فى واحدة من تلك الألوف من القرى التى تعمر بطن الريف فى مصر ، حيث كان الناس لا يحرصون على ضبط تاريخ ولادة أو قيد اسم مولود . .

كان ذلك منذ سنوات كثيرة جداً . أما شهادة الميلاد التى أحملها الآن فقد كتبها لى طبيب ، بعد أن صرت رجلا ثابت القدم فى الحياة ، كتبها بحسب ما أردت وهى ، تقول إن سنى بعد الخامسة والخمسين بقليل ؛ ولكننى أكبر من ذلك بكثير . .

إذا كنت أستطيع أن أكذب على الناس . فإننى لا أستطيع أن أكذب على نفسى . لأن حمل السنين فوق عاتقى باهظ وثقيل . ستعرف أنت أيضاً ثقل هذا العبء عندما تتعالى طبقات السنين فوق كتفيك . . ستشعر بمثل الرغبة التى أشعر أنا بها الآن ، وهى أن أحط عن كاهلى هذا العبء وأهرب منه . . ولكن كيف ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ ألكى أعيش حياتى من جديد ؟ ليس فيها ما يغرى بالاستعادة . وقد أخذت من هذه الدنيا حظى ، وآن أن أترك مكانى لغيرى . . .

ثم إننا كنا فى بلدنا — ولا نزال ، فيما أظن — نكره قياس الأعمار وحساب السنين ، لأن الزمان عندنا عدو يترقب بالإنسان الدوائر ، فلابد — لهذا — من مراوغته وخداعه والاحتيال عليه ، وهو آخر الأمر — فى حسابهم — يوم واحد يتكرر . .

الأمس مات ولن يعود ، والغد لم يولد بعد ، فما معنى التفكير فيه ؟

إن العالم يموت مع غروب كل شمس ، ومع شروق شمس اليوم التالى يولد عالم جديد ، بمتاعبه وهمومه ، ولهذا فهم لا يصطحبون متاعب اليوم وهمومه إلى الفراش . .

إنهم يتركون الديون والأحقاد والمخاوف عند الباب ، وينامون نوماً عميقاً . .

فى الصباح يمكنها أن تعود ، وفى كثير جداً من الأحيان لا تعود ،

إنها تتبدد وتتلاشى فى ظلام الليل . .

كان أبى يقول : الهموم مثل الزرع ، إذا عنيت بها نمت وزادت، وإذا أهملتها ذبلت وماتت . .

على هذه الفلسفة عاشوا وماتوا آلافاً كثيرة من السنين . فإن قريتنا هذه لابد قد ولدت عند الخليقة ؛ فكل ما فيها كان عتيقاً قديماً حزيناً . .

حتى أبى . . كنت أتصور وأنا طفل أن عمره خمسمائة سنة ؛ فقد كان وجهه كله غضون وأخاديد . .

كان نجاراً ، حياته كلها سعى إلى الرزق ، وحرب لإطعام أفواه كثيرة ؛ غير المعاونات التى لابد منها للخالات والعمات . كان نجار سواق ، مصنعه رحبة واسعة خلف البيت . كان أشهر نجار سواق فى المديرية كلها ؛ ومع ذلك فلم يعرف الحساب أو القياس حياته كلها . كل شىء كان عنده بالنظر والتقدير التقريبى . .

ولماذا القياس والتدقيق ؟ إن الساقية عجلة ضخمة ليس من الضرورى أن تكون كاملة الاستدارة ، وأوطابها آنية من خشب يفر الماء من شقوقها فلا يصل منه إلى القناة إلا ثلثه أو ربعه . ومحور العجلة لا ينبغى أن يكون مطابقاً لثقب مركزها . وانعدام الدقة فى صنع الساقية هو الذى يجعلها عنصراً من عناصر الفن فى حياة الفلاح ، إنه هو الذى يجعلها تبكى وتنوح وتصاحب الفلاح فى الموال !

كان المفروض أن أصبح نجاراً مثل أبى ، ولكن صاحباً له كان يعمل بنّاء ، واحتاج إلى صبى ، فأمرنى أبى أن أصحبه وأعمل معه ؛ وهكذا تقرر مصيرى وصرت بنّاء . .

ليس فى الدنيا أقل رزقاً من بناء فى قرية مثل قريتنا ؛ فالناس هناك لايحتاجون إليه ، لأنهم يبنون مساكنهم بأيديهم. القليلون الذين يبنون بيوتاً باللبن أو الطوب الأحمر ، هم العمد والمياسير من أصحاب الضياع ، لهذا كانت أيامى مع هذا الرجل رحلة دائمة من قرية إلى قرية ، بحسب مطلب الرزق والتساهيل . .

ولكن مورد رزقنا الحقيقي في هذه القرية كان حفر الآبار وبناءها .
فإن قريتنا على الطرف الشرقي للدلتا . حيث لا يصل الماء إلى الترع
إلا بضعة أسابيع تعقب الفيضان . عماد الناس بقية السنة على مياه الآبار .

في هذا الفن كان معلمي أستاذاً عظيماً : كان يعرف طبيعة الأرض .
ونوع الحفرة التي ستحفر للبئر . وسعتها واتجاهها . . فإذا فرغ الحفارون
من عمل الحفرة ، ووصلوا إلى « رأس الماء » ، بدأ عمله الحقيقي . وهو
عمل دقيق عسير يتلخص في « بناء الحفرة » — أي تبطينها — بالحجر من
أسفل إلى ارتفاع ثلاثة أمتار . ثم بالطوب الأحمر بعد ذلك . وبناء
سلالم حلزونية — أو زِجزاجة — تنتهي بمصطبة عند الماء . يقف عليها
الناس لاستخراج ما عسى أن يقع في البئر . أو لتنظيفها .

وكنت — مثل كل صبي يعمل مع معلم — أقوم بأعسر جزء من ذلك
العمل : كانوا يدلونني في الحفرة إلى قاعها ، لكي أسوي الجدران وأتقن
استدارتها قبل البدء في البناء . كانوا يترلونني في الصباح جالساً على لوح
من الخشب مربوط من طرفيه بحبلين . وإلى جانبي شمعة ومعي علبة ثقاب
لأن الظلام في القاع دامس . وعلى ضوء الشمعة كنت أعمل في الجدران
بآلات بدائية علاها الصدأ .

ولا أستطيع أن أصور لك رعبي الدائم ، وأنا أعمل في هذا القبر طول
النهار : كنت صبياً في الثامنة من عمري . وليس هناك ما هو أشد إرعاباً
لصبي في مثل هذه السن ، من البقاء ساعات متوالية في الظلام تحت
الأرض . والحشرات والديدان تجري على الجدران ، وتسقط عليّ أو تجري
على يديّ . .

قاسيت مع هذا المعلم خمس سنوات أو ستاً ، تعلمت فيها شيئاً
كثيراً . ولكن أقصى ما وصلت إليه من الأجر كان خمسة قروش في
اليوم ، في مقابل عشر ساعات أو أكثر من ذلك العمل الذي وصفته
لك . .

وفى الشهور الأخيرة من عملى معه كنت أقوم بكل شىء . حتى تبطين الحائط كنت أقوم به . والمعلم جالس قرب حافة البئر ، يدخن الجوزة ويحتسى الشاى كوباً بعد كوب . ولقد حاولت الفرار مراراً من ذلك الشقاء ، ولكن والدى أصر على أن أستمر حتى أصبح « معلماً معتبراً » . كما كان يقول . .

وعندما انقضى من عمرى ستة عشر عاماً . فكرت فى ترك المعلم والاستقلال بنفسى ، ولكن آداب المهنة فى بلدنا لم تكن تسمح للصبى بأن يستقل عن معلمه . إلا إذا مات هذا أو أذن له فى الاستقلال ، فلم يكن لى بد من احتمال متاعبى والسير بها مع الأيام . .

وفى ذات مساء عدت من العمل ففوجئت بأن أبى قد مات . مات بعد خروجى إلى العمل فى الصباح ، ولم يعرفوا مكانى ليستدعونى ، فدفنوه دون أن أراه ، ولم يبق لى إلا أن أتقبل العزاء فى الدوار . .

وبعد ذلك بأشهر قلائل مضى المعلم — هو الآخر — إلى حال سبيله : وخلفه فى عمله ابن له شاب لاعب لا خبرة له بالعمل . ولكنه ورث عمل أبيه واسمه . وأراد أن يرثنى أنا الآخر ضمن التركة ، وأصر على أن أظل فى العمل بنفس الشروط .

وأنفت نفسى ذلك . فانفصلت عنه . ومضيت أبحث عن عملاء فلم أوفق كثيراً ، لأن الناس جاملوا الابن بل لاموني على انفصالى عنه . فقبعت فى دارى واجتهدت فى أن أشق طريقى وحدى .

وكانت الأحوال فى بيتنا قد تغيرت تغيراً كبيراً : فعقب موت أبى بأيام ، أقبل أخى الأكبر وزوجته البدينة وأولاده الستة فاحتلوا البيت علىّ وعلى أمى ، ولم يبق لنا إلا ركن صغير . ومضى أخى يستثقلنى ويتبرم بوجودى ، لا تمأ إياى صباح مساء ، وقائلا إننى متبطل لا أريد العمل وأرجو أن أعيش عالة عليه . وضاقت الدنيا فى وجهى .

ثم جاء الفرج ذات ليلة . زارنا خال لى كان يعمل فى مصنع يملكه رجل يونانى فى الإسكندرية . وفى حديثه مع أمى قال لها إن المصنع فى حاجة

إلى بنّاء ، وعرض عليها أن تأذن لى فى السفر معه .

كنت إذ ذاك راقداً فى غرفة مجاورة أسمع — وأنا يقظان نائم — ما يجرى بينهما من حديث . فأصغيت عندما سمعت ذلك ، وسمعت أمى ترفض رفضاً قاطعاً أن أمضى لأعمل بعيداً عنها ، ثم ترجوه ألا يقول لى أو لأحد شيئاً عن الموضوع . .

ولكننى وعيت الحديث كله ، وكنت أعرف عنوان خالى فى الإسكندرية ، فمضيت طول الليل أدير الفكرة فى خاطرى . واستقر رأيى قبيل الفجر على أن أمضى بنفسى إلى هناك ، إذ لا معنى لأن أظل فى هذا الفقر والشقاء مراعاة لعواطف أمى ، ولو أطاع الأبناء عواطف الأمهات لما ظهر فى الدنيا بطل أو مغامر . .

وبعد ثلاثة أيام ، بارحت الدار مع تباشير الصباح ، زاعماً أن ورائى عملا فى قرية بعيدة ، ومضيت أسأل من ألقاهم فى الطريق عن « سكة الإسكندرية » ، حتى وصلتها بعد أربعة أيام . كنت أسير طول النهار ، فإذا هبط الظلام بحثت عن مكان مهجور أنام فيه . وكانت معى قروش قليلة ، أشترى منها ما تيسر من الطعام .

ودخلت البلد الكبير ، فكأنما ألقى بى فى بحر : شوارع كثيرة متشابهة ، وألوف من الناس تروح وتجىء معجلة كأنما قامت القيامة ، وعربات وترام وباعة جوالون ، ودنيا لا أول لها ولا آخر . .

وغرقت فى هذا البحر : أدخل فى شارع وأخرج من آخر ، وكلما سألت إنساناً عن العنوان — وكنت أحفظه — نظر إلىّ متفحصاً كأننى أتيت من كوكب آخر ، أو كأننى لا أتكلم « العربية » ، وتأملنى ساخراً وضحك واستضحك مَن حوله ومضى . .

وجاء المساء وكنت قد هلكت ، فمضيت أبحث عن شىء أبيت فيه ، ومررت ببائع خبز وطعمية على ناصية حارة ، فمضيت إليه وأعطيته قرشاً ، فناولنى ما تيسر ، ورآنى آكل فى نهم فنظر إلىّ بعطف ، وتشجعت

فسألته عن العنوان ، فمضى يسأل من حوله ، حتى عثر آخر الأمر على غلام يعرفه ، فتطوع ليدلني عليه ..

وسرت خلفه ، حتى إذا بلغنا طرف البلد — فيما أتصور — أشار إلى مبنى كبير تتصل به ساحة يدور عليها سور طوله طول قريتنا كلها ؛ وقال : « ها هو محلج جالانو » .. وأعطيته قرشاً فمضى يجرى فرحاً . وكنا حوالى منتصف الليل .

وكان نباح كلاب كثيرة يترامى إلىّ من داخل المحلج ؛ فابتعدت عن السور ولجأت إلى جدار كوخ خشبي . ووضعت جنبي على الأرض فنمت فى الحال ..

* * *

لا أنسى ما حييت منظر هذا الرجل أول ما لقيته . كان طويلا عريضاً أحمر الوجه أبيض الشعر . وكان له شارب كبير أبيض وقور . كان رجلا هادئا رزيناً يتحدث فى تؤدة بصوت عميق ينم عن كمال ورجولة . أصغى إلى قصتى وهو يدخن سيجاراً . فلما فرغت ابتسم ، وأحسست بأنه أعجب بالمغامرة التى قمت بها ..

ولم يسألنى عن خبرتى فى البناء ، وكأنما اكتفى بما لقيت من العناء فى سبيل الحصول على العمل ، فربت على كتفى وقال بلهجة مصرية خالصة : « حماسك جيد يا بنى ، ولك مستقبل ! ستعمل عندى بناء فى العزبة ، وسأعطيك عشرين قرشاً فى اليوم » . ثم التفت إلى خالى وقال : « خذه عندك الليلة ، وأطعمه جيداً ، فقد هلك المسكين ، وفى الصباح تقدمه إلى استيفانيدس » .

وعندما قابلت استيفانيدس فى الصباح ، تبينت أن الخواجة جالانو قد قص عليه خبرى وأوصاه بى ..

كان شاباً لطيفاً من مواليد مصر ، يتحدث المصرية ويقرأ العربية ويكتبها كأنه عربى ، وكان آية فى الذكاء والطيبة والكفاية ، وكان خاله

« الخواجا » قد أقامه مديراً للعزبة ، وكانت تقع قريباً من بحيرة مريوط . أخذنى فى سيارته ، وملكنى الذهول وأنا أتأمل هذا الشيء الهائل الذى يسميه عزبة : مساحات شاسعة مزروعة فواكه من كل صنف ، ومئات الصفوف من شجيرات صغيرة قيل لى إنها عنب ، وحقل واسع مزروع قطناً وآخر قمحاً ، ثم مرعى فسيح تسرح فيه أبقار لم أر فى حياتى مثلها . .

وكان اسطفان — وهكذا كانوا ينادونه — يمر بى مسرعاً من جانب لجانب ، ويتحدث وأنا بالكاد أستطيع ملاحقته . ثم مضى بى إلى مجموعة من المساكن الجميلة تقوم فى أربعة صفوف . وقال إن هذه هى مساكن العمال ، وأعطانى مسكناً فى الدور الثانى من واحد منها .

ثم مضى بى إلى موضع فى طرف الضيعة رأيت فيه أربع آبار أو خمساً . فقال : « هذا عملك : تعنى بهذه الآبار وتبنى لنا ستاً أخرى حددت مواضعها . . » . ثم أمر أحد مساعديه أن يأخذنى عنده إلى الغد ويسرع بإعداد مسكنى ، وقال إنه ينتظرنى فى الساعة السابعة من صباح غد عند موضع الآبار لأبدأ العمل . .

وشعرت بخيبة أمل كبرى : لقد عدت إلى العمل فى الآبار ! هربت منها هناك لأجدها فى انتظارى هنا ! محكوم عليّ أن أقضى عمرى كله فى هذه الحفر ، كأننى ولدت للموت البطيء دفينا تحت سطح الأرض ..

وعدت إلى بيت زميل لى ثقيل القلب . وانتقلت مساء اليوم نفسه إلى مسكنى الجديد ، فأحسست أننى ولدت من جديد : غرف جميلة نظيفة ناصعة البياض ، تضيئها مصابيح كهربائية ، تدير المفتاح فإذا بها تملأ البيت عليك ضياء . . وماء صاف كالبلور ينصب من الصنبور أنى شئت . . وفراش وثير وأثاث جميل ، ما كنت أحلم بمثله أبداً . .

أحسست كأنما كنت ميتاً فبعثت حياً ، أحسست أننى أعيش ، ومس قلبى — للمرة الأولى فى حياتى — فرح بالحياة وبشر لها . . أحسست أننى إنسان ، وأن الحياة جديرة بأن تعاش ، وهان عندى العمل فى الآبار ،

ما دام هو سبيلى إلى هذا العيش الكريم . .

وبكرت فى الصباح لألتى اسطفان . وفحصت أمامه بئرين واقترحت ما يصلحهما ، ثم ذهبنا فعاينا مواقع الآبار الجديدة . وانقضى اليوم وأنا فى عمل متصل مع الشاب اللطيف . ومضت الأيام بعد ذلك تترى . ووجدت معى زملاء طيبين سعداء فأشرقت نفسى . ورضى عنى اسطفان فمضى يصطحبنى معه فى كل عمل . .

كان مهندساً ممتازاً . كنا نسميه الباشمهندس . وتعلمت منه كثيرا من أصول البناء والمعمار. فلم أقتصر على الآبار. وزاد مرتبى إلى ثلاثين قرشاً فى اليوم ، ثم قدروا لى مرتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات . وكتبت لأمى بما أنا فيه من السعادة ودعوتها للعيش معى فأقبلت . وطوتنا السعادة فى أعطافها ، ومضت الأيام رخاء . .

وفى ذات مرة قال لى اسطفان : أليس عاراً على شاب ذكى مثلك أن يظل أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ . .

فأخذت دروساً على شيخ . وما مضت أشهر حتى صرت أقرأ وأكتب ، وانفتح أمامى باب القراءة الواسع ، فأقبلت أقرأ الصحف والمجلات والكتب وكل ما تصل يدى إليه ، ورأيت أنى أمضى إلى عالم جديد جميل ، وأنى أصبح إنساناً أحسن يوماً بعد يوم . .

وكانت تسكن الدور الأرضى فى بيتنا امرأة كريمة تسمى نفيسة . كان زوجها يعمل فى الضيعة ثم مات فى حادث . فعرضوا عليها أن تبقى فى الضيعة وتقوم بغسل الملابس ويجرى عليها راتب زوجها ، فقبلت. وكان لها ابن صغير وحيد اسمه « سلامة » ، كان قطعة من الظرف وخفة الروح ، وكان فى السادسة من عمره فتعلقت به وتعلق بى حتى صرت لا أخطو خطوة إلا وهو معى ، فإذا عدت إلى البيت مع الليل تعشى معى وأمى وبقى معنا يلعب ويصخب ، وأنا أقرأ وألاحظه كأنه ابنى ، حتى إذا تعب وأدركه النوم أخذته أمى إلى فراشها ، أو نام

على أريكة فى غرفتى ، لكى أستمتع بصحوه فى الصباح ، وأستمع إلى هذه العبارات اللطيفة التى لا تصدر إلا عن الأطفال فى سنه . .

وأخذنى اسطفان لأعمل معه فى عمارة كبيرة كان الخواجا يبنيها فى الإسكندرية . هناك أصبحت مساعداً للباشمهندس ، فعلمنى الرسم والقياس واستعمال أدوات المهندسين . وصار إذا تغيب قمت بالعمل مكانه ونفذت المشروع كما هو فى الرسم ، فلما فرغت العمارة أعطانى عشرين جنيهاً ، ثم مجموعة من رسوم المبنى وأعطانى إياها وقال لى : أنت الآن أكثر من معلم : أنت مهندس . .

* * *

وفى ذات يوم عدت من الإسكندرية حوالى الحادية عشرة مساء ، وسألت عن « سلامة » قبل أن أجلس إلى مائدة الطعام ، فقالت لى أمى إنه يلعب مع الأطفال . فإذا نحن فى هذا سمعنا ضجة وأصواتاً ووقع أقدام تجرى ، فنظرت من النافذة وسألت ، فقالت امرأة تعدو : سلامة! قلت مترعجاً : ماله ؟ فلم ترد : فهرولت إلى الطريق وتبعت الناس . وعلمت فى الطريق أن سلامة وقع فى بئر مهجورة فى طريق الضيعة كانوا يسمونها « الغولة » لرهبتها . ووصلت إلى الموقع فإذا الناس حول الحافة فشققت طريقى بينهم ، ونظرت فى البئر وسألت :

ـــ أنتم متأكدون أنه وقع ؟

فقال غلام وصوته يشرق بالبكاء والفزع :

ـــ نعم.. كنا نلعب هنا ، وقال لنا إنه مثلك مهندس آبار ، ثم نزل بضع درجات ليرينا مهارته ، فزلقت قدمه ووقع . .

وانبطحت على الأرض ، وتدليت فى البئر قدر ما استطعت وناديت : سلامة ! سلامة !

ومن قاع البئر سمعت صوتاً ينادينى ، ولكن ضجيج الناس كان عالياً فصرخت فيهم فسكتوا ، وناديت مراراً أخرى ، وسمعت الصوت

الصغير ينادى أمه ويناديني ويبكي .

وهذه الآبار – كما قلت لك – ليست مجرد حفر ، فإننا نبنى أسفلها عند رأس الماء مصطبة من الحجر يقف عليها عمال التنظيف أو الإنقاذ . ثم طلبت قنديلا علقته فى ذراعى ، ومضيت أنزل سلالم البئر ، ثم وجدت السلالم تنتهى بعد نحو متر ونصف ، فعلمت لماذا سقط المسكين ، فصعدت وطلبت حبلا ، فجاءونى به ، وثبته على الحافة ، وربطت القنديل على صدرى . .

فإذا أنا أهم بالنزول إذا أمى مقبلة تصرخ وتستغيث ، ثم أنشبت يديها فى عنقى وأخذت تولول وتبكى وتقسم أننى لن أنزل أبداً ، وعبثاً حاولت التخلص منها ، فقد كانت يداها قد ماتتا حول عنقى ، وقالت إن الغلام مات من زمن ولن تتركنى أموت أنا الآخر . . وحاولت إقناعها بأنه حى وأننى سأعود به ، ولكنها كانت قد جُنت ولم تعد تفهم شيئاً ، وانضم إليها نفر من الرجال فأحاطوا بى جميعاً وحملونى وأنا أحاول الفكاك منهم ، وأخذ واحد منهم الحبل والقنديل وجرى قائلا إنه من الجنون أن أقتل نفسى على هذه الصورة . .

ويبدو أن أحدهم ضربنى على رأسى ضرباً متتابعاً ، لأننى لم أعد أرى شيئاً ، وأفقت بعد ساعات فوجدت نفسى على الأريكة فى بيتى ، فنهضت أتسحب مخافة أن تستيقظ أمى ، وأخذت أدواتى ومصباحى ومضيت بمفردى نحو البئر . .

كانت الساعة الرابعة والنصف صباحاً ؛ وثبت الحبل ، ومضيت أنزل فى البئر حتى وصلت القاع ، وهناك وجدت الغلام منطرحاً : نصفه الأعلى على المصطبة وقد تدلت رجلاه فى الماء . جسست نبضه فإذا المسكين جثة هامدة .. ساعتها شعرت بغضب لا أنساه عمرى . . فهذا الغلام لم يمت غرقاً ولكنه مات فزعاً ، لقد جاهد فى البقاء على المصطبة قدر استطاعته ، حتى خارت قواه فارتمى وتدلى نصفه الأسفل فى الماء ومات . كان حياً عندما حاولت إنقاذه ، ولو تركتنى أمى لانتشلته وانتهى الأمر بسلام . . .

وحملت جثمان الصغير بذراع ، ومضيت أتسلق بيد واحدة وقد

ثبتّ قدمى فى الجدران . ووصلت إلى الأرض بعد ساعة أو نحوها وأنا خائر القوى ، ووسدته الثرى وجلست أمامه أبكى مصيبتى فيه . وأقبل واحد من الخفراء . ثم تجمع الناس حولنا ، وبعد قليل أقبل اسطفان ورآنى على هذه الحال ؛ وقصصت عليه الأمر ، فأخذ بذراعى ومضى بى إلى بيتى يعزينى ويواسينى .

لم أحضر جنازة الغلام ولا دفنه ، إذ لم أكن أستطيع ذلك ، فمضيت مع اسطفان إلى الإسكندرية طول اليوم . وعندما عدت فى الليل لم أطق النظر فى وجه أمى . إنها هى التى قتلت سلامة . . كان دافعها الخوف علىّ ، ولكنها قتلت الغلام على أى حال .

وهبط ستار كثيف بينى وبينها . لم أعد أتحمل رؤيتها أو سماع صوتها ، فضلا عن المقام معها . كنت أخرج إلى العمل مع البكور ؛ وأعود مع الليل فآوى إلى غرفتى دون أن يدور بينى وبينها أكثر من تحية مقتضبة . .

وشعرت بضيق شديد جعل يتزايد يوماً بعد يوم . كرهت الضيعة وما فيها، وأصبحت أقضى الليالى المتوالية دون نوم ، حتى خفت على نفسى . ومضت أمى تشكونى للجيران والجارات فأخذوا يلوموننى لوماً شديداً . . أما أم سلامة ، فقد نزل بها ذهول وصمت ، وما رأتنى مرة إلا أطالت النظر إلىّ دون أن تقول شيئاً ، ثم أجهشت فى البكاء . .

فلما طال الأمر ، نظر إلىّ اسطفان وقال :

ــ حالك لا تعجبنى يا محروس . . أنت لست مسئولا عن موت هذا الغلام ، فلماذا تعذب نفسك على هذه الصورة ؟

ــ كان من الممكن أن أنقذه ياباشمهندس ، لولا أمى . .

ــ وما ذنبك أنت ؟

ــ أنا وأمى واحد ، وأنا الذى أتيت بها إلى هنا . .

ــ وماذا يجدى الحزن الآن ؟ ما وقع وقع ولا حيلة لك فى إصلاحه . .

— تلك هي مشكلتي ، لو كانت هناك أي وسيلة لإصلاحه لما ضاقت الدنيا فى وجهى على هذه الصورة .. إننى أرى صورة سلامة كلما أغمضت عيني . كلما رأيت أمى بدا لى هول جريمتها .. أمى قاتلة ياباشمهندس ، ولا أطيق أن أعيش معها .. قتلت طفلا مسكيناً ..

— لا تبالغ يامحروس .. إنها لم تقتله .. لقد فعلت ما كانت تفعله أى أم فى مثل هذه الظروف : حالت بينك وبين الموت ..

— باشمهندس ! ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى ؟

— كنت أعيد أمى إلى قريتها بعض الوقت ..

— هذا لا أستطيعه .. لا أستطيع إخراجها من بيتى .. ثم إن أخى فى القرية لا يريدها ..

— إذن ما العمل ؟ .. لابد من حل . لن تستطيع الاستمرار طويلا على هذه الصورة ..

فظللت لحظة صامتاً ، ثم وضعت يدىّ على كتفيه ونظرت إليه طويلا ، ثم قلت :

— الحل أن أذهب من هنا . انتهت سعادتى فى هذا المكان وماتت مع سلامة فى البئر الملعونة !

فابتسم متعجباً ، وهز رأسه وقال :

— هذا جنون .. أنت لم تبدأ هنا بعد .. المدة الماضية كانت مدة تعلم ، وأنت الآن أهل لعمل أكبر ومسئوليات أكثر .. من أيام كنت أتكلم مع الخواجة فى أمر تعيينك مكانى هنا ، لكى أنتقل أنا إلى الإسكندرية وأشرف على المبانى التجارية .. الخواجة هو الذى اقترح ذلك .. أتدرى ما معنى ذلك ؟ معناه أن راتبك سيرتفع إلى أربعين أو خمسين جنيهاً فى الشهر ، وستأخذ دارى هنا بما فيها ..

فهززت رأسى وقلت :

— ليتنى أستطيع قبول ذلك .. أريد أن أبتعد عن هنا عامين أو

ثلاثة .. أريد أن أذهب إلى حيث لا أرى أمى ولا البئر ولا الأماكن التى كان سلامة يلعب فيها .. إننى لا أنام ياباشمهندس ولا آكل .. شىء انهدم داخل كيانى ، ولا بد أن أعيد بناءه بعيداً عن ذكريات المأساة . .

ــ وإلى أين تريد أن تذهب ؟ . .

ــ إلى آخر الدنيا . . إلى مكان لا تستطيع أمى الوصول إليه . . ساعدنى ياباشمهندس ، أرجوك . . أنتم تعرفون الدنيا أكثر منا . .

ــ تريد أن تهاجر مرة أخرى ؟ . .

ــ نعم أريد أن أهرب من نفسى ومن أمى . . ومن سلامة . .

. وافترقنا . عدت إلى عملى وشعرت كان حملا ثقيلا قد انزاح عن صدرى . كنت واثقاً من أن اسطفان قد فهمنى . ولم نتحدث فى الأمر أياماً كثيرة ، وفى ذات مساء كنت أجلس معه فى مقهى على شاطئ البحر صامتاً ، فأمسك بذراعى وقال :

ــ تسافر إلى المكسيك يا محروس ؟

ــ المكسيك ؟ . . هذه بلد ؟ . .

ــ بلد واسع عظيم . . مساحته أكبر من مساحة مصر ثلاث مرات أو أربعاً . .

ــ وبعيد ؟ . .

ــ جداً . . بيننا وبينه بلاد وجبال وبحور . . .

ــ أى أن أمى لن تستطيع إدراكى هناك ؟

ــ ولا الشيطان . .

ــ هل لك معارف توصيهم بى هناك ؟ . .

ــ أمى بالذات . .

ــ إذن سأذهب إلى هذا البلد . .

ــ ولكن هناك حروباً وثورات . . .

ــ لايهم . . لو بقيت هنا فمصيرى إلى الجنون . .

ـ وتعود إلينا بعد سنتين ؟ . .
ـ أعلك بذلك . .
وتصافحنا . . وابتسمت ، للمرة الأولى من شهور . .

* * *

رسمت خطة السفر مع اسطفان وكيل صاحب الضيعة اليونانى . وعارض الخواجة صاحب الضيعة أول الأمر فى المشروع ، ولكن اسطفان ما زال به حتى رضى . وكان لاسطفان صديق ربان لسفينة تجارية يونانية تعمل بين موانى اليونان وأمريكا ، فكلمه فى أن يأخذنى عاملا أو بحاراً .

كنت إذا ذاك فى الثانية والعشرين من عمرى ، ولكن تجارب أيامى جعلتنى أكبر من سنى بكثير . وكانت صحبتى لاسطفان قد أوسعت ذهنى وقلبى وحببت إلىّ المغامرة والمخاطرة ، فلم يعد لى بعد ذلك تفكير إلا فى ذلك البلد الكبير ، القريب البعيد الذى سأمضى إليه ، المكسيك . . وخفت عن نفسى هموم أمى وسلامة .

وكان لدىّ ٢٥٠ جنيهاً ادخرتها ، فأعطيت مائتين منها لاسطفان لكى يعطيها لأمى بعد سفرى ، لتشترى بها فداناً فى بلدنا وتعيش فى سلام . وكانت امرأة حازمة واعية ، تستطيع السير وحدها فى الحياة معتمدة على هذا المِلك الصغير .

وفى طى الكتمان مضيت فى الاستعداد فلم تعلم أمى بشىء ، ولا لاحظ خالى شيئاً . واستخرجت جواز السفر ، وتأشيرة دخول وهجرة إلى المكسيك . وفى العاشر من نوفمبر سنة ١٩٣١ ، وقفت على ظهر باخرة البضائع اليونانية « كرينيا » ، أنظر إلى الإسكندرية وهى تبتعد عنى رويداً رويداً . .

كان ضباب البكور يغشاها ، وأشعة الشمس تمتد خيوطاً من ذهب رقيق لتوقظ عروس البحر الأبيض المستسلمة للنعاس ، وطيور البحر

تحوم وتدور وتتنادى ، ثم تتبع الباخرة حتى ابتعدت عن الشاطئ . وشيئاً فشيئاً اختفى الميناء الجميل وراء الأمواج .. وانحدرت من عينى دمعات . ولكن فرحاً عظيماً كان يملأ قلبى ...

وفجأة صاح صوت :

- أنت ، هناك .. إلى العمل ! ..

نظرت خلفى فإذا بالخواجة ديمترى - رئيس عمال المركب ، وكانوا قد قدمونى إليه قبل أسابيع - يرمقنى بنظرة حازمة ، فاستدرت إليه وقلت :

- لا مؤاخذة يا خواجة .. فراق الوطن مر ..

- أنا أعرف ذلك ، ولكن وقوفك هنا لن يغنى عنك شيئاً . لن يسرى عنك إلا العمل ، اتبعنى ..

وسرت خلفه . فهبطنا دورين ، ثم وقف عند رأس سلم حلزونى يهبط إلى قاع المركب ، وقال :

- النظام هنا أن يتدرب البحار على كل أنواع العمل فى المركب ، بادئاً بالأفران . انزل من هنا ، ستجد رئيس الأفران فى انتظارك تحت . إنه مصرى مثلك ، وسيسر برؤيتك ..

ومضيت أهبط السلم الحديدى الدائر . أحسست بقلبى يهبط ، عدت إلى الحفر والظلام مرة أخرى ! لا فرار لى من هذا أبداً . حتى على المركب تنتظرنى هذه القبور . هل من المعقول يا ربى أن أولد لأعيش عمرى كله تحت الأرض ؟ .. وأين أدفن إذن عندما أموت ؟!..

واستقبلنى وهج الأفران الرهيبة فعدت إلى نفسى . وجدت المعلم خضر فى انتظارى ، كان عملاقاً ضخماً حازم الوجه كأنه تمثال شيخ البلد . كان حليق الرأس نافذ النظرات مثله ، وكان عارى الصدر يأتزر ببنطلون ، ومثله كان كل العمال . سلمت عليه ، ودون كلمة ناولنى جاروفاً وقال : تعمل على الفرن رقم ٤ . أفراننا غيلان فحم ، لا تتوقف عن العمل أبداً . المركب سيزيد السرعة الآن ، ولابد من تسخين هذا

الفرن إلى ٤٠٠ درجة . انظر إلى هذه الساعة . المؤشر على ٢٢٠ ولابد أن يدور إلى ٤٠٠ ويستمر على ذلك . .

ونظرت إلى الساعة وإلى الفرن ، وخلعت جاكتى وقميصى ، وأخذت ألقى الفحم فى التنور . وكان زملائى يغنون . فمضيت أغنى معهم . .

كان زملائى على المركب خليطاً غريباً : هنوداً ، وعرباً ، وسوداً ، ويونانيين ، ومالطيين ، وقبرصيين ، وإيطاليين ، وسوريين .. كان فيهم جميعاً عنف وجفوة ، ولكنهم كانوا طيبين ظرفاء .

كنا نتحدث لغة غريبة ، فيها من كل لغة لفظ ، وكانوا يسمونها إنجليزية . تعلمتها خلال أيام . ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، لأن موضوعات الحديث كانت لا تخرج عن الطعام والخمر والنساء . كانوا يعطوننا أربعة شلنات فى اليوم يصرفونها لنا جملة عندما يرسو المركب فى ميناء ، فيأخذ كل منا عشرين أو خمسة وعشرين شلنا . . وننزل إلى الشاطىء ، فيسرع زملائى إلى بارات وأماكن يعرفونها فلا يعود أحد منهم بشلن واحد . وأنا أيضاً أنزل إلى البر ، وأجتهد فى تدبير نفسى طول النهار . . بشلن واحد . .

ورغبت فى تعلم اللغة الإنجليزية ، فاشتريت من بيروت كتيبا يقول عنوانه إنه يعلمك الإنجليزية فى شهر بدون معلم ، وجعلت أقضى وقت فراغى فى هذا الكتاب .

وأرادوا نقلى إلى قسم شحن البضائع وتفريغها ، ولكن المعلم خضر تمسك بى ، وزادوا أجرى شلنين ، فبقيت أعمل فى المواقد حتى عبرنا المحيط الأطلسى ، وأرست بنا المركب فى ميناء نيويورك ، وكنت قد قرأت عنه كثيراً .

ونصحنى بعض زملائى أن أغادر المركب هناك ، فالحاجة إلى العمال — من أى صنف — كبيرة . مكثنا هناك ثلاثة أيام فى المنطقة الصغيرة المحيطة بالميناء . هناك قدمنى المعلم خضر إلى رجل سورى يعمل

مقاولا ، فعرض عليّ أن يستخرج لى إذن إقامة وتصريح عمل ، وقال إنه سيعطيني عشرة دولارات فى اليوم ، ولكن الحياة لم تعجبنى هناك . شعرت بخوف من ألوف الإيطاليين والصقليين الذين كانوا يعمرون منطقة الميناء .

ولما عرف ديمترى أنهم يفاوضوننى لأترك المركب ، عرض عليّ أن أكون رئيس عمال الشحن بأجر قدره جنيه إنجليزى فى اليوم ، فقبلت ، وأقلعنا من نيويورك . وقد اشتريت من هناك قلم حبر وكتاباً مصوراً ، فلما فتحته فى المركب لأقرأه وجدته مجموعة صور نساء عاريات ، فبعته لأحد زملائى بضعف الثمن الذى اشتريته به .

ورآنى ديمترى منهمكاً فى استذكار كتاب اللغة الإنجليزية ، فقال لى إننى لن أحتاج إلى ذلك ، لأن الناس فى المكسيك يتكلمون الإسبانية ، وهى لغة أخرى تختلف عن الإنجليزية تماماً ؛ ولم أكن سمعت بهذه اللغة من قبل هذا أبداً .

وبعد زوابع وأعاصير وصلنا إلى البحر الكاريبى ، أعاذك الله من أعاصيره ، فى هذا البحر وأهواله هان عليّ الجنيه اليومى الذى أغرونى به لأستمر فى العمل على هذا المركب ، بل هانت عليّ الحياة . .

وعندما دخلنا خليج المكسيك دهمنا نوء عاصف دفع المركب دفعاً خطيراً نحو مرفأ اسمه كُواتزاكوالكُوس ، وعلى مرأى من ذلك المرفأ تعطل المركب تماماً ، فجروه إلى الشاطئ ، ونزلنا إلى البر ، فإذا نحن فى مكان لا يوصف إلا بأنه جهنم : بيتان أو ثلاثة والباقى أكواخ يسكنها ناس معظمهم هنود مكسيكيون .

ومن اللحظة الأولى تبينت أن المكان تسيطر عليه عصابات من القتلة والسفاحين ، ولا بد أن تؤدى لهم ضريبة لكى يأذنوا لك بالبقاء على الشاطئ ، فعدت إلى المركب .

وبعد يومين جمعنا ديمترى ، وقال إن خلل المركب كبير ولا يمكن

إصلاحه فى هذا الموضع ، ولا بد من سحبه إلى ميناء سانتاكروز ، وهناك سيحتاج إلى ثلاثة أشهر للإصلاح . ولهذا فإن ربان السفينة قرر الاستغناء عن كل العمال عدا اليونانيين ، وأنهم سيصرفون لكل واحد منا خمسة جنيهات تعويضاً . .

وحاول بعضنا أن يحتج ويعتصب ، ولكن الربان كان قد سلح اليونانيين وأوقفهم على المركب مستعدين للقتال . ولم يكن هناك قانون ولا كانت معنا عقود ، فرضخنا للأمر الواقع . وأنزلونا إلى البر ، سبعة وعشرين رجلا ، بعد أن أعطونا مكافآت وشيئاً من الزاد ، ثم ابتعدت السفينة عن الشاطئ بجرها لنشان بخاريان .

وعلى الشاطئ وقفنا والحسرة تملأ قلوبنا ، وقد اجتاحنا شعور بأننا شرذمة حكم عليها بالموت ، أو حطام ألقت به الأمواج على الشاطئ . .

وتزعمنا رجل هندى اسمه باندا ، وكان لى صديقا ، فقال : إن سلامتنا مرهونة باتحادنا ، فلا حكومة هنا ولا أمان .

واقترح أن يشترى كل منا سلاحاً ، وأن نسير كلنا جماعة واحدة مسلحة ، وأنه كان جندياً فى الجيش البريطانى ويعرف كيف يحمينا .

وتبعناه طبعاً ، فسرنا حتى دخلنا البلد ، واحتللنا باراً حقيراً ، ومضى هو ليساوم فاشترى لكل منا « طبنجة » ورصاصا ، واكترى لنا كوخين ، عشنا فيهما أياماً كأننا مواش فى طريقها إلى المذبح ، فهى تنتظر الموت فى أى لحظة . .

وسرِّى عنا الرعب بعد أيام ، واعتدنا حياة الشقاء هذه ، والإنسان يتعود بسرعة أى لون من ألوان الشقاء إذا لم يكن له من ذلك مفر . واتصل بعضنا ببعض الهنديات وتزوجوهن قبل أن تمضى عشرة أيام ، وانفصلوا عنا . واشترك الهندى باندا مع أربعة من أبناء جنسه ونفر من المكسيكيين ، وبدأوا تجارة تهريب جعلوا مركزها البار القذر الذى كنا نجلس فيه ، وانفصلوا عنا هم الآخرون . .

وما استتم للشهر حتى وجدت نفسى مع ثلاثة فقط فى الكوخ الحقير . كان واحد منهم — لحسن الحظ — سوريا . فتعزيت بصحبته وصرنا لا نفترق . ثم انتقلنا معاً إلى نزل . ليس أحسن من الكوخ ، تديره امرأة ضخمة مرهوبة الجانب فى الناحية كلها . وقد عرضت علينا هذه السيدة أن تتوسط لنا لنحصل على إذن رسمى بالإقامة والعمل مقابل خمسة جنيهات لكل منا . وبالفعل حصلنا على هذه الأوراق . وزال خوفنا من أن تقبض السلطات علينا .

ثم تعلقت السيدة بصاحبى الباقى . وبدأت بينهما حكاية طويلة . وأحسست أن بقائى فى النزل لم يعد مرغوباً فيه . فبدأت أبحث عن مخرج.

ثم سمعت أنه غير بعيد من كواترا كواالكوس هذه تقوم مدينة صغيرة أسمها « سايولا » آهلة عامرة يحتاج أهلها إلى بنّائين . فعولت على الانتقال إليها . وكان الناس إذ ذاك لا يسافرون إلا قوافل فى حراسة فرق من البستوليروس (أى الضاربين بالرصاص) . وكانت السيدة صاحبة النزل تشترك فى تنظيم هذه القوافل مقابل مال معلوم يدفعه كل مسافر : فانضممت إلى قافلة . ووصلنا سايولا على ظهور الخيل يحيط بنا ذلك الحرس .

كانت سايولا أقرب إلى مفهوم البلدان من ذلك الركن الخرب الذى كنا فيه . كانت مركزاً زراعياً غنياً يسيطر عليه نفر من الإقطاعيين يتناوبون حكمه كأنهم أمراء مستقلون .

كان البلد يتكون من ميدان صغير تقوم فيه كنيسة إلى جانبها دار الحكومة ويسمونها الكابيلدو . وفى مواجهتها قصران كبيران هما أشبه بالحصنين . يملك أحدهما حاكم البلد فى تلك الأيام السنيور ريباس دى موفتويا . ويملك الآخر الحاكم السابق السنيور ڤيسنتى جارتيا بيريرا . وكانا متنافسين لا يفتر القتال بينهما . ولكل منهما جيش صغير من البستوليروس يسمونه البورّا أى الهراوة . ويتصل بالميدان شارع

طويل ، على جانبيه مبان متوسطة الحجم ، يملك نصفها هذا ونصفها ذاك . وحول الميدان والشارع مجموعات من مساكن الأهلين . كلها فقير حقير . وحول البلد من كل ناحية مزارع واسعة ممتدة . يعمل فيها الجنود رقيقاً . .

كان سيد البلد – عندما وصلنا إليها – السنيور موفتويا . وكان من أنصار رئيس المكسيك إذ ذاك فرانسيسكو ماديرا . وكان رجاله وأنصاره كثيرين يسيطرون على كل شيء . وقبل وصولنا بعام كان الحكم في يد منافسه السنيور بيريرا . وكان من أنصار دكتاتور المكسيك المشهور پورفيريو دياث . وعندما سقط پورفيريو سقط معه أنصاره . ومنهم بيريرا . ولكن بيريرا هذا كان رجلا قوياً جريئاً . فلم يستطع موفتويا انتزاع كل شيء من يده . وظلت الحروب بينهما سجالا . فما كان يمر يوم إلا وتدور فيه معركة يموت فيها من أهل البلد من حان حينه .

وكان من المناظر المألوفة أن تدخل عصابة مسلحة المقهى الذي كنا نجلس فيه . فتأخذ رجلا بعينه من خصومها . فتصرعه بالرصاص أمام الناس . فلا يزيد الجالسون في المقهى عن النظر إلى القتيل لحظة . ثم مواصلة الحديث واللعب والشراب كأن شيئاً لم يحدث . . .)

ولم يكن قد بقي معي من النقود إذ ذاك إلا نزر ضئيل . فاكتريت غرفة صغيرة علقت على نافذتها لافتة تقول إني بنّاء . وبدأت أقوم بأعمال قليلة يؤجرونني عليها بعدد من أرغفة الذرة الصغيرة التي يسمونها هناك بالتورتيا ، وقطعا من الجبن أو بضع بيضات . وعشت على هذا أسابيع ، وكنت أدهش كلما صحوت من نومي كل صباح فوجدت نفسي لا أزال على قيد الحياة !

وفي ذات يوم كنت أشرب فنجاناً من القهوة في المقهى . ومن حولي ناس كثيرون يشربون الخمر المكسيكية المعرفة بالتكيلا ، إذ دخل نفر من أعوان الحاكم موفتويا وسألوا عني بالاسم ثم اقتادوني إلى دار الحكم

(الكابيلدو) ، وأدخلونى غرفة واسعة مظلمة وجدت فيها ستة أو سبعة من أمثالى ، ثم أغلقوا الباب وتركونى . .

ظللت هناك من الصباح إلى المساء وأنا لا أدرى فيم أتوا بى ولا ما سيجرى علىّ . . ولم يتملكنى الخوف ، فالحقيقة أن حياتى كانت إذ ذاك من التفاهة والشقاء ، بحيث كنت أرحب بالموت . وكان إلى جانبى رجل جالس القرفصاء محتبياً باللباس المكسيكى المعروف بالبونشو ، ويغطى رأسه بقبعة هائلة من الخوص . وسمعت هناك أن صاحبنا الهندى باندا قد قتل ، فشرعت أقرأ الفاتحة على روحه دون وعى منى . . فرفع ذلك القابع إلى جوارى رأسه وقال : ماذا تفعل ؟ . .

قلت : أصلى على صاحب لى قتلوه . .

فقال بكل هدوء : صلّ على نفسك أيضاً ، فإن مصيرك ليس أحسن من مصيره !

ثم أمال رأسه واستند على ركبتيه تحت القبعة كما كان، ولم يتحرك غير هذه الحركة طول النهار . .

وقرب الغروب ، دخل جندى ونادانى ، فقمت أتبعه وأنا أتشهد على نفسى ؛ وسار بى إلى باب أوقفنى عنده وقال : لا تتحرك من هنا حتى ينادوك . . .

ثم مضى فجلس على الأرض ، ووضع مسدسه إلى جواره،وأخرج شيئاً أظن أنه فول سودانى ومضى يأكله كأنه فأر . .

وبعد قليل فتح الباب وأمرت بالدخول ، فوجدت رجلا يلبس زياً عسكرياً جالساً إلى مكتب ، ومن حوله نفر من أصحابه وهم يضحكون .

وأمرنى جندى بأن أقف مؤدباً أمام « السنيور الوثيل » أى مدير مالية البلد . وقد علمت بعد ذلك أن لفظ الوثيل أصله عربى ، هو « الوزير » . . وكان هذا الرجل — واسمه خافييرناردو — اليد اليمنى للسيد موفتويا . . فنظر إلىّ من وراء شاربه الضخم وسألنى عن السبب

فى عدم قيد اسمى فى دفتر المقيمين فى البلد ، وقال إن عقوبة ذلك هى الإعدام ، لأننا فى وقت حرب وأوامر السيد موفتويا مشددة بأن كل غريب لا يقيد اسمه فى سجل السكان يضرب بالرصاص فى الحال . .

فقلت له : إننى لم أعلم بأمر هذا السجل إلا الساعة ، وإننى مستعد لقيد اسمى فيه . .

فقال بعد أن فتل شاربه :

ـ أنت بنّاء ، أليس كذلك ؟

ـ نعم . .

ـ وتمارس المهنة دون تصريح ؟ . .

ـ معى تصريح من عمدة كواتزاكوالكوس . . .

ـ أرنى . .

فناولته الورقة التى حصلت عليها هناك ، فنظر فيها وقال : مزورة.. ثم مزقها ، وألقى بها على الأرض . .

وسادت لحظة صمت ، ثم قال واحد من الجالسين :

ـ لا داعى لإعدامه ، يبدو أنه لا يعرف القوانين .

فقال ناردو :

ـ لا أدرى كيف سمع السنيور موفتويا بأمرك . قالوا له إنك مهندس معمارى ، فما رأيك فى أن نخفف العقوبة عنك إلى عشر سنوات تعملها فى خدمة الحكومة دون مقابل ؟ . .

ـ إننى لست مهندساً ، إننى بنّاء ، ويستوى عندى أن تقتلونى أو تدعونى أعمل لكم عشر سنوات أو عشرين سنة . . الأمر أمركم . .

ـ لا تنكر أنك مهندس ، فذلك لا يعفيك من العمل . انصرف الآن ، وعد إلىّ غداً فى الساعة العاشرة لتبدأ العمل . .

وفى صباح اليوم التالى كنت عنده . كان فى الغرفة وحده ، وأدهشنى أن وجدته فى غاية من اللطف معى . دعانى إلى الجلوس بجانبه ، وقال لى:

ـ اسمع يا هذا ، إن السيد موفتويا يريد أن يبنى بيتاً لابنه الصغير خوانيتو ، وقد بحث عن معمارى فدلوه عليك ، وقد تحدثت فى أمرك معه ، فقال إنه مستعد للعفو عنك وإعطائك إذنا حقيقياً بالإقامة وأوراق جنسية مكسيكية ، إذا أنت بنيت له البيت . .

وذكرت وهو يتكلم أنى أتيت معى برسوم البيت الذى بناه اسطفان فى الإسكندرية ، فقلت :

ـ يريد أن أبنى له مثلا بيتاً حديثاً من أربعة طوابق فى كل طابق مسكنان ؟ . .

ـ الحقيقة أنه كان يريد قصراً ، ولكن فكرتك أحسن ، لأنهم ـ فى هذه الحالة ـ يستطيعون تأجيره . .

ـ أظن أن هذا أوفق . .

فضحك وقال :

ـ أنت ذكى يا هذا . . تعال معى . .

وأخذنى إلى حيث قابلنا السيد الكبير ، فتفضل وأصدر أمره بالبدء فى العمل . وخرجت فى صحبة ناردو لنرى الموضع ، وبعد أن عايناه أخذنى جانباً وقال هامساً :

ـ اسمع . . إن هذا الحمار ـ يعنى السيد موفتويا ـ لا يفهم شيئاً ، وأنا أعمل له كل شىء ، وابنه خوانيتو هذا طفل فى السادسة من عمره . تصور أنه كان يريد أن يبنى قصراً لطفل ! المهم ، ستبدأ العمل وسأصدر أمراً بالعفو عنك ، وأعطيك إذن الإقامة ، ولى عليك شرط : هو أن توقع كل كشف حساب أرسله إليك دون مناقشة . .

وأومأت بالإيجاب ، فقد كنت فى يده يستطيع أن يفعل بى ما يريد . ولم يكن فى استطاعتى أن أعارض ، فإن موتى لن يكلفه إلا إخراج مسدسه . ثم قلت :

ـ ولكنى لا أملك شيئاً ، أقصد ليس معى ما أتقوت به ، ولا

ما أدفع به إيجار غرفتى . .

– سأعطيك كل يوم ٥ بيو (كانت قيمتها إذ ذاك نحو ٢٥ قرشاً) .

– أشكرك . . سأبدأ العمل فى رسم المشروع من غد . .

– أسرع بقدر ما تستطيع ، ولا تنس ما شرطت عليك . .

* * *

وأطلعته على الرسوم بعد أسبوع ، فأخذ يتأملها واحداً واحداً ، ثم نظر إلىّ وقال :

– ألم أقل لك إنك مهندس ؟ أقسم لك إنك تخرجت من لندن أو باريس ! هذا شيء لا يعمله إلا مهندس عظيم . . من الآن فصاعداً سنعمل معاً . سأسجلك فى الدفاتر مهندساً معمارياً ، وسأكلم الباترون (أى الرئيس ، ويريد به السيد موفتويا) لكى يعينك مهندساً للبلدية.. أنت منجم عظيم . .

وفهمت ما يريد : منجم يستغله هو ! وبلعتها وابتسمت ، فقد كنا فى أيام لا يطلب الإنسان فيها شيئاً إلا السلامة . وأعطانى أربعين هندياً ليعملوا معى . ومضيت إلى الموقع ، وأخذنا نعمل . حفرنا الأرض وألقينا الأساس ، وأخذ البناء يعلو . كنت أسير على الرسم كأنه كتاب مقدس ، وكنت أسرع فى العمل مخافة أن يطلبوا تغييراً أو تعديلا فلا أستطيع إدخاله . لم يكن لى مفر إذ ذاك من أحد أمرين : إما أن أظل مهندساً معمارياً أو يرمونى بالرصاص . .

وبعد شهور أربعة كنا قد وصلنا إلى الدور الرابع . ومر بنا الباترون فى صحبة ناردو ، وتفقد العمل فسر بما رأى سروراً عظيماً ، وزادوا أجرى إلى ١٠ بيو ، كنت أحتفظ لنفسى باثنين منها ، وأوزع الباقى على العمال ، لأن المساكين لم يكونوا يتقاضون أجراً . كان هناك رجل معينا من قبل ناردو ، كان يقف طول النهار ومسدسه فى يده لكى يصرع به أى عامل يتهاون أو يفكر فى التمرد ، ووعدنى موفتويا بأن يمنحنى

٥٠٠ بيو عندما ينتهي البيت .

وانتهى البيت قبل أن يحول الحول . . لا أتذكر تماماً كم من الأوراق وقعتها أثناء ذلك ، مبالغها ألوف كثيرة صارت كلها إلى جيب ناردو .. من بينها كشوف بأجر يومى قدره ٣ بيو لكل عامل ، و ٥٠ لى ، أى ١٩٠ فى اليوم لم يكن يصلنا منها إلا عشرة . كان لابد أن أوقع خوفاً من المسدس الرهيب الذى يمسكه الحارس . .

وتسلموا البيت فى حفل كبير ، وصرفونا كما يصرف قطيع من الغنم : ولم يعطنى أحد المكافأة التى وعدونى بها ، وإنما أعطانى ناردو أوراق إقامة رسمية حقيقية ، ولم يعد يرانى بعد ذلك . أما الهنود فبعد أن انتهى العمل اختفوا دون أن يطالبوا بشىء .. حمدوا الله على النجاة من المسدس وصاحبه ، وعدت إلى حياة الخمول الأولى . .

* * *

ولكن اسمى طار بين الهنود . كانوا يعيشون فى محلات متواضعة حول البلد يزرعون الذرة والتيكيلا فى مزارع جماعية صغيرة . كان عمادهم على مياه الآبار الملعونة وحياة الظلام . .

وفى عصر أحد الأيام كنت عائداً من جولة بين مزارع الهنود ، ومعى بعض أرغفة الذرة الصغيرة المعروفة بالتورتيا ، وبضع بيضات هى أجر عمل يوم فى ثلاث آبار . .

فبينا أنا أدخل البلد سمعت صيحة أعقبتها صيحات ، وإذا الناس تجرى فى اتجاه واحد كأن شيئاً خطيراً وقع هناك ، فجريت معهم ؛ وفى أثناء الطريق عرفت ما حدث . .

لقد وقع خوان — أو خوانيتو ، كما كانوا يسمونه — الابن الوحيد للسيد موفتويا فى بئر فى مزارع أبيه فى طرف البلد . كانت بئراً رديئة خطرة تهدمت حافتها وسقط الكثير من جدرانها ، وطلبوا إلى إصلاحها فلم أستطع ، فنصحت بأن تغطى بالخشب والحجارة مخافة أن يقع فيها

أحد . ولكن الإهمال ــ أو القدر ــ حال دون ذلك، وذهب الصغير مع نفر من لداته يلعبون حولها ، فوقع المحذور . .

ووصلت إلى المكان فإذا جمع غفير حول الحافة ، ودفعت الناس حتى أفضيت إليها . هناك كان السيد موفتويا بنفسه وإلى جانبه ناردو وأم الغلام السيدة إميليا وقس القرية الأب إجناسيو ، وكانوا ــ جميعاً ــ يصرخون كالمجانين ويستحلفون من يستطيع أن ينزل ليخرج الغلام .. ولم يتحرك أحد ، لأن البئر ــ فى الحقيقة ــ كانت مخيفة ، وكان السيد موفتويا يبكي ويصرخ ويرفع يديه إلى السماء ، ويدعو .. الآن عرف الله ! .. ثم قال :

ــ إننى أعطى ألف بيو لمن ينزل ويأتى بالغلام ..

وكان غريمه السيد بيريرا قد حضر ، فقال له :

ــ أخرجها من جيبك وأعطها الأب إجناسيو قبل أن يغامر أحد بحياته . . إننى أعرفك . .

وبسرعة البرق أخرج ناردو ربطة كبيرة من الأوراق المالية ناولها للأب وقال : هذه فيها أكثر من ألف .. .

وحاول رجل أن ينزل ولكنه عاد مسرعاً ، وتبعه ثان وثالث ..

وصرخت السيدة إميليا قائلة :

ــ إننى أعطى البيت الذى بنيناه لمن يأتى بابنى ..

وتلفتت الوجوه ذاهلة ، ولكن أحداً لم يتحرك ، وقال بيريرا للسيد موفتويا : اكتب وثيقة بذلك وناولها للأب إجناسيو ..

ومضوا يبحثون عن ورقة وقلم .. وكنت أقف جامداً .. سبح فكرى إلى مزرعة الخواجة فى مصر ، وطفرت صورة سلامة أمام عينى ..

الآن أستطيع أن أنقذه ! الغلام الذى غرق فى مصر ، أستطيع أن أنقذه هنا . .

كانت معى أدواتى كلها ، فتقدمت مندفعاً وقلت فى عزم : سآتى بالغلام!

فأسرع بيريرا وقال : أيها الأب إجناسيو ، البيت ملك لهذا الرجل إذا أتانا بالغلام . .

فهز الأب رأسه مؤمِّناً ، وأقسمت السيدة إميليا على ذلك ..

وثبّتُّ عارضة من الحديد على فوهة البئر . وربطت حبلي ، وعلقت قنديل الآبار على صدري ، وقلت : سأجذب الحبل مرتين كل بضع دقائق لتعلموا أنني على قيد الحياة ، وإذا وجدت الغلام حياً فسأجذب الحبل عشر مرات . .

ومضيت أنزل على مهل . بعد نحو ثلاثة أمتار ، انتهت البطانة الحجرية إلا من قطع هنا وهناك . وبعد أمتار أخرى وجدت قصبة الحفر تنحرف إلى اليسار ، وهذا كثير فى الآبار ، وهو علامة سيئة. وشيئاً فشيئاً أخذ الظلام يسود ، وتلاشت أصوات الناس على سطح الأرض . وعندما صرت على نحو ٢٠ متراً نظرت إلى أسفل وناديت بأعلى صوتى : خوانيتو ! خوانيتو !

ولكنى لم أسمع شيئاً ، فنزلت نحو خمسة أمتار أخرى وناديت ، ثم وقفت أصغى . وإذا بصوت الغلام يجيء خافتاً ضعيفاً يستنجد بأبيه وأمه : بابا بيتو .. ! ماما بيتو .. !

ودق قلبي سريعاً ، وهتفت : سلامة !

ومضيت أنحدر مسرعاً حتى وصلت إلى جزء من الجدار كان لايزال مبطناً بالحجر ، فوضعت قدماً فى اليمين ، وأخرى فى اليسار ، وناديت: خوان ! خوانيتو !

فعاد صوت المسكين وهو يشرق بالدمع : بابا بيتو .. ماما بيتو ..!

ونزلت فى حذر بالغ حتى استقرت قدمى على المصطبة ، ونظرت على ضوء القنديل ، فإذا الغلام ملقى عليها ، نصفه الأسفل فى الماء .. كما كان سلامة ! ورفعته فى رفق ، فوضعته على عاتقى وطلبت منه أن يمسك برأسى . ولم أكن بحاجة إلى ذلك ، فقد أحاطت ذراعاه بعنقى فى عنف

حتى كاد يختنق ، ثم جذبت الحبل عشر مرات . ومن العمق الذى كنت فيه ، ترامت إلى سمعى أصوات الناس تردد جماعة : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. حتى إذا عدوا العشرة انطلقت صرخة هزت كيانى هزاً ...

وبدأت أصعد فى حذر ، فقد كنت أحاذر أن يقع الغلام ، خاصة وقد أحسست أنه — وقد اطمأن ، ودفؤ جسمه على جسمى — استرخت يداه وثقلت رأسه على رأسى ، ونام ! فكان لابد أن أرفع يداً وأضعها خلف ظهره ، وأكتفى بيد واحدة للصعود ..

كنت أصعد شبراً فى دهر طويل ، وتسلخت يدى وسال دمها على ذراعى فأبدلتها باليد الأخرى ، ومضيت أصعد وأصعد ، معتمداً على قدمىّ وذراع واحدة .

وسقط القنديل وأصبحت فى ظلام دامس ، ولكنى مضيت : أضع رجلا فى الحائط ، حتى إذا ما تأكدت من أن موضعها ثابت رفعت الأخرى ، وتشبثت بالحبل وجذبته لأصعد خطوة .. وهكذا ..

ووصلت إلى قرب الحافة ، وسمعت الأصوات ، حتى إذا صار رأسى والغلام على مستوى الأرض ، انقضت الأم فاختطفت ابنها فاضطرب توازنى وكدت أهوى إلى القاع ! ولكنى تشبثت وصعدت ، ثم جذبنى الناس ووقفت بينهم لا أكاد أسمع شيئاً مما يقولون ..

كان رأسى يدور وجسمى يتهافت ضعفاً .. وهجم علىّ السيد موفتوياً يعانقنى ، بينما كانت دموعى تملأ عينى : لقد أنقذت سلامة ! بعد أربع سنوات عدت به حياً !!

ومد الأب إجناسيو يده بوثيقة البيت قائلا :

— بوركت يابنى وبورك لك فى بيتك .. بيتك بنيته ، وهو الآن لك !

فنظرت إليه كأنى أفيق من حلم ، وتناولت الوثيقة .. ونظرت إلى السيد موفتوياً فإذا به يرمقنى بنظرة احترام وشكر عميقين ووجهة كله يضحك ، وقال :

— نعم ، البيت لك ، وكل ما تريده .. ومن الآن أنت مهندس البلد .. و ..

فقاطعته وقلت وأنا أنظر إليه وإلى غريمه بيريرا :

— هذا البيت بنيته لخوانيتو .. ولخوانيتو سيظل .. كل ما أريده أن تتصافحا أيها الرجلان وتنسيا ما بينكما .. الآن تريان هباء الدنيا .. فى لحظة كان من الممكن أن تفقد أعز ما لديك فى الوجود يا سيد موفتويا ، وأنت أيضاً يا سيد بيريرا من الممكن أن يحدث لك مثل هذا وأسوأ .. إن الناس معكما فى شقاء ، فما ضركما لو تركتما الظلم والعسف والعداوة وعشتما معنا فى خير ؟ !

ونظر إليهما الأب إجناسيو وقال :

— صدق هذا العربى .. آن أن تعودا إلى الرشاد والإحسان .. نحن معكما فى ذلك ، وقد أذل الله واحداً منكما كما تريان .. فماذا تنتظران؟

ولم أصدق عينىّ عندما رأيت العاتيين يتعانقان ..

وقال الأب إجناسيو :

— الآن أقسما أمامى على أن ما بينكما قد انتهى ، وأنتما اليوم أخوان صافيا القلب تبارككما الكنيسة ..

ومدا يديهما .. وساد صمت ، بينما كان الأب يقرأ صلاة ..

وهممت أن أمزق الوثيقة ، ولكن موفتويا صاح :

— لا ، والله لا تمزقها .. البيت لك وهو قليل فى حقك ..

وقال بيريرا :

— وأنا أعطيك ضيعة « فرنلوسا » فهى لك ، واشهد أيها الأب ..

وصاح موفتويا :

— اكتب وثيقة بذلك .. أنا أعرفك ! ..

فقال الأب إجناسيو وهو يضحك :

— عدت إلى طبعك يا موفتويا ..

وضحك الجميع وتعانقوا ..

* * *

أقاموا ليلتها حفلا عظيماً فى الكابيللو (دار الحكومة) ، وجلست فى مكان الشرف بين موفتويا وبيريرا .. وبينما كان الناس يرقصون ويغنون سبح خيالى إلى بلدى ، وملأ الفرح قلبى ..

لقد صالحت نفسى ، وأديت دين أمى ، وأنقذت سلامة ! أصبحت غنيًّا ، ووضعت يدى على أول خطوة من خطوات السعادة والوفرة التى أنعم بها الآن ...

لم أعد إلى بلدى لأن الله أعطانى بلداً آخر ، وكل مكان ينبت العز طيب ..

وعندما أعود بذهنى عبر نصف قرن مضى ، وأسرح الطرف فى حدائقى ورياضى ومزارعى ، وأتأمل أولادى وقد كبروا وتزوجوا ، وملأ أولادهم علىّ بيوتى ..

عندما أجلس فى شرفة قصرى المحبب إلى نفسى وأرسل النظر عبر الخضرة ويسبح خاطرى عبر السنين ، تنهلّ الدموع من عينى ، وأصلى فى صمت للخالق سبحانه ..

خلق رجلا فى مصر ، ورزقه فى المكسيك ..

وأمات غلاماً فى مصر ، وأحيا مثله على بعد عشرة آلاف كيلومتر .: سبحانه !

عطَش



تتفرع «حارة الفحام» من «درب الجناين» ، ومن حارة الفحام تتفرع «عطفة الحمامة» ، ومن عطفة الحمامة ينساب «زقاق الساقية» كأنه ثعبان قصير يتلوى مرتين وينتهى ببيت الحاج أمين العطار ..

وهذه كلها مجموعة من الممرات والسراديب معظمها خرائب ، نصف البيوت أطلال متهدمة وبقايا بيوت نمت عليها أكوام القمامة ، والبيوت القائمة أقرب إلى مناطق الآثار منها إلى البيوت ، والمنطقة كلها من أول درب الجناين لا تعرف الكهرباء . .

ليس فيها كلها سلك واحد ، وليس فيها مياه جارية ، إنما هناك حنفية تقوم على باب حارة الفحام ، منها يملأ النساء الصفائح ، والسقاؤون يملأون القرب ، ويطوفون على بيوت الناس . .

وبين هؤلاء السقائين شاب بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، كلما حمل قربة إلى أحد البيوت خط على بابه بالطباشير خطاً ، وفى أول كل شهر يعد خطوط الشهر المنقضى ، ويتقاضى عن كل خط قرشاً . .

* * *

كان يوماً حاراً من أشد أيام يوليو قسوة ، الشمس فوق الرؤوس كأنها سيف مصلت ، وقد سكنت الحركة فى هذا الجو القاسى فبدا الحى كله وكأنه صحراء لا يسكنها أحد ، حتى القطط والكلاب سكنت عن الحركة ، وتمددت على الأرض فى الظل وفتحت أفواهها لاهثة تلتمس شيئاً من الطراوة . . .

واشتد نشاط حنفية الماء ، فجلس عم جبر يحرك مفتاحها ، والنساء ينطلقن بصفائح الماء ، والسقاؤون يعدون عدواً . . فهذا موسمهم . .

جلس الحاج أمين مسترخيا من شدة الحر . . إنه رجل فى الخامسة والستين ، ولكنه غنى مكتمل الأشد ، لأن الله أوسع عليه وبسط له

أسباب العيش من ناحية .. ولأنه عطار عارف بأصناف « المقويات » وأسرارها من ناحية أخرى . .

إنه يملك محل عطارة كبيراً فى درب الجنانين ، محلا تقوم على أبوابه ثلاثة « ملدقات » من الحجر المنحوت ، يلدق الرجال فيها بأعمدة من الحديد: واحد للزعفران ، وواحد للبهارات ، والثالث لسر الحياة وسر ثروة الحاج أمين فى وقت واحد ، ذلك هو « القرطاس العجيب » . . مجموعة من البذور والحبوب والجذور وأوراق الشجر الجافة ، اخترع خلطتها الحاج أمين . .

إنها تعيد الشباب ، وتعين على أوصاب الشيخوخة . . إن القرطاس أكيد الأثر .. ملعقة من المسحوق السحرى كل صباح يتلوها كوب شاى أخضر بالنعناع ، تلين المفاصل ، وتحل نخاع العظام الذى يتجمد مع الشيخوخة ، وتهدئ العروق النافرة ، وتفتح الشهية ، وتمهد الطريق بين الشيخ والغيد الحسان . . .

والحاج أمين شخصياً مخلص للقرطاس ، لا يمر يوم دون أن يتناول منه ملعقة ساحرة يعقبها كوب من الشاى الأخضر المعتق ، ثم يغفو إغفاءة يسيرة ، ريثما يتسرب السر العجيب إلى نخاع العظام وسراديب المخ والقلب ، ويفعل فعله المبروك . .

وهو مخلص كذلك لبنات حواء . . . فمنذ أدرك الخامسة والخمسين وهو يسير بنظام على قاعدة ثابتة .. كل خمس سنوات شابة جديدة ... إنه نظام سنوات خمس شخصى ، اهتدى إليه هذا العطار الذكى ، قبل أن يخطر ذكر برامج السنوات الخمس ببال أهل السياسة ..

وقد نفذ الحاج أمين برنامجه فى نظام تام ، وها هو ذا فى الحلقة الثالثة من برنامجه ، يقيم مع « فتحية » الشابة الثالثة من شابات عمره المديد .. وهى فتاة فى الثالثة والعشرين .. تزوجته على رجاء أن تختصر من عمره ما تيسر ، لترث منه ما تيسر أيضاً ..

كانت فتاة طيبة القلب ، نصيبها من الجمال كثير ، ومن العافية أكثر .. ومن الفقر أكثر وأكثر .. وهذا الأمر الأخير هو الذى رمى بها بين أحضان هذا الشيخ ..

ولقد فرحت فتحية عندما طلبها الشيخ .. فرحت من كل قلبها ، وانتقلت إلى « بيتها » مزهوة سعيدة .. أقبلت فى سذاجة .. ثم أخذت حقائق الحياة الزوجية تتكشف لها شيئاً فشيئاً ، وكان عليها أن تحل ما استطاعت حله منها ، بطريقتها الخاصة ، وبحسب ما تمليه عليها الظروف .

* * *

قلنا إنه كان يوم قيظ شديد ..

جلس الحاج أمين فى ردهة بيته فى الطابق الثانى على كنبة عتيقة إلى جوار النافذة ، وبيده مروحة من ريش الدجاج الملون ، وقد فتح صدر جلبابه الأبيض وأزاح طاقيته إلى مؤخر رأسه ، فظهر شعره الأسود المخضوب .. وبدت قطرات العرق على جوانب وجهه ، فمضى يجففها بمنديل كبير فى يده .. كان الإجهاد الشديد يبدو فى وجهه من أثر الحر ، وكانت لفحات الهواء الساخن تهب من صحن البيت فتمس وجهه دافئة تزيد النفس ضيقاً .. وكان يسمع وقع خطوات زوجته الشابة تروح وتجىء فى الغرفة المجاورة ، كأنها تعمل عملا .. كانت تذهب إلى النافذة فتطيل النظر منها ، وتتطلع إلى آخر الزقاق ، عليها ترى شيئاً ، ثم تعود إلى الغرفة ، وتمر — فى طريقها إلى الباب — بمرآة الدولاب ، فتتوقف لحظة ، تشد خلالها على جسمها ثوبها الضيق بعض الشىء ، وتسوى شعرها ، وتجفف العرق السائل على خديها المحمرين من شدة الحر ..

وصاح الحاج أمين :

— لم يأت بعد ؟ ..

فأقبلت ووقفت بباب الردهة وقالت :

— ليس بعد .. لا أدرى ما جرى له ! ..

كان يسألها عن منصور السقا الشاب ، فلم تكن فى البيت قطرة ماء .. لقد فرغ الزيران فى المطبخ والحمام ، وجفت القلل الثلاث ، وغدا البيت من غير ماء ..

كان منصور يأتى دائماً مع الظهر ... وها قد انقضت ساعتان بعد الظهر ولم يأت الرجل ، والحر يتزايد والعطش يشتد والصبر ينفد ! ...

وصاح الحاج أمين :

ــ راح فين الولد ده ؟ .. راح فين ؟ .. والله ما هو جايب ميه تانى هنا ... لازم أجيب واحد بداله ..

ومرت سحابة من الروع بوجه الزوجة ، وبادرت تقول :

ــ دلوقت ييجى ياحاج .. النهارده نار والناس كلها عايزة ميه . .

ــ ناس مين ؟ ... فيه ناس أحسن منا ؟ .. فيه ناس أولى من الحاج أمين ؟ .. الحق علىّ .. أنا اللى فتحت بيته وشغلته ..

وكان القلق يأكل قلب الزوجة الشابة .. وكانت أشد شوقاً إلى رؤية هذا السقاء من زوجها .. لقد تعبت من النظر من النافذة واستكشاف الطريق .. وكانت تنظر إلى زوجها الشيخ فترى شرر الغيظ فى عينيه .. كانت لا تستقر فى مكانها : من السلم إلى النافذة .. ومن النافذة إلى الحمام .. ومن الحمام إلى غرفة النوم ، لتلقى نظرة عجلى على هيئتها .. ثم تعود إلى النافذة . .

وقال الحاج أمين فى صوت يتجلى فيه ضعف الشيخوخة :

ــ ياناس .. هلكت من الحر .. هلكت من العطش ..

وفجأة صاحت فتحية :

ــ أهه .. أهو جاى . .

وفاض الفرح فى كيانها .. وأسرعت إلى غرفة النوم فألقت نظرة على هيئتها ، وشدت ثوبها على جسدها ، ونظرت إلى زوجها ضاحكة وقالت :

ـ أهو جه ياسيدى ، ماتزعلش ...

واقتربت منه ، وجففت العرق من وجهه ، وقبلته . .

وانفرجت أسارير الرجل ، وانبسط وجهه ، ونسى غضبه ..

وأسرعت إلى السلم تستقبل السقاء .. ورأته صاعداً بحمله الثقيل من الماء على ظهره ، وابتسمت ..

ورفع الشاب رأسه ، وابتسم ..

وجعلت ترقبه يصعد درجة درجة ، حتى إذا أدرك الدرجة الأخيرة وصار قبالتها ، قالت بعتاب :

ـ كده ؟ . .

ونظر إليها طويلا ولم يجب ... ثم رفع صوته وقال :

ـ يا ساتر .. ميه ..

فصاح الحاج :

ـ تعال يا شيخ تعال ... تعال أحسن روحى قربت تطلع ..

ودخل السقاء وهو يقول :

ـ ما تآخذنيش والله ياحاج .. الميه كانت مقطوعة .. أعمل إيه ؟ .. والله دى أول قربه أشيلها النهارده وحياة الحسين ..

فقال الحاج :

ـ يللا بس .. املا الزير .. واملالى القلة .. يللا ..

وأسرعت فتحية إلى الحمام لتساعد السقاء .. ملأ الزير الكبير .. وبقيت فضلة من الماء فملأ قلتين .. حملت فتحية إحداهما وأسرعت بها إلى الشيخ ، فقال :

ـ هنا .. ضعيها على الشباك لتبرد ...

وبحث السقاء عن طباشيرته فلم يجدها ، فتناول قطعة من جص الحائط وخط بها خطاً .. وخرج متمهلا ، فقال له الحاج أمين :

ـ والقربة الثانية ؟ ..

ـ العصر، زى العادة ...

وخرج .. وكانت فتحية قد سبقته إلى السلم ، ووقفت وظهرها إلى الحائط وقد تبدت هيئة جسدها الغض الجميل .. ونظر إليها منصور وفتل شاربيه .. وقال :

ـ الدنيا نار .. هلاك ! ..

ولم تقل فتحية شيئاً .. كانت شفتاها منفرجتين وقد تبدى فيهما عطش شديد .. وكانت عيناها نصف مغلقتين ، وقد تدلى شيء من شعرها الأسود على جبينها الأسمر ..

ورفع الرجل يده وهو يبتسم ، ومر بكفه الخشن المبلل على ذراعها العارى .. وبعد ثوان كانت الزوجة الشابة ، والسقاء الشاب فى الغرفة « المسروقة » فى الدور الأسفل من البيت ، وكانت فتحية تعتبرها غرفتها الخاصة .. كان فيها بعض حاجاتها ...

* * *

وكان الحاج أمين مشغولا إذ ذاك بأمر خطير ..

انتظر لحظة حتى بردت القلة بعض الشيء ، ثم نهض إلى دولابه وأخرج مفتاحاً وفتحه ، وتناول كوباً فوضع فيه أربع قطع من السكر .. إنه يحتفظ بالسكر فى دولاب ملابسه ، لأن تجاربه مع الزوجات الشابات علمته أن يحترس منهن من هذه الناحية .. إنهن شرهات إلى السكر .. والحاج أمين رجل دقيق مدبر ..

ثم فتح الشيخ علبة صغيرة ، وأخرج منها حبة فى حجم الحمصة .. إنها دواء مجرب للكبد .. والكبد فى عرف الحاج أمين هو « بيت » الشباب ومصدر الحياة .. إنه يتناول الحبة عصر كل يوم .. ثم يظل جالساً هادئاً عشر دقائق ، حتى يصل مفعولها إلى الكبد ، ومنه — فى رأى الحاج أمين — إلى نخاع العظام ...

تناول الرجل إكسير الحياة .. ثم ظل مكانه ساكناً .. وانتبه بعد نحو

ربع ساعة ، وتلفت حوله فراعه الصمت المخيم ، وتساءل: أين فتحية ؟ ثم هتف :

— فتحية ! .. بت يا فتحية ! ..

وانقضى نصف دقيقة دون أن يسمع حركة .. ثم سمع همساً من بعيد ، ثم وقع أقدام ... سمع قدميها تهبطان السلم على عجل ، فنادى مرة أخرى :

— فتحية ! . .

وسمع وقع قدميها ترقيان السلم نحوه . . . ثم سكن كل شيء لحظة .. كانت بالباب تسوى من هيئتها . . وفى الوقت نفسه جاء من بعيد وقع خفيف لقدمين تهبطان السلم ! . .

ونظر إليها الرجل طويلاً ثم قال :

— أين كنت . . . ؟

— كنت ... كنت أضع شيئاً من الماء للبط ...

وكان البط فى فناء البيت . . .

واقتربت فتحية من النافذة . . وفى هذه اللحظة رأت « منصوراً » السقاء يخرج من البيت ويصلح من هندامه . . ويسير فى هدوء . . وتتبعته عيناها وفيهما ابتسامة هادئة ..

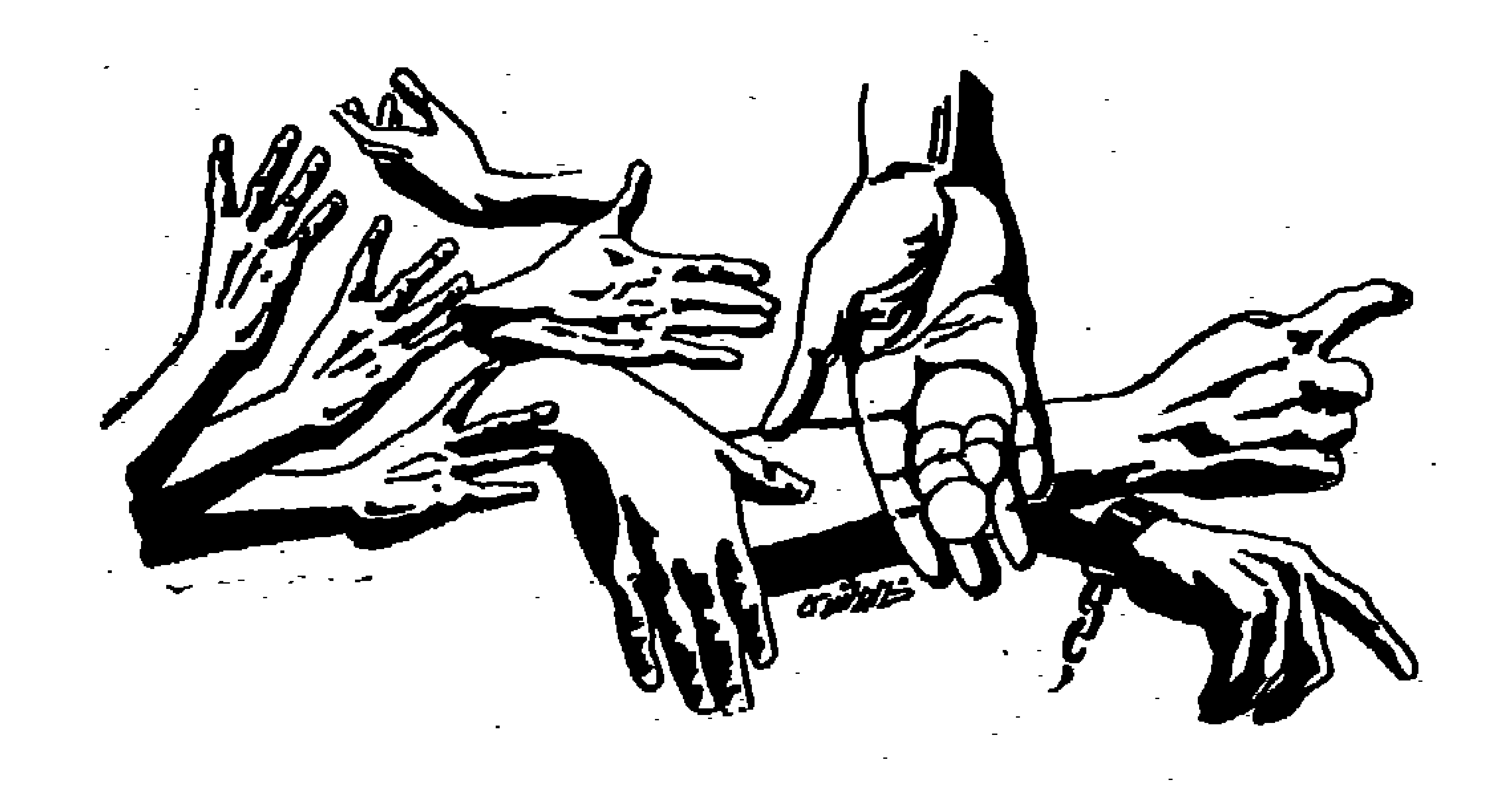
وأطال الحاج النظر إليها . . كانت هيئتها تعجبه ، بل تفتنه . . . ثم قال :

— هيه . . وشربت . . ؟ أما كنت عطشى ؟ ..

فقالت فى شبه الهمس ، وهى ترى منصوراً السقاء ينحرف ويختفى فى حنية العطفة . .

— شربت .. شربت خلاص !

ميلاد إنسان



المنظر : مكتب الأستاذ رضا عبد الرحمن وكيل النيابة . مكتبه في صدر المنظر ، إلى اليمين . إلى يساره ، في الركن ، دولاب حديدي لحفظ الملفات . تحتل بقية صدر المنظر إلى يمين المكتب — نافذة كبيرة تحتها دولاب كتب يتكون من رفوف مفتوحة . في الناحية اليمنى من المنظر دولاب كبير تظهر خلف زجاجه صفوف الملفات . ثم باب ناحية الجمهور . في الناحية اليسرى كنبة وكرسيان فوتيل بينهما منضدة صغيرة عليها بعض الكتب . يلي ذلك باب آخر مواجه للباب الأول . على هذا الباب يقف الشاويش رجب . عندما يرتفع الستاريدو رضا جالساً إلى مكتبه يقرأ أوراقاً أمامه وإلى جانبها ملف مفتوح . إنه شاب في السابعة والعشرين من عمره . يجلس أمامه ضابط المباحث «أمين» وهو شاب يكبره بقليل . الوقت حوالى الثانية بعد الظهر .

رضا : [يرفع رأسه عن الأوراق وينظر إلى أمين مبتسماً وهو ينقر بأصابعه على ورق الملف المفتوح إلى يمينه] طيب . .

أمين : طيب إيه ؟ . . خلاص ؟ . .

رضا : تقريباً . .

أمين : يعني لم تفرغ بعد ؟ . .

رضا : لا . . أشياء بسيطة . . أريد أن أقرأ الأوراق مرة أخرى . .

أمين : ولكنك لن تعيدها إليّ ؟ . .

رضا : لا أظن . . الأوراق مستوفاة : محضر . . مش بطال . . شهادات الشهود . . اعتراف المتهم . .

أمين : [في فخر] شغل مضبوط . .

رضا : طبعاً ، طبعاً . . سأرسل لك الملف صباح غد . . أعلمك بذلك . .

أمين : ولماذا ننتظر إلى غد مادام الشغل مضبوطا ؟ . . وحياتك يارضا ، خلّصنا . . لو سرنا على هذه الطريقة لما فرغنا أبداً . . غرفة

الحجز فى القسم مليئة بالناس .. لابد من البت فى القضايا بسرعة .. هذا قسم بوليس كبير ، والحوادث تجرى مع عقرب الثوانى .. هذه كلها مسائل روتينية لا تستحق منك أكثر من نظرة .. أنت تعرف كيف نعمل ..

رضا : نعم أعرف ، ولكنك أنت لم تعرف بعد كيف أعمل أنا .. إننى جديد هنا ، والجديد يحتاج إلى صبر وطول بال . كل ما أرجوكم فيه هو أن تصبروا علىّ . هذه القضية بسيطة فعلاً ، ولكنها ليست مجرد جنحة عادية . إنها سرقة مبلغ كبير ومحاولة الاعتداء على رجل البوليس ..

أمين : وقد اعترف المتهم بذلك كله ... والاعتراف سيد الأدلة ..

رضا : ليس دائماً .. هناك ناس من هذا الطراز يعترفون بجرائم لم يرتكبوها ليفرغوا من متاعب الاستجوابات .. وهناك من يعترفون ليدخلوا السجن ويستريحوا بضعة أشهر من عناء الحياة خارجه .. وهناك من يعترفون ليستروا آخرين ..

أمين : ولكننا غير مسئولين عن دوافعهم إلى هذه الاعترافات .. ما دام المجرم قد اعترف فقد انتهت القضية بالنسبة لى ..

رضا : صحيح .. ولكنها تبدأ بالنسبة لى ..

أمين : طبعاً ، هذا هو نظام العمل ، ولكن ليس معنى ذلك أنك ستعيد التحقيق . .

رضا : قد لا يدعو الأمر إلى ذلك .. هناك فقط بضع نقط أريد أن أستوفيها .. أقصد بضع نقط أنا غير مطمئن إليها تماماً ؟ ..

أمين : أى نقط ؟

رضا : مثلا .. لماذا لم يعترف هذا الرجل فى الاستجواب الأول ؟ ..

أمين : لأن هذا الطراز من معتادى الإجرام لا يجيبون على السؤال إلا بعد أن تلقيه عليهم للمرة العاشرة . الحقيقة عندهم بنت السؤال العاشر ..

رضا : والدكتور صدقى ، المجنى عليه ، لماذا لم يتعرف على المجرم فى المرتين الأوليين ؟ .. إنه يقرر أنه لاحظ أن المتهم يتبعه من وقت خروجه من السيارة إلى دخوله الصيدلية ، وأنه رآه ينتظره خارجها .. لقد اكتشف ضياع حافظة نقوده بعد نشلها بقليل جداً ، ورأى المتهم يسرع بالفرار .. يعنى كان من المفروض أن يتعرف عليه بمجرد رؤيته ..

أمين : اسمع يا أخى .. إن هذا الدكتور صدقى رجل عصبى ، وهو كل ساعة يسأل : وجدتم المحفظة ؟ .. وجدتم المحفظة ؟ .. كأنه يتصور أن المجرمين يسرعون بتسليم المسروقات إلينا لنعيدها إلى أصحابها عندما يسألون عنها .. إن الناس لا يتصورون المعركة الهائلة التى نخوضها مع عالم الإجرام هذا ليل نهار ..

رضا : الدكتور صدقى على حق .. ما دمنا قد قبضنا على المجرم بعد وقوع الجريمة بساعتين ، فمن المفروض أن المال المسروق مازال معه ..

أمين : [ضاحكاً] يا .. سا .. لا .. م ! .. ألم أقل لك إنك لاتعرف هذا النوع من المجرمين ؟. لو كنا قبضنا عليه ويده فى جيب الدكتور ما وجدنا حافظة النقود معه ..

رضا : أى أننا لن نجد الحافظة ولا النقود ؟ ..

أمين : [يهز رأسه] مستحيل ..

رضا : [يقف ويتجه نحو دولاب الكتب إلى يمينه ويأخذ واحداً منها فينظر فيه ثم يعيده إلى مكانه وينظر إلى أمين] إذن ما فائدة عملنا كله ؟ إذا كان مال الناس يضيع ، وكل ما نستطيع عمله هو أن نأتى برجل ونلقى به فى السجن لبضعة أشهر ؟ .. ما فائدة ذلك ؟ ..

أمين : لا أدرى ، ولكن هذا كل ما نستطيع فى حالة مثل هذه ..

على الأقل نحول بين المجرم وبين ارتكاب سرقات أخرى مدة سجنه ..

رضا : [يهز رأسه ويرفع كتفيه] يجوز .. ولكن هذا تفسير ضيق جداً لمهمتنا .. الناس ينتظرون منا أكثر من ذلك ..

أمين : فى أحيان كثيرة نستطيع استعادة المسروقات .. ولكن ماذا نعمل عندما يكون ذلك مستحيلا ؟ .. فى هذه الحالة بالذات عصرنا المتهم عصراً ، وقبضنا على عشرين أو ثلاثين نشالا آخرين ، وقضينا أياماً نستجوب ونضغط ونفتش .. لا فائدة .. أمامك دوسيه كامل ، وعندك مجرم معترف ..

رضا : إننى لا أبحث عن مجرم .. إننى أبحث عن « المجرم » ..

أمين : [بعد تفكير لحظة] فهمت ما تقصد .. يا أخى دعك من هذه الفلسفة .. [ينهض واقفاً] القضية بين يديك .. افعل ماتريد

رضا : فى بعض الأحيان يا أمين يخيل إلىّ أن المعركة بين رجال الأمن وأعدائه تتحول مع الزمن إلى نوع من المباريات الرياضية .. إنكم تعملون دائماً مع نفس الوجوه .. مجموعة معينة هى التى تسرق، وتهرب .. أو تدخل السجن ، وتخرج منه ... نفس الوجوه دائماً .. بحكم الاحتكاك المتصل واستمرار السرقات والمطاردات ، تنشأ شبه قواعد للعبة ..

أمين : [مستنكراً] تقصد . . .

رضا : [مقاطعاً] لا .. لا .. لا أقصد ما يدور فى ذهنك .. ولكن أقصد أن استمرار المعركة بين الجانبين يؤدى إلى نوع من التعاون غير المقصود ، غير المحسوس .. [يبتسم ويصمت لحظة] فى حالتنا هذه ــ وهذا مجرد تصور شخصى ، أرجو أن تأخذه على أنه مجرد مثال ــ رجل يعترف بجريمة لم يرتكبها ليريح المحقق ويمكنه من إكمال عمله وإقفال الملف .. وفى نفس الوقت يطمئن

على نصيبه فى حافظة نقود سرقها زميل له فى المهنة ..

أمين : كأنك تتصور أن هؤلاء المجرمين ناس مثلنا ؟ ..

رضا : تريد أن تقول إنهم ليسوا آدميين ؟ ..

أمين : آدميون من طراز آخر . . من طبقة أخرى : سفاحون وقتلة ولصوص ونشالون وتجار مخدرات . . لا . . لا . . هؤلاء كوم وبقية المجتمع كوم . .

رضا : هذا التصور بالذات هو سبب الخطأ . . تصورك أنهم جنس آخر ، يحول بينك وبين الانتصار عليهم .. أنت تعاملهم بطريقة خاصة ، وتستجوبهم بطريقة خاصة .. ماذا يحدث مثلا لو عاملتهم على أنهم بشر مثلى ومثلك .. أو مثل الشاويش رجب ؟ . .

رجب : (مستنكراً) أعوذ بالله . . أعوذ بالله .. سيادة الوكيل لا يعرف هذا الجنس . .

رضا : وهل تعرفه أنت ياشاويش رجب ؟

رجب : أنا ؟ . . طبعاً . . عشرين سنة فى حرب معهم . بنظرة واحدة أعرف ما يجول فى ذهن الواحد منهم . .

رضا : إذن . . هل تستطيع أن تأتينا بالمحفظة الضائعة ؟ . . (رجب ينظر إليه كأنه لا يفهم)

أمين : رجب يستطيع . . كل شاويش يستطيع . .

رضا : إذن . . لماذا لا تظهر المسروقات ؟ . .

أمين : لأن هذا النظام الذى نجرى عليه يخدم المجرمين ويشل يد رجب وأمثاله : تحقيقات طويلة . . سين وجيم ، ومعاملة طيبة ، والطعام يحمل إليهم فى التخشيبة . . وسجن مريح . . ومحامون.. كل ذلك ليس فى صالحنا . . ما داموا متحصنين وراء هذه القوانين (يشير بعصبية إلى الكتب) وهذه الكتب ، فلن نستطيع أن نحصل منهم إلا على ما يريدون . . فى معركتنا

هذه ، المجرم سيد الموقف (يتوقف ثم ينظر فى ساعته) ياخبر ! . . قربنا من الساعة الثالثة (يتجه نحو الباب ويوجه الحديث لرضا) موعدنا غدا . . لا تنس . . (يحيي ويقفل الباب) .

رجب : (يقترب من رضا) الآن لا بد أن تتناول غداءك . . حرام أن تستمر فى العمل هكذا . .

رضا : أظن أن لدينا رجلا آخر ينتظر . .

رجب : (فى سأم) يستطيع أن ينتظر . .

رضا : (يعود إلى مكتبه . يبدو عليه أنه يفكر) أقول لك يا رجب ؟ . . هاته بالمرة . . لنفرغ منه أولا . . بعد ذلك نستطيع أن نأكل فى هدوء . .

رجب : يا سيادة الوكيل . . هذا رجل متعب . . لو أتيت به الآن ما فرغنا منه قبل سنة . .

رضا : تعرفه يا رجب ؟

رجب : أعرفهم كلهم . . هذا بالذات دخل السجن قبل ذلك أربع مرات أو خمساً ..

رضا : وهم أيضاً يعرفونك ؟ . .

رجب : لا مؤاخذة يا سيادة الوكيل .. لا أقولها شكراً فى نفسى .. ولكن الشاويش رجب يرهبه كل مجرم فى البلد .. قبل أن أنتقل إلى إلى هذا المكتب كان المجرمون يتحاشون القسم الذى أعمل فيه ..

رضا : وماذا تعرف عن هذا الرجل ؟

رجب : ألعن من الأول .. لو بيدى لشنقته وأرحت الدنيا من شره ..

رضا : هاته إذن .. وهات دوسيه قضيته ..

(رجب يتجه إلى الدلاب الأيمن ، يأخذ منه ملفاً يضعه أمام رضا ، ثم يخرج من الغرفة . يعود بعد قليل وأمامه رجل فى يديه

الحديد يمسك به جندى . على باب الغرفة يقف رجب محيياً تحية عسكرية . المتهم اسمه زكى . يلبس بذلة مهلهلة : البنطلون لون والجاكتة لون آخر .. قميصه مفتوح عند الصدر ، ينقصه زراران . إنه شاب بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، شاحب الوجه أشعث الشعر . الجندى من خلفه يدفعه إلى وسط الغرفة . المتهم يتقدم مقترباً من المكتب . الجندى يمسك به فى عنف)

الجندى: رايح فين ؟ .. قف هنا ولا تقترب من مكتب السيد الوكيل ..

رضا : دعه يا عسكرى .. دعه واخرج أنت (لزكى) تعال .. اقترب (زكى يقترب . الجندى يخرج . يتقدم رجب ويخاطب زكى)

رجب : اسمع يا واد .. السيد الوكيل تعبان ولا يريد وجع دماغ .. لا تقلق قلبه .. أنا عارفك ..

زكى : يا شاويش حرام عليك . السيد الوكيل تعبان .. وأنا المستريح ؟

رضا : سيبه يا رجب .. سيبه .. إذا كنت متضايقاً فاخرج وقف عند الباب .. سأناديك عندما أحتاج إليك ..

رجب : لا ياسيادة الوكيل .. لا يصح أن أخرج .. سأقف مكانى ، ولن أتكلم (يعود إلى مكانه بجانب الباب ويقف ونظره مصوب إلى زكى فى احتقار شديد)

رضا : (يفتح الدوسيه وينظر فيه ، ثم يسند ظهره إلى مسند كرسيه وينظر إلى زكى طويلا)

رضا : اسمك إيه ؟

زكى : خدامك زكى ..

رضا : زكى إيه ؟ ..

زكى : زكى إيه ؟ .. زكى أى حاجة ...

رجب : أجب السيد الوكيل وقف معتدلا .. دعك من هذا التهريج ..

زكى : أبو حبل .. زكى أبو حبل ..

رجب : حبل يشتلك !

رضا : أيوه يامى زكى أبو حبل .. خطفت الحقيبة من يد الست.. ما اسمها ؟ .. (ينظر فى الدوسيه) آه .. هذا اسمها هنا ..

زكى : والله العظيم .. ثلاثة بالله العظيم .. والسيدة نفيسة .. أو يدوسنى الترام .. ما خطفتها ..

رجب : (يهز كتفيه فى غضب وسخرية، ثم يضحك) طبعاً لم يخطفها.. هى أعطتها له ..

رضا : ويعدين يا رجب ؟ ..

رجب : خلاص يافندم .. خلاص .. لن أفتح فى .

رضا : هيه ؟ .. خطفتها ؟ ..

زكى : لا يافندم ..

رضا : إذن ما الذى حدث؟ ..

زكى : كما قال الشاويش ..

رضا : يعنى إيه ؟ هى أعطتها لك ؟

رجب : (يضرب كفاً بكف) يا نهار أسود .. (يضحك فى مرارة)

زكى : أى والله يافندم .. والسيدة نفيسة .. أو يدوسنى الترام ..

رجب : حاجة تجنن ..

رضا : كيف أعطتها لك ؟ .. هل كنت تعرفها ؟ ..

زكى : لا يافندم لا أعرفها .. ولا كنت رأيتها قبل ذلك .. ولكنها كانت تحمل ربطات كثيرة ، ووقعت إحداها .. وكنت بالصدفة إلى جوارها ، فناولتنى الحقيبة لتأخذ الربطة التى وقعت ..

رضا : (يهز رأسه) هيه .. ولماذا الحقيبة بالذات ؟ .. ألم تكن معلقة فى ذراعها ؟ ..

زكى : لا أدرى .. ولكن هل كنت أستطيع أن أرفض طلب سيدة تطلب مساعدة ؟ ..

رضا : وبعد ذلك .. ماذا حدث ؟
زكى : سرت وراءها حتى باب المحل ..
رضا : يعنى .. السيدة تركت حقيبتها فى يدك وسارت .. وسرت أنت وراءها ..
زكى : بالضبط .. ثم خرجنا إلى الطريق ، وأرادت السيدة أن تعبر الشارع لتأخذ الأوتوبيس ، وفى زحمة المرور لا أدرى أين ذهبت .. ما دريت إلا وهى تصرخ ، وأمسكنى البوليس ..
رضا : وأنت تجرى والحقيبة فى يدك ؟
زكى : نعم .. لكى أسلم الحقيبة لصاحبتها .. (رجب ينفجر ضاحكاً فى مرارة .. رضا ينظر إليه ويبتسم .. رجب يضع يده على فمه إشارة إلى أنه لن يتكلم)
رضا : تعتقد أنى يمكن أن أصدق هذه القصة ؟
زكى : أقسم بالله العظيم ثلاثاً ، وبالسيدة نفيسة ، أو يدوسنى الترام .. هذه هى الحقيقة ..
رضا : أنت تعرف أنك تكذب .. لقد قلت كلاماً غير هذا فى التحقيق ..
زكى : بل هذا هو الذى قلته ..
رضا : وقلت غيره .. ووقعت على ذلك كله .
زكى : (مستنكراً ومتظاهراً بالبراءة) وقعت ؟.. إننى لا أقرأ ولا أكتب.. ليتنى أستطيع ..
رضا : أقصد بصمت بأصابعك ..
زكى : نعم بصمت .. إننى أبصم كل شىء .. ما داموا هم يريدون ..
رضا : إذن فسأعيدك إلى ضابط المباحث ليعيد التحقيق ..
زكى : (فى رعب) لا ياسيادة الوكيل .. لا لزوم لذلك ..
رضا : لا يمكن أن أحيلك للمحكمة وأقوالك بهذا الشكل ..

زكى : لا أريد أن أعود إلى المباحث .. ما تقرره سيادتك أنا موافق عليه ..

رضا : ولماذا لا تقول أنت الحقيقة وتريحنا ؟

زكى : تصدق بالله يابيه ؟ .. والله العظيم أنا لا أتذكر ما جرى بالضبط ..

رضا : بل أنت تذكر وتعرف ، ولكنك تتصور أن هذا المكر ينفعك ..

زكى : لا والله يا سيادة الوكيل .. أقسم بالسيدة نفيسة ، أو يدوسنى الترام .. مع سيادتك لن أقول إلا الحق ..

رضا : إذن ، فأنا سأسألك وأنت تجيب ..

زكى : أمرك يافندم ..

رضا : (ينظر فى الأوراق التى أمامه ، ثم ينظر إلى زكى طويلا ، ثم يقول بلهجة تقرير) خطفت الحقيبة من يد السيدة ..

زكى : (محتجاً) لا .. هذا لا .. إننى لست خطافاً ..

رضا : إذن ، ماذا حدث ؟

زكى : (بعد تردد يطأطئ رأسه ويعبث بجاكتته فى حركة عصبية) .. هذه السيدة كانت تحمل ربطات كثيرة . وضعتها على إحدى المناضد لتحملها بصورة أحسن .. وضعت حقيبة يدها إلى جانبها ، وأخذت تصلح هيئتها .. كنت إلى جانبها . لاحظت أنها نظرت ناحية أخرى ، فأخذت الحقيبة وسرت بهدوء . عندما التفتت السيدة لاحظت ضياع الحقيبة فصرخت .. كنت إذ ذاك على أمتار منها ، فأسرعت بالخروج من المحل .. لا أدرى كيف رآنى أحد المخبرين وأمسك بى ..

رضا : إذن فأنت تعترف بأنك سرقت الحقيبة ...

زكى : (يرفع كتفيه ويطأطئ رأسه أكثر ويهزه بالإيجاب) .. صحيح

رضا : ولماذا كنت داخل المحل ؟

زكى : لا أدرى .. ماذا يهم ذلك ما دمت قد قلت إننى أخذت الحقيبة ؟ . .

رضا : أنت لم تأخذها .. أنت سرقتها ..

زكى : يستوى الأمران . . هل من الضرورى أن أقول إننى سرقتها ؟ . .

رضا : نعم ..

زكى : أمرك .. سرقتها ..

رضا : ولماذا دخلت المحل ؟

زكى : كما يدخله كل الناس .. هل دخول المحلات التجارية جريمة هو الآخر ؟

رضا : إننى أريد أن أساعدك .. إذا كنت قد دخلت للسرقة فالجريمة فى هذه الحالة أشد .. وإذا كنت قد دخلت لتشترى شيئاً مثلا .. ثم ..

زكى : (ضاحكا فى مرارة) أشترى شيئاً ؟ .. (يهز رأسه ويصمت)

رضا : إننى أسألك .. لأن المحل أبلغ عن سرقة أشياء أخرى فى نفس اليوم . .

زكى : (ينظر إليه مندهشاً) سرقة أشياء أخرى ؟ يا سيادة الوكيل لقد قلت إنك تريد مساعدتى .. ثم تريد أن تلبسنى تهمة أخرى؟ ..

رضا : إننى أساعدك فعلا ..

زكى : إن كانت هذه هى المساعدة ، فالله الغنى عنها ..

رضا : لقد أبلغ المحل عن سرقة مجموعة من الكرافتات فى نفس اليوم ..

زكى : (فى إنكار شديد) كرافتات؟ ! (يمد يده إلى عنقه ويتلفت يمنة ويسرة) لماذا ؟ .. لماذا أسرق كرافتات ؟ ..

رضا : كما سرقت الحقيبة . . حقيقة إنك لا تلبس كرافتات ، ولكنك أيضاً لا تحمل حقيبة سيدة ..

زكى : فهمت .. لا يا سيدى .. لم أسرق أى شىء آخر . .

رضا : حاول أن تتذكر .. لعلك أخذتها لأحد شركائك؟..

زكي : ليس لى شركاء .. ليس لى فى الدنيا صديق ولا شريك .. إننى أشتغل بمفردى .. أنا رجل عصامى ..

رضا : وماذا تشتغل ؟

زكي : أرتزق .. أعيش .. أعيش هذه العيشة السوداء التى أنا فيها .. لو كان الموت ممكناً لأرحت نفسى وأرحتكم .. ولكن سيادتك تعرف : الموت غال على الفقراء .. وصعب أيضاً ..

رجب : ليه ؟ ما صعوبته ؟ ذهبت ترمى نفسك فى النيل فقال لك : لأ ؟ .. ألم تتحصل مرة على قرشين اثنين تشترى بهما سم فأر؟ هل تأخر الترام عن الاستجابة إلى طلبك ؟.. قال غالى .. قال..

زكي : قصدى أنه ليس سهلا .. يعنى .. يحتاج إلى شجاعة . . والله لقد حاولته مراراً .. ليتك تحكم علىّ بالإعدام وتخلصنى .. قل لهم يضربونى بالرصاص .. أو يعلقونى فى المشنقة .. تعبت يا سيدى وأتعبت الناس معى .. ماذا أعمل ؟ .. لا حرفة ولا صنعة ، ولا أحد يريد أن يقبلنى .. أينما أذهب يطلبوا منى تحقيق شخصية وصحيفة سوابق .. (يبكى)

رجب : ابك . . تصنع البكاء كما تفعل دائماً .. هذه الدموع جزء من أدوات النصب التى تعيش بها ..

زكي : ياشاويش حرام عليك .. أنا فى عرض النبى . . الجريمة واعترفت بها . . ألا تتركنى أشكو؟.. هل هذا أيضاً حرام ؟ ..

رضا : تريد أن تقول إنك حاولت أن تبدأ حياة جديدة ولم تستطع ؟ ..

زكي : طبعاً .. بدون فائدة .. سيادتك لا تتصور الدنيا التى أعيش فيها ، أنا وأمثالى .. نحن نعيش فى بئر .. فى حفرة عميقة .. فى حفرة مثل جبلاية القرود التى فى حديقة الحيوانات .. بيننا وبين الدنيا التى تعيشون فيها حيطان عالية .. لا أحد منا

يستطيع التسلق أو التسلل إلى دنيا الناس المحترمين .. من الحفرة التى نحن فيها نراكم تسيرون .. نرى أقدامكم فقط .. ليس إلا طريقة واحدة للدخول فى عالم الناس ..

رضا : ما هى ؟ ..

زكى : أنت تعرفها .. أمامك مثال منها ..

رضا : تعنى ؟ ..

زكى : قلها ياسيدى ولا تتردد .. كلصوص .. الجريمة هى الصلة الوحيدة بيننا وبين عالمكم ..

رضا : إذن فقد دخلت المحل للسرقة ؟ ..

زكى : آه ... والله ياسيدى لم أكن قد أكلت شيئاً من اليوم السابق .. كان رأسى يدور .. كنت أبحث عن أى شىء .. ثم قبضوا علىّ .. سيادتك تعرف ماذا يفعل الجمهور بالواحد منا عندما يقع ..

رضا : ضربوك ؟ ..

زكى : (يهز رأسه فى حزن) طبعاً .. وبعد ذلك التحقيق فى القسم .. سين وجيم .. سين وجيم .. ثم .. يقولون لك ابصم ! وتبصم .. ثم يلقون بالواحد منا فى الحجز .. وتمر ساعات دون كوب ماء .. تصدق بالله ؟ .. من ظهر أمس ما دخل بطنى شىء ..

رضا : تريد أن تأكل شيئاً ؟ ..

زكى : لا .. ولكن إذا كان ممكناً .. سيجارة ..

رجب : (مستنكراً) سيجارة ؟ ! ولك نفس تدخن ؟ ..

زكى : ياحضرة الشاويش أنت تعرف .. نحن نعيش على الدخان ..

رضا : (يخرج علبة سجائره ويمد يده بها إليه . زكى يحاول أن يستخرج واحدة فلا يستطيع) خذها .. خذها كلها .. إنها لك ..

زكى : (فى سرور ودهشة) لى ؟ .. كلها ؟ ! ..

رضا : نعم لك .. (زكي يضعها فى جيبه فى بطء) دخن واحدة ..
رجب: ياسيادة الوكيل ..
رضا : دخن واحدة .. هيا .. هل معك كبريت ؟ ..
زكي: (يخرج علبة السجائر ويأخذ واحدة ويشعلها) الله يخليك .. ربنا يعمر بيتك ..
رضا : (يبحث فى جيوبه ثم يبتسم) أعطنى واحدة ..
زكي : (ضاحكاً) العفو ياسيادة الوكيل العفو .. (يقدم العلبة لرضا فيأخذ واحدة .. زكي يشعلها له)
رضا : تريد أن تأكل شيئاً ؟ ..
زكي : لا والله .. هذا لا يجوز .....
رضا : اجلس ..
زكي : (متردداً) لا ياسيادة الوكيل .. غير ممكن ..
رضا : اجلس أقول لك . . (زكي يجلس متردداً على حافة الكرسى ، ثم ينهض) اجلس .. قلت لك اجلس (يجلس مرة أخرى) :
رضا : (لرجب) رجب .. هات سبت الأكل ..
رجب: (مستنكراً) أكلك ياسيادة الوكيل .. تعطيه لهذا الـ ..
رضا : (مقاطعاً) هات السبت ..

(رجب يتجه إلى الدولاب الأيسر وهو يستنكر ويتأفف ، يفتحه ويخرج من الرف الأسفل شيئاً : يضعه أمام رضا .. رضا ينقله أمام زكي ويفتحه ويخرج منه شطيرة : يمد يده بها لزكى . زكي يتردد فى أخذها . رضا يصر عليه . زكي يتناولها) كل .. لا تخف (يرفعها إلى فمه فى تردد ويبدأ الأكل : بعد ذلك يفتح الشطيرة وينظر فيها ويبتسم) .

زكي: فراخ ! .. (يأكل مرة أخرى) الله يكرمك .. الله يسعدك ! ..
رضا : (يأخذ شطيرة لنفسه ويقول لرجب) تعال يا رجب .. خذ ..

رجب: أستغفرالله ياسيادة الوكيل .. والله لا يمكن ..
رضا : (لزكي) على مهلك .. يوجد كثير ..
زكي : (وهو يأكل) ماذا أقول ؟ .. والله أنا مكسوف ..
رجب: (في سخرية واحتقار) مكسوف ؟ .. اللي اختشوا ماتوا .. مكسوف !
رضا : (وهو يأكل شطيرته) أين تسكن ؟
زكي : في أي مكان ..
رضا : أليس لك بيت ؟ ..
رجب: بيته السجن .. هل له بيت غيره ؟
رضا : أقصد عندما تكون خارج السجن ..
زكي : كان لنا من زمان بيت .. عند السيدة نفيسة .. بيت خالتي .. ثم ماتت .. الله يرحمها .. في بعض الأحيان أنام في نفس البيت عند زوجها .. إنه رجل طيب ، ولكنه لا يحبني .. ولكن ، عندما أتعب جداً .. أذهب إليه ..
رضا : وماذا يعمل زوج خالتك هذا ؟ ..
زكي : سمكري .. عنده دكان صغير ..
رضا : ولماذا لا تعمل عنده ؟ ..
زكي : هو لا يريد ..
رجب: طبعاً ..
زكي : هكذا .. يوم هنا ، ويوم هناك .. أحياناً أنام عند صاحب لي ..
رضا : وماذا يعمل صاحبك هذا ؟ ..
رجب: لص مثله ..
زكي : لا والله يا حضرة الشاويش .. قهوجي .. لا زوجة له ولا ولد .. أحياناً — عندما يراني متعباً آخر الليل — يأخذني لأنام عنده ..
رضا : أليس لك أهل ؟ .. أب .. أم ؟ ..

زكى : أبى وأمى ماتا من سنين .. يرحمهما الله .. أبى كان يعمل شيالا فى المحطة .. بعد أن مات توسطوا لى وأخذونى محله .. كنت صغيراً .. ١٦ سنة .. ثم حدثت سرقة .. حقيبة ضاعت .. اتهمونى بها وطردونى .. من يومها وأنا فى الشوارع ..

رضا : وهل سرقت هذه الحقيبة أيضاً ؟ ..

زكى : لا والله .. سرقها شيال آخر .. رجل كبير .. وهو الذى اتهمنى بها وضربنى حتى كاد يقتلنى ..

رضا : تقول إنك حاولت أن تعمل عملا شريفاً ؟ ..

زكى : مائة مرة .. من ثلاث سنوات عملت فى دكان لمدة شهرين ..

رضا : ولماذا تركت العمل ..

زكى : طالبونى بتحقيق الشخصية وشهادة الخلو من السوابق ..

رضا : ألم تسرق هناك شيئاً ؟ ..

زكى : لا والله .. والسيدة نفيسة .. أو يدوسنى الترام ..

رجب : يا أخى ليته يدوسك ..

زكى : ليته يا حضرة الشاويش ..

رضا : وما اسم صاحب المحل ؟ ..

زكى : الحاج أمين السيد بالغورية ..

رضا : (لرجب) ابحث لنا عن رقم تليفونه فى الدفتر ..

رجب : ياسيادة الوكيل .. سنفتح على أنفسنا باب تحقيق جديداً ..

زكى : اسأله أرجوك .. كلمه بالتليفون ..

رضا : (لرجب) شوف النمرة يارجب (رجب يأخذ الدفتر ويفتحه ويمضى يبحث فى استنكار)

رجب : (يقف عند صفحة ويضع أصبعه على سطر) الحاج أمين السيد الأسيوطى؟

زكى : نعم ..

رضا : اطلب الرقم .. (رجب يدير القرص ثم يناول السماعة لرضا) محل

الحاج أمين السيد الأسيوطى ؟ .. هنا نيابة الوايلى .. أريد أن أكلم صاحب المحل.. أيوه .. رضا عبد الرحمن وكيل نيابة الوايلى.. .. الحاج أمين الأسيوطى ؟ .. سيادتك ؟.. لا .. لا .. لاشىء .. خير .. هل تعرف شخصاً اسمه زكى أبو حبل؟ .. أيوه أبو حبل .. كان يعمل عندك ؟ .. كم شهر ؟ .. شهرين .. ولماذا طردتموه ؟ .. لم تطردوه ؟ ..

زكى : (فى فرح) الحمدالله ..

رضا : (مستمرا فى الكلام فى التليفون) إذن لماذا خرج؟ .. آه .. لم يقدم تحقيق شخصية .. وما رأيك فيه؟ .. يظهر أنه رجل طيب؟ .. أنت متأكد أنه لم يسرق شيئاً ؟ .. شكراً .. شكراً .. لامؤاخذة على هذا الإزعاج .. شكراً .. لا .. لا .. لاشىء (يضع السماعة مكانها وينظر إلى رجب)

زكى : جاءك كلامى ؟ .. ماذا أعمل ؟ .. والله ياسيدى خلال هذين الشهرين كنت كل يوم أذهب إلى مقام الست ــ السيدة نفيسة ــ وأقول لها : ياست يا طاهرة .. أنا فى عرضك .. دعيهم ينسوا تحقيق الشخصية .. أنا فى عرضك .. ولكن ماذا تعمل الست الطاهرة ؟ .. كان الحاج أمين رجلا طيباً جداً .. ولكن ماذا يعمل هو الآخر؟ .. تركت العمل .. وعدت إلى الحفرة .. إلى جبلاية القرود .. من يومها وأنا ألبس هذه الملابس ..

رضا : وهل أنت مستعد لأن تبدأ حياة جديدة ؟ ..

زكى : لا فائدة .. هل رأيت أو سمعت أن قرداً قفز من الجبلاية إلى أرض الحديقة ؟ .. غير ممكن .. سوابق كثيرة ، وهاهى سابقة جديدة .. الله يدرى ماذا سيفعلون بى .. كل يوم صحيفة السوابق تزداد طولا .. وتصبح الحفرة أعمق وأعمق ..

رضا : أقصد بعد أن تفرغ من هذه القضية .. هل أنت مستعد أن تبدأ

حياة جديدة إذا أنا .. ضمنتك ؟ ..

رجب : (مستنكراً) تضمنه ؟ .. تضمن من يا سيادة الوكيل ؟ .. هؤلاء وحوش وأنت رجل محترم وشاب صغير ومستقبلك عظيم .. هؤلاء يجنون عليك .. يأكلونك .. أرجوك .. (متوسلا) أرجوك.

زكى : صحيح يا سيادة الوكيل .. كما قال الشاويش .. نحن وحوش.. أنا من طينة أخرى .. مكانى هناك .. وأنا أعرفه .. لا لزوم لأن تهبط معنا فى الحفرة .. سنأكلك كما قال الشاويش ..

رضا : أنا أعرف ما أعمل .. هل أنت مستعد لأن تبدأ حياة أخرى ؟..

زكى : أجل .. ولكن بدون ضمانك .. دعنى أخرج من الوحل وحدى ..

رضا : ضمانى لك ليس معناه أننى مسئول عنك .. معناه أننى سأجد لك عملا ، وسأعفيك من صحيفة السوابق ..

زكى : وإذا حدث منى شىء ؟ ..

رضا : تعود إلى الوحل ..

زكى : وأنت ؟ ..

رضا : لا تخف علىّ .. أنا أعرف ما أعمل .. والآن هل أنت مستعد؟

زكى : مستعد ..

رضا : كلمة شرف؟

زكى : كلمة شرف ..

رجب : كلمة شرف من هذا؟ !

رضا : سيكتب الشاويش رجب المحضر ويقرأه عليك وتبصم عليه وستحال إلى المحكمة .. ستعاقب على هذه الجريمة .. ستضاف سابقة جديدة إلى الصحيفة .. ولكن هذه الصحيفة كلها سترقد هنا فى درج مكتبى ، وسيفتح لك الطريق لتخرج من الجبلاية .. سنجربك .. سأعطيك الفرصة التى تطلبها ..

زكى : (ينظر لرجب فى دهشة) هل هذا معقول يا حضرة الشاويش ؟

رجب : (يهز كتفيه ويفتح يديه ويبدو على ملامحه الشك) مادام سيادة الوكيل يقول ذلك.. (لرضا) لكن لا تنس سيادتك أنهم سيطالبونه بصحيفة السوابق .. وهي — كما تقول — فى درجك ..

رضا : سيستخرجون له صحيفة جديدة ..

رجب : (يهز رأسه ويبتسم ابتسامة مريرة.. يتكلم كأنه يحدث نفسه) صحيفة جديدة ؟.. ما كان أحد تعب! كلام ! .. هذه إدارة كبيرة .. سبعة أدوار فيها ألف موظف.. كل عملهم الصحائف السوداء لهذا وأمثاله.. ثم نذهب ونقول لهم: احرقوا الصحائف التى عندكم واعملوا صحائف أخرى جديدة .. بيضاء ؟ .. ولمن ؟.. كلام ! ..

رضا : (فى شىء من الغضب) ماذا تقول ياشاويش ؟ ..

رجب : لا شىء يافندم .. لا شىء.. أمرك .. سيستخرجون له صحيفة جديدة ولكن.. حتى بهذه لن يقبله أحد .. سُمعته.. ربنا يحفظ سيادتك..

رضا : أنا سأجد له العمل .. بل عندى هذا العمل .. (لزكى) بعد أن تخرج من السجن تأتى إلى هنا ..

زكى : (فى لهجة غير المصدق) صحيح يابيه ؟ .. سأعمل مثل غيرى ؟ أصبح صاحب عمل دائم ؟ .. وآخر الشهر يعطوننى مرتباً ؟ .. (ينظر فى يده) وأؤجر شقة (فى شبه حلم)مثل بقية الناس ؟ .. وأشترى أثاثاً ؟ وأنام على .. سرير ؟ .. (يلتفت إلى رضا ويستمر فى الحديث بنفس اللهجة وهو يشير إلى بذلة رضا) وألبس بذلة.. كهذه ؟ .. وقميصاً أبيض بأزرار كاملة ؟ .. (يمد يده إلى عنقه) وألبس رباط رقبة ؟ .. وأحلق ذقنى ؟ .. وأسير فى الطريق نظيفاً ؟ .. محترماً ؟ .. (يطأطئ رأسه ويهزه فى عصبية .. ثم يرفع وجهه ويبتسم ، ويتكلم وأثر البكاء فى صوته) يمكن.. جائزه .. مادام سيادتك تقول .. يمكن ..

رضا : (يتأمل زكى لحظات . يتحسس جيوبه باحثاً عن علبة السجائر

زكى يسرع فيقدم إليه العلبة . يأخذ منها سيجارة . زكى يشعلها له) شكراً .. هيا يا رجب .. خذ زكى للمكتب المجاور وأثبت أقواله التى أدلى بها هنا وهاتها لى قبل أن يبصم عليها ..

رجب: حاضر يافندم (يأخذ زكى من ذراعه ويمضى به نحو الباب)

رضا : (منادياً زكى) طعامك .. (ينهض ويحمل السبت ويتجه به إليه . زكى يسرع ويأخذه . رضا يعود إلى مكتبه . زكى يسير مع الشاويش حتى يبلغ الباب. يقف لحظة. رجب يحاول أن يدفعه خارجاً)

زكى : انتظر ياحضرة الشاويش (يلتفت نحو رضا) ياسيادة الوكيل .. أنا مدين لك .. ولابد أن أرد دينى ..

رضا : سترده بعد أن تخرج من السجن ..

زكى : (فى تصميم) لا .. الآن .. (يريد العودة نحو رضا . رجب يحاول أن يمنعه بالقوة) .

رضا : دعه يارجب ..

(زكى يتقدم فى بطء نحو مكتب رضا . ثم يقف . يضع السبت على الأرض . يدس يده فى بنطلونه من أعلى . يبدو أنه يحاول استخراج شىء . رجب ينظر إليه ثم إلى رضا كأنه يستأذنه فى إخراجه . رضا يشير إليه أن يقف ساكناً . زكى يخرج يده وفيها حافظة نقود . يتقدم ويضعها أمام رضا . رضا يتأملها دون أن يمسها)

رضا : ماهذا ؟

زكى : محفظة .. خذها .. انظر ما فيها ..

رضا : (يتناولها . يفتحها فى دهشة . ينظر فى بطاقة تحقيق الشخصية الموضوعة فى غلاف سلوفان بداخلها ويقرأ) دكتور صدقى إسماعيل (ينظر إلى زكى فى دهشة ، ثم إلى رجب) هذه حافظة نقود الدكتور .. الحافظة الضائعة ..

رجب: والنقود ؟ .. فيها ؟ ..

رضا : تعال .. تعال .. ابحث أنت . .

رجب: (يتقدم ويأخذ المحفظة . تتسع عيناه وهو يرى نقوداً فيها . يأخذ في إخراجها ويضعها شيئاً فشيئاً على المكتب وهو يعد) عشرة .. عشرون .. ثلاثون .. (إلى مائتين . ثم ينظر إلى زكى) والباقى ؟.

زكى : فيها .. ابحث جيداً . .

رجب: (يعود إلى البحث . يخرج أوراقاً أخرى) مائتان وخمسة ، وعشرة (إلى ٣٧)

رضا : (يفتح الدوسيه وينظر فيه) ولكن الدكتور أبلغ عن ٢٣٥ جنيهاً فقط . .

زكى : وصرفت جنيهين . . كانا ديناً علىّ لزوج خالتى ..

رجب: يعنى ٢٣٩ جنيه . . ولكن المثبت فى المحضر ٢٣٥ ..

رضا : غير مهم .. نادراً ما يعرف رجل مثل الدكتور صدقى مافى جيبه تماماً .. (لزكى) إذن فأنت الذى سرقت المحفظة ؟ ..

زكى : نعم ..

رضا : ألم يفتشك البوليس ؟ ..

زكى : فتشنى .. ولكن البوليس لا يعرف هذه الأشياء ..

رضا : إذن لماذا أخرجتها الآن ؟ ..

زكى : (يهز رأسه ويطأطئه) لا أدرى . . خجلت منك .. أردت أن ترى أننى أيضاً بنى آدم ..

رضا : ولكن هذا يزيد عقوبتك .. هذه جريمة أخرى ..

زكى : لا يهم .. ستة شهور أو سنة زيادة فى السجن .. المهم أن أشعر أننى محترم فى نظرك .. لابد أن أصفى حساب الماضى مادمت سأخرج من السجن رجلا جديداً . . هل هذا يؤثر فى وعدك ؟ ..

رضا : بالعكس .. هذا يخفف مهمتى .. ربما استطعت تخفيف العقوبة عن الجريمتين معاً ..

زكى : ليس من الضرورى أن تتعب نفسك .. أنا فى حاجة إلى مدة فى السجن ..

رضا : ماذا تعنى ؟ ..

زكى : لأنى أريد أن أتعلم القراءة والكتابة .. هل تستطيع أن توصيهم بأن يعلمونى قيادة اللورى فى السجن ؟ ..

رضا : أى لورى ؟ ..

زكى : اللورى .. أى لورى .. طول عمرى أحلم بأن أكون سائق لورى . تعلمت ذلك مرة .. ولكن اليأس من الحصول على الرخصة أقعدنى .. (يبتسم وينظر إلى بعيد ويعمل بيديه حركة قيادة اللورى) طول عمرى ! .. طول عمرى أحلم بالجلوس على المقعد العالى .. من مصر إلى الإسكندرية .. إلى أسيوط .. إلى المنصورة .. آه .. ودمياط ! .. وغيرها .. وغيرها .. (يهز رأسه) لولا الرخصة الملعونة ! أخيراً فكرت فى أن أشترى لورى .. لكى أعمل عند نفسى دون أن يكون هناك صاحب عمل يطالبنى برخصة .. قالوا لى إن اللورى ثمنه ٢٠٠٠ جنيه .. قلت أجمعها بالسرقة .. كانت البداية هذه المحفظة .. لم أنفق مما وجدته فيها إلا جنيهين دفعتهما لزوج خالتى ليسمح لى بالنوم عنده .. ستة أيام وأنا أتضور جوعاً .. ولكنى لم أمس مليماً .. كنت أريد أن أجمع الألفى جنيه .. عندما رأيت السيدة ذات الحقيبة بدا لى الأمل فى مبلغ محترم آخر .. ولكنى وقعت .. لايهم .. كنت سأتابع العمل بعد الخروج من السجن .

رضا : والآن ؟ ..

زكى : (يهز رأسه) لا .. الآن لا .. أصبحت فى دنيا أخرى .. صحيفة السوابق انتهت والحمد لله .. إننى أقف الآن على نفس الأرض

التى يقف عليها الناس المحترمون .. سأتعلم الكتابة ، وسأحصل على رخصة القيادة .. أليس كذلك ؟ ..

رضا : (يفيق من تفكير طويل .. يمسح بيده على وجهه) مؤكد .. مؤكد (لرجب) اذهبا معاً وانتظرا عند حسيب أفندى .. قل له يعد أوراقه ليكتب التحقيق هنا .. أتعبتُ هذا الرجل معى .. ولكن قل له إن الأمر لن يستغرق طويلا ..

رجب : الجندى هنا .. إنه يريد أن يعود بالمتهم إلى القسم .. لقد هلك من الجوع ..

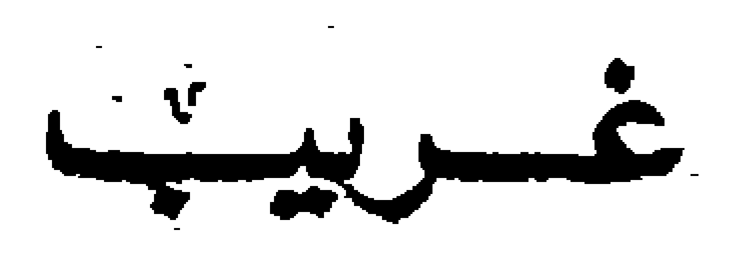
رضا : (يخرج ورقة مالية من جيبه ويناولها لرجب) اشتروا لأنفسكم طعاماً ولا تؤاخذونى .. اعتذر له ياشاويش رجب .. بعد ربع ساعة سأناديكم لنعمل المحضر .. (رجب وزكى يخرجان .. .. رضا يفكر طويلا ثم يأخذ الدوسيه الذى إلى يمينه ويقرأ شيئاً ثم يدير قرص التليفون) دكتور صدقى إسماعيل من فضلك.. سيادتك ..؟ هنا نيابة الوايلى . لا تؤاخذنى إذ أزعجك فى هذا الوقت ، ولكن لدىّ خبراً يسرك .. نعم وجدناها .. كم كان فيها ؟ .. لأ ٢٣٩ .. العفو .. ليس لنا أى فضل .. الفضل للسارق .. نعم للسارق ، هو أعادها إلينا متطوعاً .. من تلقاء نفسه .. بماذا تكافئه ؟ .. لا ياسيدى ، لا خمس ولا ربع .. إنه لا يريد شيئاً .. غير معقول ؟ .. لا .. معقول ، ومعقول جداً .. يريد أن تساعدنى فى الحصول على عفو عنه .. مستعد ؟ .. شكراً ، هذا ما توقعته منك .. غريبة ؟ نعم ، مسألة غريبة جداً .. ستأتى الآن ؟ .. أرجوك .. أنا فى انتظارك .. (يعيد السماعة إلى مكانها . يجمع النقود ويضعها فى المحفظة ويضع المحفظة فى الدولاب المعدنى إلى يساره . يعود إلى مكانه . يضع يده على جبهته مفكراً فيما سيعمل بعد ذلك . يضغط زر الجرس الكهربائى المثبت

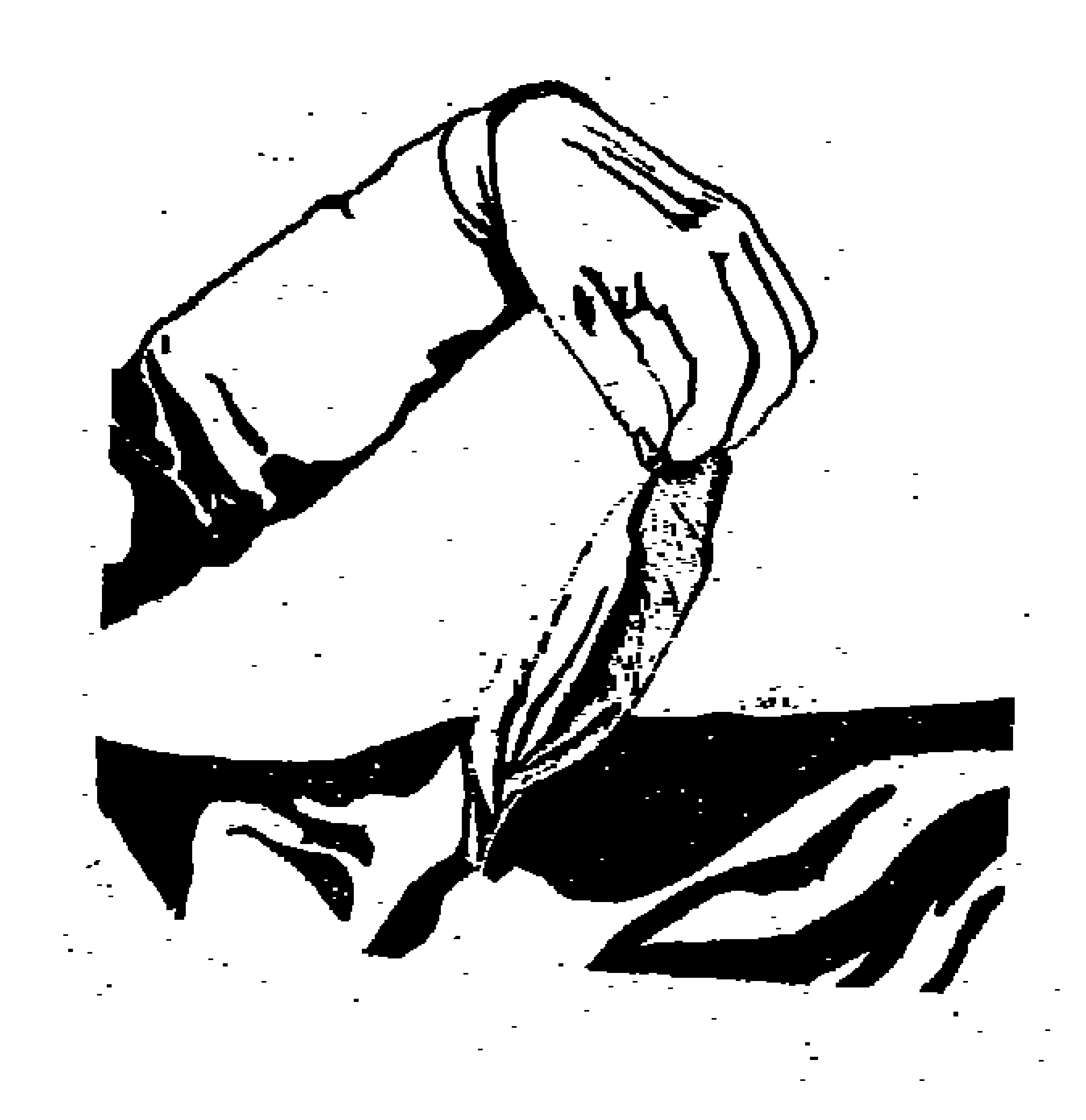
فى الحائط خلفه . رجب يدخل) رجب .. أريد أن تشترى لى سجائر ..

رجب : (ماداً يده بعلبة سجائر وهو يبتسم) هاهى . بعثت الفراش فاشتراها .. لاحظت أنك أعطيت علبتك لذلك الرجل (يأخذها رضا ويشكره . يشعل واحدة . يبدأ فى إدارة قرص التليفون . رجب يقاطعه فيتوقف والسماعة فى يده ، وينظر إليه) ولكن .. ما الذى جرى لذلك الرجل ؟ هل جن ؟ ..

رضا : لا .. لم يجن .. عاملناه كإنسان .. فكان لابد أن يعاملنا كإنسان (رجب يخرج وهو يهز رأسه كأنه يحاول أن يفهم .. رضا يعود إلى طلب الرقم) السيد النائب العام من فضلك .. قل له رضا عبدالرحمن وكيل نيابة الوايلى .. نعم .. نعم .. (لحظة صمت) سيادة النائب العام ؟ .. أرجو ألا تؤاخذنى .. عندى مسألة هامة جداً .. أجل هامة جداً .. تتعلق بمصير رجل .. اليوم ؟ .. فى مكتبك ؟ الساعة السادسة ؟ .. شكراً .. شكراً ..

(فى أثناء ذلك يهبط الستار فى بطء ..)


غريب



فى الشقة الصغيرة يسود الصمت . السكون يخيم على كل شىء فيها مع أن سكانها أحد عشر إنساناً . تسعة منهم أطفال وأولاد يستطيعون إقلاق الجن لو أطلق لهم عنان الحركة والكلام . ولكن أباهم نائم ، وهو إذا نام القيلولة فلابد أن ينام كل شىء ، ويخمد كل صوت فى ذلك الكون الصغير الذى يحكمه بالحزم والعزم .. والحب أحياناً .

يظل كل شىء ساكناً لا يبرح حتى يصحو الوالد من نوم العافية ، وإشارة صحوته هى أن يصفق بيديه طالباً القهوة . هنا تدب الحياة فى كل شىء من جديد ، فينطلق الشياطين الصغار ، ويبدأ الكر والفر والشجار ، والشكوى إلى الوالد والجرى على السلم ومنه إلى الحارة ، وهى الميدان الحيوى لهذا الجيش الصغير ..

هذا هو الوالد يصحو ويفتح عينيه ، وهو راقد على الكنبة التى تحجر قطنها من طول الاستعمال ، ثم ينهض نصف نهضة ويصفق .

ويفتح باب الحجرة ، وتدخل زوجته الست عزيزة تحمل صينية عليها كوب ماء . يتناول الكوب ويفرغه فى بطنه . هذا أول مراسم استيقاظ ذلك السلطان الصغير ، الجالس بكل تواضع على كنبة عتيقة فى ركن حجرة نصف مظلمة على منور يضيق الصدر لمجرد النظر إليه .

وتخرج الست عزيزة تجر قدميها جراً ، ويفتح زوجها عينيه ويتأمل بدنها المتضخم الذى يسير متراخياً ، ويتذكر أنها فى الشهر التاسع وأن ابنه العاشر على الأبواب ، فيفيق دفعة واحدة كأنما كان قد نسى ذلك !

لقد تعود وصول الأولاد على الإفلاس ، حتى أصبح ذلك جزءاً من واقع حياته .. ولكن هذه المرة .. ومد يده تحت المخدة التى كان يتوسدها وأخرج حافظة نقود مستهلكة ومصابة بالأنيميا المزمنة ، ودس فيها أصابعه وأخرج جنيهاً مهلهلا وورقتين قيمتهما معاً عشرون قرشاً ..

هذا كل ما عنده وابنه العاشر يتأهب للخروج إلى دنيا الشقاء ، ومؤشر الشهر يشير إلى اليوم السابع عشر ، وبينه وبين قبض الراتب الجديد أربعة عشر يوماً كاملة لابد لهذا الجيش الصغير أن يفطر ويتغدى ويتعشى فى كل يوم منها ..

وأقبلت ست عزيزة بالقهوة وصبتها له ، وتأملها بحنان شديد ، وشعر بالخجل منها وهى تنحنى فى جهد وقد تصبب العرق على وجهها وأخذت تمسحه بمنديل فى يدها . وظل يتأمل وجهها ثم تناول فنجان القهوة ورشف منه رشفة ، وسمعها تقول : ـ أظن أننى اقتربت جداً ياسى عبد الحق. فقال فى شىء من الاستسلام :

ـ ماذا تعنين ؟ أليس أمامنا أسبوع أو أسبوعان ؟

ـ لا ياسى عبد الحق ... لا أسبوع ولا نصف ؟ يمكن يكون غداً ، أو اليوم ؟؟

فاستقام ظهره فى فزع وقال :

ـ لماذا ؟ .. هل يمكن أن يبكر الوضع بهذه الصورة ؟

ـ لا .. هو هكذا .. مضبوط فى موعده ..

ـ وهل تحسين بشىء ؟

ـ بكل شىء .. ممكن تجيئنى الحالة فى أى لحظة ..

وأحس بسحابة تمر أمام عينيه ، ثم رأى عزيزة تخرج فى بطء شديد ، ثم عادت بصينية أخرى عليها أدوات الحلاقة ، فوضعتها على كرسى إلى جواره وخرجت ، ونهض فأخذ يحلق ذقنه دون مرآة ، فلم يكن بحاجة إلى أن يرى وجهه .. ويسبح فى بحر من الآلام ..

* * *

ماذا يعمل ؟ ومن أين المال ؟ وجعل وهو يحلق يسب الأولاد والبنات والخلف والسلف أيضاً . أما قال الناس لك كفاية عفاريت ؟ ألم ينصحك الطبيب بالاحتراس ؟ ما العمل الآن ؟ وماذا لديك لاستقبال هذا الزائر

غير المرغوب فيه ؟ كم شكت لك عزيزة من الأولاد وتعب الأولاد ؟ ولكنك لا تتعظ ! دائماً تقول : كل ولد يأتى برزقه معه ! وها أنت بنفس المرتب منذ الولد السادس ، وما العمل الآن وليس لديك ما يكفى حتى التاكسى للذهاب لإحضار الداية من « السبتية » !

وأحس ببغض شديد لهذا المولود الذى لم يأت بعد ، وتمنى لو يحدث شىء يحول بينه وبين الوصول ، ثم عاد فاستغفر الله ..

وخطر بباله خاطر .. يستدين خمسة جنيهات من الحاج طه إبراهيم صاحب البيت ...

لقد سبق أن استعان به فى مثل هذه المناسبة ، ولكن الحاج طه كبر الآن ولم يعد حراً فى التصرف فى أمواله كما كان الحال قبلا ، لقد كبر أولاده وأصبحوا كالضباع ، ووضعوا يدهم على كل شىء ، والرجل مريض ..

إنه ذاهب فى الساعة الخامسة إلى شقة الحاج ، لإعطاء درس اللغة الإنجليزية لابنه الذى لايريد أن ينجح .. تمنى أن يكون الحاج موجوداً وأن يستطيع أن يخلو به دقيقتين ، ليطلب منه سلفة على حساب تلك الدروس التى يعطيها كل يوم مقابل جنيهين فى الشهر ...

وتذكر أن لديه كتاباً جديداً فى الإنشاء الإنجليزى ألفه زميله مسعود وأعطاه منه نسخة احتفظ بها فى صندوق الكتب فى غرفة السطح . هذه الغرفة ملحقة بالشقة تكرم عليه بها الحاج أيام العز ، أيام كان أجر هذه الشقة ثمانية جنيهات .. قبل أن تنزل عليها التخفيضات وتهبط بالإيجار إلى خمسة جنيهات وقروش.. كان يضع فيها مالا يحتاج إليه من الأثاث البالى. لو أنصف لوضع فيها كل أثاث بيته ، فليس فيه قطعة تصلح لغير الإلقاء فى النار .. وكان يضع فيها صندوقاً فيه كتبه إنقاذاً لها من أيدى العيال .. فكر فى أن يأخذ هذا الكتاب ويقدمه هدية منه إلى الولد ، فيفتح له ذلك باب للدخول فى موضوع السلفة ..

وفرغ من الحلاقة على عجل ، وأخذ مفتاح الحجرة من تحت قمصانه من دولاب الملابس ، ومضى يصعد السلم إلى السطح .

* * *

استلفت نظره أن باب غرفة السطح الثانية المجاورة لغرفته كان مفتوحاً .. لابد أن أحداً من عند الحاج طه صاحب البيت هناك ..

فتح باب غرفته ودخل . التراب يغطى كل شىء على العادة ، وأزال التراب عن صندوق الكتب ، ورفع جرائد كانت فوق الكتب فوجد كتاب الإنشاء ، وتناوله فإذا صرّار متعلق به . وقع الصرار على الأرض واتجه هارباً خارج الغرفة ، فلاحقه ليقتله فاصطدم بامرأه كانت مقبلة ، أجفلت للصدمة فتراجعت. وتبين أنها عطيات بنت الحاج طه ، فاعتذر لها بأنه لم يرها ، فهونت عليه الأمر وقالت :

ـ كنت أرتب غرفتى هنا عندما رأيتك داخلا السطح . . هذه الغرفة ملجأ لى وأنا أعتصم فيها عندما أغضب من أمى ، إنها تضايقنى كثيراً . .

فنظر إليها طويلا ثم قال :

ـ أنت مثلى لا تسلمين من المتاعب ، والذين يضايقونك هم أعز الناس عليك ، مثلى تماماً . .

فابتسمت وقالت :

ـ تعال انظر . . لقد نظفتها ورتبتها وفرشتها.. إننى أقيم فيها أحياناً.. يوماً أو يومين . .

فنظر إلى الغرفة وراقه منظرها وما وضعت فيها من فرش : حصير عليه قطعة سجاد وسرير سفرى صغير ومنضدة صغيرة وكنبة وكرسيان .

ـ أليست جميلة ؟

ـ إننى أحسدك .. على الأقل أنت لك مهرب وملجأ .. أما أنا ..

واستند إلى الجدار ونظر إليها. لا يزال منظرها جميلا كما كان دائماً . هذا الوجه القمحى يذكره بوجه زوجته عزيزة . فى فترة ما فيا مضى

كان بينه وبين عطيات غزل عابر ، لم يلبث أن انطمر تحت هموم الأيام وكثرة العيال . .

وأفاق على صوتها تقول :

ــ وكيف حال ست عزيزة ... ؟

فهز رأسه وقال :

ــ لا تسألينى عن عزيزة يا ست عطيات...إنها على وشك أن تضع مولودها العاشر ...

ــ هذا الأسبوع فيما أظن ؟ ...

ــ ربما غداً أو اليوم ...

ــ ياخبر ! كان الله فى عونها ...

ــ وفى عونى أنا أيضاً ياست عطيات ... تصدقين بالله ؟ . . مامعى إلا جنيه واحد وعشرون قرشاً ، وأمامى زوجة ستلد ومازلنا فى السابع عشر من الشهر ... صدقينى إننى لا أدرى ماذا أعمل ... لا أدرى ... ضاقت بى الدنيا جداً ... جداً ...

وأحس يدها تمتد وتستقر على كتفه تعبيراً عن العطف ... فوضع يده على يدها ومضى يقول :

ــ لديك ما يكفى من الهموم ياست عطيات ... فلا تحملى همى أنا أيضاً ...

فقالت فى رقة شديدة :

ــ والله ياسى عبد الحق أنا دائماً حاملة همك .. حينما أرى أولادك وتعبك ومسئولياتك أتمنى لو أستطيع معاونتك ..

ودون أن يشعر وجد نفسه يقرب يدها من فمه ويقبلها ، وظل ممسكاً بها وجعل يقول :

ــ ربنا تخليكى ياست عطيات ... والله إننى لأحس بعطفك علىّ وهذا يكفينى .. وأنت دائماً تشترين الحلوى والكراريس للأولاد .

وتنفس من أعماق صدره وقال :

ــ ولكننى فعلا فى ورطة ...

فقالت :

ــ وخصوصاً وست عزيزة لابد أن تلد فى المستشفى هذه المرة ...

ــ هل قالت لك ذلك .. ؟

ــ نعم .. ولكنها خجلت أن تقول لك بسبب المصاريف .. لقد تعبت فى المرة الأخيرة تعباً شديداً وأصبحت لا تطيق رؤية الداية . . إنها خائفة هذه المرة ...

وأحس برقة شديدة نحو زوجته . هذه الإنسانة الأصيلة الصبور التى تحملت فى صمت ... حقاً لقد تعبت كثيراً فى الولادة الأخيرة ... ونظر إلى عطيات وقال وكأنه يناجى نفسه :

ــ بودى لو أخذتها للمستشفى .. ولكن من أين .. ؟ وهل الولادة فى المستشفى أمرهين؟ فنظرت إليه لحظة ثم قالت له : انتظرنى . . سآتى حالا ... لا تترك السطح ...

ومضت مسرعة تنزل السلم ، وجلس على طرف الكنبة وأدار بصره فيما حوله . إنها أسعد منى على أى حال . . لقد تزوجت ثلاث مرات ، وطلقت ثلاث مرات ، لأنها لا تلد .. يابختها . . ليس لديها هموم مصاريف أو هموم أولاد . . . وأبوها ميسور ولن تحتاج أبداً . . . ولابد أن يرزقها الله يوماً برجل تعيش معه بمالها على الأقل . . . هذه المرأة عشقتك فى يوم من الأيام! وأنت أيضاً لا تنكر أنها شغلت بالك كثيراً . . كان ذلك من ست سنوات .. عندما سكنتم هذا البيت .. كنت أنت فى الأربعين ، ولم يكن شعرك قد عرف الشيب بعد .. كان أولادك خمسة ، وكان أبوك على قيد الحياة يرسل إليك كل أسبوع من البلد معونة من الزاد وشيئاً من المال . . كانت عطيات لا تزال عليها مسحة البنات . كانت قد تزوجت وطلقت مرة واحدة عندما مرت بحياتك . . كنتما تتلاقيان على السلم ، عمداً فى الغالب ... وكنت تضمها إلى صدرك .

وهذا كل ما حدث.. ثم ذبل هذا الحب الخاطف تحت وقع الزمن القاسى ولكن لم يمت ، وتكاثر أولادك وتزوجت عطيات مرتين أخريين .. وانتهت لاجئة إلى غرفة السطح هذه إلى جوارك ..

وسمع خطواتها صاعدة ، ثم أقبلت إليه ومدت نحوه يدها بورقة مالية وقالت :

– خذ .. هذه من عندى ... علشان الست عزيزة .. لابد أن تأخذها للمستشفى ..

ونظر فى الورقة . كانت عشرة جنيهات . لم يصدق عينه وابتسم على رغمه وقال وهو يمسك بذراعى عطيات :

– سأعيدها إليك جنيهاً كل شهر .. ربنا يخليك ويسعدك .. لقد أنقذتنا جميعاً ...

ورآها تبتسم وتقول :

– إنها هدية منى لست عزيزة وللولد الجديد .. لا تفكر فى ردها .

وضمها إلى صدره ، فألقت رأسها على كتفه وقالت .

– لم أنسك أبداً يا عبد الحق ...

وقبل أن يرد انفلتت من بين ذراعيه ، وأسرعت ونزلت على عجل .. وقف صامتاً ، ورفع بصره إلى السماء :

– أشكرك يارب ، أشكرك .. الحمدلك ألف حمد .. والله ماأردت شراً ... أنت عالم بحالى يارب ... هى غلبانة وأنا غلبان ... وأنت رب الغلابى تعطف قلب المسكين على المسكين ...

ووضع الورقة المالية فى جيبه ، وعاد إلى غرفته ، وبصر فإذا الصرار يعود إلى الغرفة سائراً فى حذر أسفل الحائط ، فقال :

– أنت مسكين مثلنا .. عد إلى صندوقك وعش فيه فى هدوء .. وهذا كتابك لتنام تحته كما كنت !

ووضع الجرائد فوق الكتاب وأقفل الصندوق فى رفق ، ثم أغلق

الغرفة ومضى نازلا وهو يحس كأن حجراً انزاح عن صدره ...

* * *

عندما وصل إلى شقته وجد صديقه وزميله فى المدرسة محمود عمران فى انتظاره . أتى يسأله عن الحال ، ثم ليذهبا إلى المقهى معاً ، فقال :

ــ أظن يا محمود عزيزة ستلد اليوم أو غداً .. هل كلمتكم ست بركة الداية ؟

ــ هذه المرة عزيزة ستلد فى المستشفى . .

وكانت عزيزة داخلة بالقهوة ، فقالت :

ــ من قال لك إننى أريد أن ألد فى المستشفى هذه المرة ؟

ــ لا أحد ... ولكنك تعبت المرة الماضية تعباً شديداً ..

ــ معلهش .. أتحمل مرة أخرى..المستشفى تحتاج إلى مصاريف...

ــ ربنا معنا . . كل شىء يهون فى سبيلك ياعزيزة.. وهل عندى غيرك؟.. هيا يامحمود .. تعال نحجز غرفة فى مستشفى المبرة.. يقولون إن الزحام شديد ..

ــ على الدرجة الثانية فقط . . يعنى الغرف المزدوجة ..

ــ هذا ما نريد .. تعال ...

وبينما كانت عزيزة تدعو له بطول العمر ولسانها يلهج بشكره ، كان ينحدر على السلم مع صاحبه .

ووصلا المبرة ... وجدا سريراً خالياً ، قالت الممرضة إنه آخر سرير. دفع خمسة جنيهات ما بين أجر الغرفة ونفقات غرفة العمليات . أصر كاتب المستشفى على أن يأخذ أجر ليلتين . هذا هو الحد الأدنى . ودفع جنيهاً آخر لا يدرى لماذا ...

شعر بسرور عظيم أن استطاع ذلك، ثم ذهب مع صاحبه فجلسا فى المقهى قدر ساعتين . كانت الساعة الثانية مساء عندما عاد إلى البيت ،

استقبله ابنه أسامة وقال له :

— ماما راحت المبرة ...

— متى ؟

— من نصف ساعة ... بعدأن خرجت مباشرة جاءها الوجع فاستدعت ست عطيات وذهبتا إلى هناك فى سيارة الحاج طه . قالت إنك تنتظرها هناك .. ألم ترها ... ؟

ونظر إلى وجه ابنه الذى كان يسير نحو الثامنة من عمره وقال :

— ومن ذهب معها منكم ؟

— عديلة ودولت .. آمال بقيت معنا هينا .. أريد أن أذهب معك يابابا لأرى أخى الجديد ..

وأقبلت ابنته آمال . كانت فى الرابعة عشرة ، وهى ثالثة بناته . عندما تزوج أنجب ثلاث بنات متتابعات : عديلة ودولت ثم آمال .. ثم جاء الأولاد بعد ذلك .. ستة ذكور فى خيط ...

وأوصى ابنته ، وأسرع إلى مستشفى المبرة . كانت قريبة جداً من البيت ..

وعندما وصل كانت عزيزة لا تزال فى غرفة العمليات ، وقرأ فى وجه الممرضة شيئاً لم يعجبه . طمأنته قدر ما استطاعت ورجته أن ينتظر فى هدوء .

وانحط على كرسى ، وأخذ يلعن الأولاد ومتاعب الأولاد ، وانصب غضبه بالأكثر على هذا القادم الأخير : هل كنا نقصك أنت أيضاً ؟ من أين أتيت ؟ ولماذا ابتلانا الله بك ؟ ماذا أفعل بك يا وجه الفقر ؟ ماذا أتيت تعمل ؟ أولاد .. أولاد .. هلكنا من الأولاد .. وهاهى المسكينة لايدرى إلا الله ماذا بها ..

وبعد قليل خرجت الممرضة وخلفها الطبيب ، فأسرع خلفه يسأل فى لهفة . وقال الطبيب :

– الحمد لله .. كانت ولادة متعسرة .. المشيمة تفجرت فى الطريق ورأس الولد كان ملتصقاً بالرحم .. كنا على وشك إجراء القيصرية .. ولكن الله سلم .. نزل الولد سليماً ..

– وهى .. ؟ كيف حالها هى .. ؟

– بخير .. تعبت كثيراً ولكننا أسعفناها .. ولكن الولد ..

– فى داهية الولد .. المهم هى ..

وأسرع إلى غرفة الولادة ، هز الطبيب رأسه وسار نحو غرفته . ولحقت به الست عطيات وقالت له : مسكين .. هذا هو ابنه العاشر ...

– وأنت أختها .. ؟

– بل جارتها .. ولكننا كالأخوات ...

– إذن تعالى خذى فنجان قهوة عندى فى المكتب .. لقد تعبت معنا كثيراً ..

وسارت معه ، وسألها :

– وهل تسكنين معها فى نفس البيت ؟

– أنا بنت الحاج طه إبراهيم ..

– صاحب العمارات التى على الميدان ؟ إننى أسكن فى إحدى شققكم.

ونظر إليها طويلا وابتسم ، ودخلا الحجرة .. وطلب القهوة ..

* * *

كانت عزيزة قد خرجت من غرفة العمليات . كانت فى سريرها . وجدها فى حالة طيبة . كانت تبتسم ولكن الإجهاد كان بادياً عليها ، قالت :

– الولد .. ؟ أين الولد .. ؟ كيف حاله .. ؟

– الولد مش مهم .. المهم أنت ...

فقالت فى جزع :

– ابنى .. أين ابنى .. ؟ هات لى ابنى .. إنه ولد جميل كبير ..

– لن يحصل للولد شىء ... طمنينى عليك أنت ...

— أنا بخير ... شوف أنت الولد ...

ودخلت ممرضة فقاست حرارة عزيزة ونبضها ، وأعطتها حقنة وقالت :

— الآن أنت بخير ، سنأتيك بطبق شوربة .. لابد أن تأكلى شيئاً .. أنت منهوكة القوى ..

— الولد .. ؟ فين الولد .. ؟

— الولد تحت الأكسيچين .. لا تخافى عليه ... حصل له اضطراب فى التنفس بعد الولادة ، ولكن الدكتور فوزى شاطر جداً .. أعاد إليه التنفس .. وهو الآن تحت الخيمة ولونه يتحسن وقد أصبح تنفسه طبياً ..

فقالت عزيزة :

— قم انظر ابنك ياسى عبدالحق ... أريد أن أطمئن على ولدى ...

فقال فى ضيق :

— ياستى هل ينقصنا أولاد ؟ .. المهم أنت .. أنت أولا .. أنالاأريد أولاداً ...

— معلهش ياسى عبد الحق نظر كيف حال الولد .. أريد أن أطمئن على ولدى ..

وخرج على رغمه . أخذته ممرضة إلى غرفة فيها أجهزة وأدوات كثيرة. عندما دخل استقبله الدكتور فوزى وطمأنه على الولد ..

— لقد أنقذناه بمعجزة ... كادت الأم أن تموت ... وخرج هو دون تنفس .. ثم تنفس .. ثم وقف تنفسه ، ولكنه الآن عال .. كل شىء فيه طبيعى : التنفس ، الحرارة ، النبض ... ولكن لابد أن يظل تحت الخيمة هذه الليلة ... زيادة فى الاطمئنان .. انظر .. هاهو .. لقد تحسن لونه كثيراً ...

ومن بعيد نظر إلى حيث أشار الطبيب . رأى الولد تحت كلة من النايلون .. لم يجد ما يحفزه على التقدم ليراه : كان لا يريد أن يراه .. كان يشعر أنه عبء جديد حط على كتفيه .. لماذا بذلوا هذا الجهد كله لينقذوه ؟ ..

وشكر الطبيب ومضى فطمأن زوجته .. رجته أن يأتيها بولدها قبل أن يمضي . وجد أن النعاس يحط عليها فخرج، وسار في الطريق إلى بيته ..

وجد أولاده ينتظرونه . طمأنهم على أمهم . لم تلبث ابنتاه عديلة ودولت أن جاءتا . أعطى عديلة عشرين قرشاً ليشتروا عشاء . قالت إنهم لن يستطيعوا الشراء من البقال المجاور لأنهم مدينون له بجنيهين . أخرج جنيهين فناولهما لابنته وقال : ادفعوا له وخذوا ما تريدون.. تعشوا جيداً ..

ـ ولكن ماما تريد الولد .. لابد أن تذهب إلى المستشفى بعد العشاء وتأتيها بالولد . . .

وفعلا ذهب . كانت الساعة العاشرة مساء . وجد أن الطفل قد تحسنت حاله جداً ، فسمحوا بأن ينتقل إلى غرفة أمه لتراه . رأته واطمأنت عليه ، ثم استأذنوها في أن يعيدوه إلى خيمة الأوكسيچين ريثما تصحو في الصباح . رضيت، وقبل أن يتركها رأى وجهها الوسيم يبتسم راضياً . .

خارج الحجرة وجد الدكتور فوزى ، سار معه خطوات . طمأنه على الولد ثم قال له :

ـ تعرف أنها لطيفة جداً ؟ ..

ـ من هى ؟ ..

ـ عطيات هانم التى أنت مع زوجتك ..

ـ نعم .. أصلها بنت الحاج طه إبراهيم .. مسكينة .. إنها لا تنجب..

فقال الطبيب وهو يهز رأسه :

ـ إيه رأيك إنى محتاج لواحدة مثل عطيات هانم تماماً ؟ .. أصل مراتى المرحومة ...

ولم يسمع بقية كلامه . كان غارقاً فى همومه . كانت الممرضة قد قالت له إن عليه أن يدفع جنيهين زيادة بسبب إجراءات تعسر الولادة ونفقات الأوكسيچين ...

وعندما كان خارجاً قابله كاتب المستشفى ، كان لا يزال يعمل فقال له :

— نريد منك جنيهين و ٢٢ قرشاً ..

ومد يده فى جيبه وهو يقول :

— خذها من الآن ...

— تستطيع أن تدفع غداً ..

— خذها الآن أحسن ..

وعندما سار فى الطريق إلى بيته أخذ يحصى مامعه . لم يبق معه إلا جنيه ونحو سبعين قرشاً . جعل يكلم نفسه : لابد أن أسافر إلى البلد . غداً الخميس . أستطيع أن آخذ إجازة ،مسافة الخميس والجمعة . أقابل عمى وآخذ منه ما أستطيع .بدون هذا لا أمل .. الجنيه سأعطيه للأولاد .. والسبعون قرشاً تكفى للسفر ..

وأحس بخطوات تلاحقه . كان كاتب المستشفى ، قال له :

— تعرف أننا نسينا أن نسألك ماذا تريد أن تسمى الولد ؟

وكان يفكر فى قريتهم والشيخ غريب الذى يقوم ضريحه فيها فقال :

— سموه كما تريدون .. كله عندى زى بعضه .. سموه «غريب» .. هو غريب وأنا غريب .. كلنا غرباء ..

وأسرع فى خطوه . وسمع الكاتب يقول :

— صحيح أنت غريب ، ولكن لماذا تعطى الولد المسكين هذا الاسم ؟ ..

* * *

وصل قريتهم ، كوم الراهب مركز سمالوط بمديرية المنيا ، بعد صلاة العصر بعد رحلة بالقطار والسيارة والحمار — على الترتيب .. فى الطريق قرأ الفاتحة للشيخ غريب . وجد عمه كما هو من سنوات ، جالساً على الكنبة فى غرفته الواسعة المليئة بالنور . كان مريضاً لا يبرح بيته من سنوات : سر لرؤيته ورحب به كثيراً واستدناه إلى جواره على الكنبة وقال له :

— ابن حلال .. كنت أفكر فيك ..

— كلك خير ياعمى .. بعد المرحوم والدى أنت أبى ..

ـ الله يرحمه .. كان سندى فى الحياة .. بعد أن مات ، أكلنى أولادى ..

وسكت قليلا ، ثم عاد يقول :

ـ أما كنتم تنتظرون ولداً جديد ؟ .. ألم تخبرنى فى آخر خطاب لك أن عزيزة حامل ؟ ..

فتنهد عميقاً وقال فى أسف :

ـ أيوه ياعمى .. أهى ولدت أمس .. أصبحوا عشرة ..

ـ ماذا ولدت ؟ . .

ـ جابت ولد .. والله ياعمى ماكنا نريده ..

فقال العم فى استسلام وهو يطرد ذبابة بمنشة فى يده :

ـ أهى قسمتك بقى .. مصيبتك هى مصيبتى .. الأولاد ..

ـ ياعمى .. ليس عندك إلا ستة .. وكلهم كبار ومتروجون ..

ـ عفاريت بعيد عنك ياعبد الحق . . والبنات وأزواج البنات أوحش من الأولاد ...

ـ ليه ياعمى ؟ .. كفى الله الشر ..

ـ ياسيدى كلهم متحزبون على مراتى عايدة بنت الشيخ سليمان الهراس .. مالها والنبي عايدة ؟ .. بعد أن ماتت المرحومة أمهم تركونى وحدى كالكلب . حتى البنات نسين أباهن .. من وحدتى تزوجت عايدة .. بنت حلال وبنت أصل ، وكانت مطلقة من سنوات ولا ولد عندها ولا بنت .. أخذتها وطلعت بنت حلال وأميرة وصالحة وأصيلة .. ولكن الأولاد لا يريدونها .. كانوا يريدون ألا أعطيها ولا قيراط أرض .. هل هذا يصح ياعبد الحق ؟ ست أصيلة وبنت ناس ومخلصة وصابرة ولسانها لا يقول العيب ، لا أعطيها شيئاً ؟ . . من الصبح إلى الليل تخدمنى وتشوفنى وترعانى .. ثم أخرجها من تركتى هكذا ؟ .. هل هذا يليق ؟ ..

ـ معلهش بقى يا عمى .. إنهم أولادك ..

— والله عايدة كل يوم تفكر فيك وفى أولادك .. دايماً تسأل : سى عبد الحق لم يكتب لنا .. لازم نكتب له ..

— فيها الخير .. أصيلة برضه ..

— إى والله أصيلة . وألف أصيلة كمان .. لهذا أقسمت بالله أن أعطيها ثمانية فدادين من الخمسة والعشرين قبل أن أموت .. كانت حرب يا ابنى وضرب نار .. ولولا أن أولاد الهراس ناس كبراء والله ماكنت سأستطيع إعطاءها شيئاً . قسمنا الأرض بحضور العمدة . وإخوتها استلموا أرضها يزرعونها لنا .. ناس أصلاء يعرفون الله .. والله إنهم ليأتون لنا بثمن المحصول إلى باب البيت .. ويملأون بيتنا خيراً .. وأولادى ؟ .. لا أحد منهم يسأل عنى بكوز ذرة .. لعنة الله على كل الأولاد . .

— كلهم يأتون غصباً عنا يا عمى .. لا أدرى لماذا يحزن عديم الخلف على الخلفة ؟ ..

ودخلت السيدة عايدة . كانت امرأة عريضة حلوة الوجه ، عليها وسامة ووقار . فى الخمسين من عمرها ولكن وجهها كان شاباً جميل التقاطيع .. رحبت بعبد الحق كثيراً وكانت تعطف عليه دائماً ..

وأتت القهوة وقال العم :

— قم اقفل الباب ياعبد الحق .. امرأة عمك تريد أن تقول لك شيئاً .

وقام عبد الحق فأقفل الباب ، وقالت الست عايدة وهى تملأ الفناجين : قل له أنت ياحاج ..

— شوف ياعبد الحق ياابنى .. أنا كنت قلت لعايدة إننى أريد أن أكتب لك شيئاً ، لأن أولادك كثيرون وأبوك لم يترك لك شيئاً .. وكمان أنت الوحيد الذى نفع فى المدارس من أولادنا وأصبح مدرساً ..

— والله كتر خيرك ياعمى .. أنت خيرنا وبركتنا ..

— والله ما خيرنا وبركتنا إلا عايدة .. هذه التى تراها أمامك .. بعد أن قسمنا الأرض وكتبنا وسجلنا قالت لى :

اسمع ياحاج عمر .. أنا عارفة أنك كنت تريد أن تعطى ابن أخيك عبد الحق شيئاً ، وأنا لا أكسر لك كلمة ، خصوصاً وأننا سمعنا أن امرأته حبلى من جديد . .

فقال العم :

ـ خلفت ياستى .. جابت ولد .. ماذا سميتموه ؟ ..

ـ غريب ..

ـ شيء لله ياشيخ غريب .. وبعدين ياسيدى .. بعد أن تسلمت رضها قالت : أنت كنت تريد أن تعطيه فدانين ؛ لكن إخوتى أنا أيضًا لن يرضوا بذلك . . إنهم ليسوا أحسن من أولادك .. ولكنى أعطى سى عبد الحق ثمنهما من عندى لتكون أنت راضياً وهو راض .. وليكون الله سبحانه راضياً عنا ..

فنظر إليها عبد الحق وقال :

ـ والله لا لزوم لذلك ياامرأة عمى .. لقد أتيت أرجو عوناً بسيطاً علشان الولد .. أى شيء .. كما تفعلين معى دائماً ..

ـ لا .. سأعطيك ثمن فدانين الأرض ، حتى أبرئ ذمتى ويكون عمك قرير العين . .

ـ والله هذا كثير يا عمى ..

ـ خذهم يا ابنى علشان ابنك الجديد .. خذهم وخليهم لغريب ..

وقالت عايدة :

ـ علشان عندما ما يكبر يدعو لى . . عندما يكبر قليلا هاته .. أربيه لك ..

ـ من عينى هذه وعينى هذه يا امرأة عمى ..

ونهضت فأتت بمنديل وفتحته . كانت فيه أوراق مالية . ناولته إياه وقالت :

ـ ٥٠٠ جنيه .. دول حقك ونصيبك .. دول لغريب .. راض الآن؟

ــ راضى ؟ .. ألف راضى .. بأقل من هذا راضى .. بخمسين راضى .. بخمسة راضى .. برضاكم عنى بس راضى ..

وأكب على يدها يقبلها ؛ وعلى يد عمه يقبلها ولسانه يلهج بالشكر والدعاء لهما .. وقال عمه :

ــ ضع النقود الآن فى جيبك ، وإياك أن تقول شيئاً .. ولا كلمة .. غداً صبحاً سيذهب عبد المجيد الهراس أخو عايدة إلى مصر . اذهب معه . لا تقل له شيئاً .. هذا سر بيننا نحن الثلاثة. لا يعلم به إلا الله..

وابتسم وقال :

ــ رزق ابنك غريب .. ابن سعد .. رزقه سبقه إلى الدنيا ..قم الآن فاغتسل وتعال نتحدث ..

* * *

عندما اقترب من بيته كان يقول فى نفسه :

ــ اعذرنى يا ابنى غريب .. ظلمتك والله .. ظلمتك وكفرت بنعمة ربنا .. والله لأحفظن هذه النقود لك ، لن أنفق منها مليما إلا عليك.. هذا رزقك وحلال عليك .. والله لأعلمنك إلى الجامعة .. والله لتكونن طبيباً أو مهندساً .. يا حبيى ياغريب..

وفتحت له ابنته الباب ، وأخذت الحقيبة التى ملأتها الست عايدة بالطعام والدجاج والزاد . وكان وجهه كله ضاحكاً ، فنظرت إليه عديلة وقالت :

ــ غريب مات ..

فكأنما انقضت عليه صاعقة ، وظل واجماً لحظة ثم أجهش بالبكاء .. ودهشت بناته ، لأنهن كن يعرفن أنه لا يريده . ولكنهن جعلن يواسينه ، وأقبلت عزيزة فقالت وهى تمسح دموعاً صامتة :

ــ هاهو قد ذهب . أتى غريباً وذهب غريباً . لم تكن تريده، وما رضيت أن تراه إلا بالقوة .. ياعينى يا ابنى ..

وقف عبد الحق وقال :

ـ متى مات ؟ ..

ـ يوم الخميس فى الصباح . عادت له أزمة التنفس واختنق ، وعجزوا عن إنقاذه ..

وأجهش الكل بالبكاء . وقال عبد الحق ..

ـ ودفنتموه وأنا غائب .. !

فقالت عزيزة وهى تبكى :

ـ نعم .. دفناه مع أختى ..

وانطلق خارجاً وهو يقول إنه يريد أن يقرأ الفاتحة على قبر ابنه . . وصل مع المساء، بعد لأى ما وجد الحارس ، فتح له ودخل ، فانكب على القبر يبكى ..

وتعجب الحارس وقال :

ـ هذا طفل عمره يوم .. كان الله فى عون جارك الذى فقد بالأمس شاباً فى التاسعة عشرة ..

وتركه ومضى . وأخذ عبد الحق يبكى ويناجى ابنه : سامحنى يا غريب.. إننى لا أستحقك .. لم أرد حتى أن أنظر إلى وجهك .. ما كنت أعلم أنك خير أولادى .. أتيت برزقك معك وورثناك .. اغفر لى يارب .. اغفر لى يارب ..

الثّور



(٥)

كانت ساعة الغروب أثقل ساعات النهار على قلب عبد الكريم محمد خطاب المزارع بقرية كوم الأشراف . مركز ميت غمر ، دقهلية ..

عندما تأخذ الشمس فى انحدارها السريع نحو المغيب ، وتهبط أشعتها الذابلة من مئذنة الجامع ورؤوس النخيل إلى حائط الجامع وجدران البيوت ؛ ومن الجدران إلى الأرض ؛ ثم تنسحب شيئاً فشيئاً كأنها ذيول ثوب عروس تمضى ؛ وتطول فى أثناء ذلك الظلال حتى تصبح ظلمات ..

ثم عندما تتجمع أسراب عصافير الجنة ، وترف بأجنحتها طائرة فى دوائر تضيق شيئاً فشيئاً ، كأنها تودع الشمس الذاهبة برقصة أخيرة حزينة ، عندما كان يتأمل هذه العصافير الصغيرة تدور كأنها سهام مارقة ؛ وتعلو فى الجو شيئاً فشيئاً ، حتى تظل فى الأشعة الذهبية إلى اللحظة الأخيرة ، كان يشعر بصدره يضيق . وبقلبه يثقل تحت عبء خانق من خوف وحزن غامضين ؛ لأن الليل فى القرية موحش مخيف خطر ، وربما لأن شيئاً مبهماً فى نفسه كان يقول له إن النهار لا يموت وحده أبداً ، وإنما يموت معه شىء منا ..

ثم يمر به إخوانه أصحاب الحقول المجاورة ؛ فى طريقهم إلى بيوتهم فى كوم الأشراف ، يسيرون نياماً خلف الجاموس النائم هو الآخر ؛ والحمير الغارقة فى النعاس وأرجلها تمضى بها إلى البيوت ، وكلما مر به واحد منهم هتف به صوت نعسان : سلام عليكم يا عبد الكريم ! ويمضى دون أن ينتظر رداً ، ويده ممسكة بحبل الجاموسة أو بذيلها ، وقد جلس على ظهرها ابن له صغير ، ممسكاً بحمل صغير من الذرة أو البرسيم أو أى شىء تسير به الجاموسة على وهن ، وربما غنى الغلام لها شيئاً ..

ويتبعهم عبد الكريم بنظره ، ويتأمل هذا الركب البطىء يسير ظلالا سوداء فى عرض الأفق ، ثم تختفى عن بصره فى الظلام . ثم يأخذ بالحبل

الصغير الذى يحيط برقبة ثوره العزيز « ورد » ، ويضع فأسه على كتفه ويمضى هو الآخر إلى بيته ، ويصبح هو وثوره ظلين أسودين آخرين من ظلال موكب الغروب الحزين .

* * *

ولكنه اليوم لم يكن يستطيع السير فى أعقاب القافلة كما تعود أن يفعل كل يوم ، كان فى ساعة العودة إلى البيت هذه جالساً على الأرض فى حالة إعياء شديد لا يستطيع معه أن ينصب قامته ، كان يجمع بقايا قوته الذاهبة لينهض . ثم إن عم محجوب ، ذلك الشيطان الرجيم كان ينتظره فى البيت ، وكان كل شىء فى الدنيا هيناً عليه إلى جانب لقاء ذلك الدائن اللدود .

كان منهوك القوى ، لأن مغص الكلى — أو الدور كما يسميه — زاره اليوم زيارة ثقيلة قبل الغروب بقليل .

شعر — كما هى العادة كل مرة — بذلك الألم الشديد الذى يفاجئه دفعة واحدة ، كأنه سكين يوغل فى أسفل ظهره ، فاستند إلى شجرة الجميز وأمسك بجنبيه وأخذ يئن فى صوت مكتوم ، مخافة أن يسمعه أحد من جيرانه فيتجمع عليه الناس ، ويمضى كل منهم يقترح عليه ويشير بأشياء لا تنفع ولا تشفع . وتصبب العرق على جبينه وجسمه كله ، فجلس مستسلماً منتظراً أن تأتى بنته « عيشة » ، فهى تأتى كل يوم فى مثل هذا الوقت حاملة إبريق الشاى .

وتصابر حتى وصلت . فما رأت أباها على هذه الصورة حتى فهمت ، فهى بنت لطيفة حادة الذكاء . وأسرعت إلى « ورد » وكان مربوطاً إلى الساقية يدور ويدور ، فحلت رباط النير ثم رفعت العصابة عن عينيه : فسار بخطوات متثاقلة حتى إذا صار على خطوة من صاحبه برك ونظر إليه كأنه يستدعيه ..

ونهض عبد الكريم ، فجلس مسنداً ظهره إلى ورد كأنه يستعين بدفء جسده على الألم ، وأسرعت عيشة فوضعت إبريق الشاى على

الأحجار الثلاثة إلى جانب الشجرة . وجمعت قشاً وقوالح ذرة وأوقدت تحت الإبريق ، ثم مضت إلى أبيها تجفف عرقه بمنديل رأسها ، ثم مدت يدها فى جيبه فأخرجت علبة الدخان ، وناولته سيجارة منها وأشعلتها له ، ثم ذهبت فوضعت الإبريق ، وصبت منه فى الكوب وأتت به إلى أبيها ..

ومضى أبوها يرشف منه شيئاً بعد شىء ، ويأخذ أنفاساً طويلة من السيجارة ، وشيئاً فشيئاً أخذ الألم يخف ، وتصبب على جبينه الملتهب عرق بارد كثير ، يسمونه فى القرية « عرق العافية » ، وهبط عليه شىء من النعاس ، بينما كانت عيشة تجفف له العرق ، وتنظر مبتسمة إلى « ورد » ، فينظر إليها فى سرور ، ويزداد التصاقاً بصاحبه ، تعبيراً عن حبه له وحنانه عليه ..

وكان الظلام قد هبط واختفت القرية عن النظر ، فلم يعد يبدو منها من بعيد إلا أضواء بعض مصابيح البترول . ونظرت عيشة إلى أبيها تستحثه على النهوض إلى البيت ، فأشار إليها بأن تتريث . وكانت شديدة الحب لأبيها والإعجاب به ، فنهضت وسارت حتى جلست إلى جانب النار التى يغلى فوقها الإبريق . وملأت لنفسها كوباً من الشاى ، وأضافت شيئاً من الحطب إلى اللهب الخابى فتأجج من جديد ، وأخذت تنظر إلى ألسنة اللهب تتلظى ، وترشف الشاى على مهل ، فى انتظار إشارة من أبيها بالعودة إلى الدار .

وكان أبوها فى ذلك اليوم أشد منها شوقاً إلى العودة إلى البيت ، فإن الرقود فى الفراش والاستدفاء خير ما يرد إليه عافيته بعد ذلك « الدور » الذى يهد الكيان هداً . ولكنه لم يكن يستطيع دخول بيته هذا المساء إلا إذا أذن المؤذن لصلاة العشاء ، فإن عزرائيل كان ينتظره هناك ولن يغادر باب البيت إلا إذا أذن المؤذن لصلاة العشاء .

وعزرائيل كان الاسم الذى أطلقه أهل قرية كوم الأشراف على عم

محجوب إبراهيم عزب – وهذا هو اسمه الكامل – أغنى أهل قريتهم وأبغضهم إلى نفوسهم . ولم يكن الرجل أول الأمر ثقيلا أو رذلا إلى الدرجة التي يستحق معها لقب قابض الأرواح ، ولكنه كان ذكياً متحركاً فاستطاع أن يقتني واحداً وأربعين فداناً قطعة واحدة ، تمتد قبلى القرية من حوض الدراويش إلى زمام ميت العز ، واشترى بيتاً فى ميت غمر . وأودع البنك مالاً يقولون إنه ألوف ، وهذه كلها ذنوب قلما يغفرها القرويون لأحد من أهل بلدهم ، فكانوا جميعاً طامعين فى ماله .

وكانوا – فى نظره – أعداء لابد من الحذر الدائم منهم . وشيئاً فشيئاً أصبح جامد العواطف قاسى القلب ، لا يفكر إلا فى المال وسبل الحصول عليه ، ومن ثم نشبت معركة طويلة صامتة بينه وبينهم ، وزاد أسباب العداوة أنه كان ممن يقرضون الناس قرضاً غير حسن . وكان يصر على استيفاء دينه فى الأجل المضروب . ولو أدى ذلك إلى خراب بيت المدين .

وكان محجوب لا يعرف فى موضوع النقود هذا رحمة أو رفقاً ، فهو لا يفرق بين من يقترض المال منه للضرورة التى لا مفر منها ، مثل شراء التقاوى أو شراء جاموسة بدل التى نفقت ، أو للذهاب إلى القاهرة لعلاج مرض أعيا طب القرية ، وبين أولئك الذين يستدينون ليقيموا الأفراح لأبنائهم ، أو إذا تزوجوا هم أنفسهم ..

هؤلاء جميعاً كانوا عنده سواء : كان يتقاضى منهم أرباحاً « الجنيه عشرة » ، أى عشرة قروش على كل جنيه فى السنة ، وهو يقتطع ربح السنة الأولى من الدين قبل أن يعطيه . وكان عارفاً بكل ما يملكه أى واحد من أهل القرية ، فكانت وثائق الرهن التى يحمل الناس على توقيعها فى غاية الدقة ، فلا يكاد المدين يتأخر فى الدفع يوماً حتى تكون إجراءات الحجز فى الطريق . وإذا طلب المدين مهلة ، عملت له عملية معقدة تنتهى بالشىء المرهون إلى قائمة أملاك عم محجوب قطعاً ..

وكان عبدالكريم مديناً له بثلاثين جنيهاً كاملة ، أخذها منه

العام الماضى ليعين أمه على الحج ، وذهبت المرأة الطيبة فحجت ثم ماتت ودفنت فى الأرض الطيبة ، وها هو العام قد دار وحل أوان الدفع ، وليس لدى عبدالكريم قرش واحد ، وبدأ عزرائيل يلازم البيت على طريقته عندما يحل أوان السداد على معسر ، وأمله أن يتنازل له عبد الكريم عن قيراط أرض من الفدان المرهون على ذمة السداد ..

* * *

وقد بدأت هذه المساومات من أيام ، وتبين لمحجوب أن استخلاص قيراط الأرض عسير جداً ، فوضع عينه على «ورد» ، ذلك الثور العظيم الذى يعتبر زينة ثيران مركز ميت غمر ، ومقصد الراغبين فى السلالة الطيبة لمواشيهم فى الدقهلية كلها . لقد عرضت عليه الجمعية الزراعية ستين جنيهاً كاملة فى مقابل «ورد» فرفض ، لأن ورداً كان أكثر من ثور ، كان أشبه بصديق كريم وإنسان فهيم .

كان يعمل من طلعة الشمس إلى مغيبها ، فيروى الفدانين فى اليوم ، ويحمل على ظهره الأربعة أرادب أو الخمسة ويسير بها من الحقل إلى الطاحونة فى «ميت العز» فى ساعتين ، وكان إلى جانب ذلك ذكياً لبيباً يفهم من عبد الكريم ما يريد بإشارة يسيرة ، ولو استطاع الكلام لكان دون شك من رجال القرية المحترمين ..

لهذا كان عبد الكريم يراوغ ويتهرب ، فقد كان مستعداً — فى سبيل الاحتفاظ بورد — لأن يبيع قيراطاً من الأرض ويدفع لعزرائيل دينه ، أما أبوه فكان — ككل شيوخ الفلاحين — لا يعدل بالأرض شيئاً فى الوجود ، وهو لهذا لا يمكن أن يسلم ببيع قيراط الأرض مهما حدث ..

وخلال الأيام الماضية كلها كانت المناقشة حامية بين الرجلين : هذا يريد أن يبيع الأرض وذاك يريد أن يبيع الثور ، وبعد صلاة العصر من كل يوم يهبط عليهما عزرائيل ويجلس يشرب الشاى كوباً بعد كوب ، وفى كل كوب أربعة قوالب من السكر ، ويصغى إليهما وهما

يتناقشان فى حمية وعنف . ويمد يده فيأخذ مرة سيجارة من علبة هذا ومرة من علبة ذاك ، ويضحك فيما بينه وبين نفسه ، واثقاً من أن الأمر سينتهى بحصوله على الثور والقيراط جميعاً ..

وكان عبد الكريم يعرف أن عم محجوب لا يدع صلاة تفوته ، لأن تقاه يأبى عليه إلا أن يصلى الخمس فى مواعيدها ، وفى الجامع خلف صديقه وصهره وشبيهه فى كل شىء الشيخ خالد ، المدرس الإلزامى الذى يقول إنه «يتبرع» بخدمة الجامع وإمامة الصلاة فيه لوجه الله .

وكانت هذه الإمامة تخلع عليه مهابة . وتؤمّنه وأمواله من عدوان الناس ، فلم يكن أحد يجرؤ على أن يأكل عليه مليماً ، خاصة وقد كان هو حريصاً على أن يذكّر الناس فى خطبة كل جمعة بالآيات الكريمة التى تحض الناس على أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها . فى حين أن أحداً من القرية لا يذكر أنه تلا عليهم مرة واحدة الآية الكريمة التى تحرم الربا !

فإذا ذكّره بها أحدهم أتى بتفسير لها غريب كل الغرابة ، ملخصه أن الربا المحرم هو ربا الجاهلية . وذلك أن أبا جهل كان يقرض الناس الجنيه بعشرة فى الشهر . فكان يقرض الرجل جنيهاً ويطالبه فى آخر السنة بمائة وواحد وعشرين ، وهذا هو عين الظلم !

فإذا قالوا له : ولكن يا شيخ خالد هل كان الناس يتعاملون بالجنيه إذ ذاك ؟ ضحك وقال : سبحان الله ! إن الجنيه مشتق من الجن ، وهم الذين اخترعوه «ليجننوا» به بنى آدم ، وهو موجود من قبل الطوفان !

وأمام هذا العلم المتدفق يصمت القرويون فى دهشة ، ويبادر المدينون منهم إلى دفع ما لديهم أو يبيعون الشىء المرهون ، ليخلصوا من متابعة الشيخ خالد إياهم باللوم والتقريع فى الجامع على ملأ من الناس .

وكانت فكرة عبد الكريم أن ينتظر حتى إذا أذن الشيخ خالد لصلاة العشاء ، أسرع هو واقترب من البيت ، فإذا مضى العم محجوب للصلاة انسل هو إلى بيته ورقد فى فراشه ومضى يتلوى من الألم . فإذا عاد محجوب

لم تكن أمامه وسيلة للمطالبة والإلحاح ذلك اليوم ، ولا يستطيع أن يهدد بتوقيع الحجز . لأن الناس سيصيحون فى وجهه : حرام عليك يارجل ! خل عندك رحمة وإنسانية ! الرجل يموت فى فراشة وأنت وراءه بالمطالبة والتهديد !

بهذه الطريقة يكسب من عزرائيل يوماً ، وربما بضعة أيام ...

لهذا أخذ بعنان «ورد» وسار ، وجلست عيشة على ظهر «ورد» وقد أمسكت بحمل من البرسيم والذرة وبعض رؤوس القلقاس ، ومرت القافلة الصغيرة ببيت إبراهيم خضر ، وكان قاعداً على الباب وحده يشرب الشاى ويدخن المعسل . فتبادل عبد الكريم التحية معه ..

وعند حائط بيت داود سعفان وقف عبد الكريم وثوره فى انتظار الأذان ، ولم يطل الانتظار فقد انطلق صوت الشيخ خالد ، ولم يلبث عبد الكريم أن رأى من بعيد العم محجوباً يسرع إلى الجامع ، فأسرع هو والثور ودخلا البيت ، ثم وضع يديه على كليتيه وسار فى بطء وهو يتوجع ، فى حين مضت عيشة بالثور إلى الغرفة التى ينام فيها فى رحبة الدار ، ووضعت له البرسيم ومضت لتأتى بالماء .

أما عبد الكريم فقد رقد فى فراشه ، وغطته امرأته باللحاف ، ومضت لتأتيه بالحبوب التى وصفها له حكيمباشى مستشفى ميت غمر ، ثم وضعت الشاى على النار ، وبعد قليل كانت جالسة إلى جواره تمسح له جبينه بمنديل وتناوله كوب الشاى ليرشف منه حتى « يفوت الدور » بسلام .

وبعد قليل أتى أبوه وجلس إلى جواره يحدثه ويطيب خاطره ، ويلف له السيجارة ويشعلها له . ويمضيان فى الحديث فى ضوء مصباح الكيروسين الصغير ..

وعاد العم محجوب بعد أن «خطف» الركعات الأربع . لقد استغرقت منه الصلاة ربع ساعة كاملة ، أى أضعاف ما تستغرقه كل يوم ، لأنه تعود أن يخطفها خطفاً فى ثلاث دقائق أو أربع ، ولكنه اضطر إلى الحديث

بعض الوقت مع صهره الشيخ خالد :

ثم جرى نحو بيت عبد الكريم خطاب ، لأنه أحس أن فى الأمر تلاعباً ، فما كانت عادة هذا القروى المدين أن يتأخر إلى صلاة العشاء فى الحقل ، ولكنه لم يكد يدخل البيت حتى اطمأن ، فقد شم رائحة الثور ، وكان يخشى أن يهربه عبد الكريم أو يخفيه عند أحد معارفه ، خوفاً من الحجز عليه ...

لم يستقبله أحد بترحاب أو ابتسام ، ولكنه ابتسم وحيا متهالا ، وكانت تلك وسيلته فى تجاهل عبوس المدينين فى وجهه وتجهمهم عند رؤيته ، وكان يعرف أنه ليس فى الدنيا مدين يبتسم فى وجه دائن مطالب أبداً ..

وكانت عادته إذا دخل على قوم أن يلح فى التحية ولا يزال يكرر : إزاى الحال ؟ خير إن شاء الله .. سلامات .. ! ، إلى غير هذه من عبارات التأنيس حتى تنفرج الوجوه العابسة ، وتتلاشى معالم الكرب والخوف ؛ فإذا اطمأن إلى أن الضحية استأنست واستسلمت باغتها بالمطالبة والتضييق والتهديد ..

ولكنه أحس ، عندما دخل بعد عودته من المسجد أن هناك شيئاً جديداً فى الجو . فقد عادت الوجوه إلى العبوس بعد أن كان قد أنسها ، فجعل يتبسط ويتظرف دون فائدة ، ظلت الوجوه جاملة كالصخر ، وأخيراً قال الشيخ محمد خطاب والد عبد الكريم وهو يهز رأسه فى أسف :

ــ والله ياعم محجوب ، لا ندرى ماذا أصاب عبد الكريم ...

فقال محجوب فى انزعاج ظاهر :

ــ خير إن شاء الله .. ماذا جرى له ؟

ــ رجع من الغيط فى غاية التعب ، لا يستطيع الوقوف على قدميه ..

ــ عنده إيه ؟ الشر بره وبعيد ؟

ــ أتاه الدور فى غاية الشدة هذه المرة ..

فانفرجت أسارير عم محجوب ، وقال فى سرور متكلف :

— ياشيخ خوفتنى ... قل باسم الله ... إنه الدور الذى يأتيه ، وسيأخذ الله بيده ببركة سيدى إبراهيم ... أعطوه قرص الحكيم وشوية شاى ، وفى ربع ساعة يعود كالحصان ..

فعاد الوالد يهز رأسه فى أسف ويقول :

— لا والله ياعم محجوب ... هذه المرة أشد بكثير من كل مرة فاتت :. الجدع فى غاية الألم .. لا ندرى إن كان يفيق الليلة ...

فتغير وجه محجوب وتجهم . ثم قال فى صوته الجهورى الجامد :

— بقى اسمع يا محمد ياخطاب .. هذا اللؤم لا يجوز علىّ ، أنا عارفك كويس .. هذه حيلة تحسبون أنها تنفعكم فى التهرب من السداد ...

وأطلت عزيزة — زوجة عبد الكريم — برأسها من باب الغرفة وقالت:

— ياعم محجوب حرام عليك ، الراجل راقد دايخ مش قادر يأخذ نفسه وسخن زى النار ... وأنت ...

فلم يدعها تتم كلامها واندفع يقول :

— الراجل بخير ، ولا سخن ولا حاجة ...

فقال الوالد : يارجل اتق الله، خل عندك رحمة ... أليس لك أولاد ؟ ...

— اتقوا الله أنتم ... ابنكم بخير ...

— من أين تعرف ذلك ؟

— إبراهيم خضر قال لى .. كان جالساً على عتبة بيته ساعة المغرب، ومر به ابنك وسلم عليه بصوت كالرعد . كان معه الثور وبنته عيشة ، وعندما مر ببيت داوود سعفان وقف طويلا كأنه ينتظر شيئاً ..

ففتح محمد خطاب عينيه دهشاً وقال:

— سبحان الله ياعم محجوب .. إنك ترقب هذا المسكين خطوة خطوة كأنه قتل لك أحداً .. ماذا تريد منه ؟

— نقودى.. حقى .. لا أريد إلا حقى.. هل المطالبة بالحق حرام ؟.. أم تريدون أن تنهبوا مالنا وننام ... ؟

— لا أحد ينهب مالك ياعم محجوب ... عيب هذا الكلام الذى تقوله ...

— أنا عارف أنه عيب ... ولكن ماذا أعمل إذا كنتم تحاولون إخفاء رجل فى حجم الباب وتدّعون المرض والموت ؟

— ألا زلت لا تصدق أن الدور أتاه ؟ ...

— الدور يأتى أهل القرية جميعاً .. ليس فى هذه القرية إنسان لا يشكو مغصاً ... كلنا مرضى وأنت عالم بالحال ...

ثم ضرب كفاً بكف وجعل يهز رأسه ويقول :

— قال مغص قال ! هل الفلاح يكون فلاحاً بدون مغص-يا محمد ياخطاب ؟ أرنى واحداً فى هذه القرية لا يأتيه دور كدور ابنك هذا . . .

فقال محمد خطاب محاولا تهدئة الرجل :

— صحيح ياعم محجوب كلنا أصحاب مرض ... والمريض ياشيخ محجوب يعذر المريض ... غداً يكون عبد الكريم بخير ، وتأخذ نقودك إلى آخر مليم ، والدنيا لن تطير ...

— نعم .. الدنيا لن تطير ، ولكننى أعرف ما الذى سيطير .. نقودى! أنا ذاهب للعمدة الآن ، ومن باكر نبدأ الإجراءات ... سلام عليكم ..

ونهض مغضباً واتجه نحو الباب ، وقام من خلفه محمدخطاب وأمسك بذراعه ليمنعه من الخروج ، فإن هذا الرجل لو ذهب إلى العمدة وطلب إليه البدء فى الإجراءات ، فإن شيئاً فى الدنيا لن ينفع محمد خطاب أو ابنه ، فإن العمدة نسيب محجوب ، والأغنياء فى كل بلد أقارب وحلفاء ..

وما زال محمد خطاب يتلطف مع محجوب ويطيب خاطره حتى هدأ وعاد إلى مجلسه ، ثم صب له محمد خطاب كوب شاى كأنه الحبر الأسود، وأضاف إليه أربعة قوالب من السكر مزيداً فى الإكرام ، ولف له بيده

سيجارة وأشعلها له ثم قال :

ـ ياعم محجوب أنت خيرنا وبركتنا . بس انت عارف الأحوال ...

ـ أنا أعرفها جيداً : عندك فدان ونصف وعند ابنك اثنان ، وعند كما أشياء أخرى كثيرة ...

ـ يعنى ، ألا تنتظر علينا أسبوعاً ؟

ـ ـ ولا ساعة ...

ـ يرضيك أن نبيع الأرض ؟

ـ ويرضيك أن يضيع مالى ؟

ـ مالك لن يضيع ... سنعطيك نقودك فى الصباح ياعم محجوب ، والناس أهدار ...

ـ وماذا ستعمل إذا كنت لا نبيع قيراطاً من الأرض ؟ ...

ـ سأجعل عبد الكريم يعطيك الثور ...

فصرخت زوجة عبد الكريم وهى تضرب صدرها :

ـ يا للمصيبة ! ورد لا يخرج من بيتنا أبداً ... وسمعوا صوت حركة داخل الغرفة ، ثم أطل رأس عبد الكريم وقد استند بيديه على الباب وقال : إذا مس أحد منكم الثور بيده أطلقت عليه النار ...

ونظر إليه محجوب دون أن تبدو على وجهه أقل علائم الدهشة وقال : هذا هو المريض .

فقال الأب محمد خطاب وهو فى حرج :

ـ صدقنى أنه مريض ... ثلاثة بالله العظيم إنه يكاد لا يستطيع أن يأخذ نفسه ..

ـ بل صدقنى أنت ، ثلاثة بالله العظيم ـ وليس لك علىّ يمين ـ إن ابنك عبد الكريم سليم قوى مثل شجرة الجميز ، ولو تركناه لأكلنا جميعاً .

فصاحت زوجة عبد الكريم فى رعب شديد :

– ياحفيظ .. احفظنا يارب من عين السوء ... هذا الرجل ينلبّ في عينه مسمار ...

– أنا ياأم عيشة ؟ .. أنا يابنت نفر التراحيل ؟ ..

فانفجر عبد الكريم غاضباً يقول :

– احفظ لسانك ياعم محجوب .. أم عيشة أبوها كان فقيراً حقاً ، ولكنه أشرف من ناس كثيرين ..

وجم الجميع . فقد كانت هذه العبارة أشبه بقنبلة . كان مفهوماً من هم أولئك الناس الكثيرون . بعد مثل هذه الجملة لا يبقى إلا التماسك والتضارب ، وإذا وصل الأمر إلى أن يمسك عبد الكريم بعم محجوب ويضربه فإن أحداً في القرية ، بل في المديرية كلها ، لا يستطيع إصلاح الأمر...

في هذه اللحظة دخل الشيخ خالد صهر محجوب وصديقه وحليفه : دخل في اللحظة الحرجة ، ليوفق بينهما . ومضى يهدئ هذا تارة وذاك تارة أخرى ، وطالت عملية التهدئة حتى تعبت أم عيشة من عمل الشاي وصبه في الأكواب ..

سمع الشيخ خالد من كل من الرجال حكايته مائة مرة ، حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ، وكل من الأطراف متمسك برأيه : محمد خطاب يقسم ألا يباع قيراط من أرضه أو أرض ابنه ، وعبد الكريم يقسم أنه سيطلق النار على من يمس بيده ثوره «ورد» ، والشيخ محجوب يقسم على البدء بإجراءات الحجز وخراب البيوت من الغد ، إذا لم يحصل على المال أو الثور أو قيراط الأرض الليلة ..

وبعد كلام كثير جداً ، ساد صمت ...

ثم رفع الشيخ خالد رأسه وقال وقد انفرجت أساريره ، كأنما وجد طريق الفرج : عندي حل ..

فقال له الأب : خير بإذن الله ..

– تزوجوه عيشة ..

وظل ساكناً لحظة ، ثم تلفت فى وجهى عبد الكريم وأبيه متفحصاً :
ثم نظر إلى أم عيشة التى وقفت واجمة تنظر بعينين بلهاوين إلى هذا الشيخ العاتى ، ثم أفاقت من ذهولها وقالت فى إنكار شديد :
ـ عيشة ؟ بنتى عيشة ؟ .. لكى يطلقها بعد أسبوع أو تقتلها امرأته نفيسة ؟ ..

وضحك الثعلب العجوز ، فقد كان يتوقع ذلك . كان معتاداً هذا النوع من احتجاجات الأمهات كلما ألقى شباكه على واحدة من بناتهن . كانت تلك هى لذته الثانية فى الحياة بعد جمع المال : الزواج ..
فى سبيل الحصول على بنت حلوة مثل عيشة ، كان مستعداً لاحتمال أى إهانة . كانت زوجته الدائمة الحاجة نفيسة بنت عم الشيخ خالد تقف له بالمرصاد ، فكان لا يغافلها ويتزوج عليها إلا أسرعت مع إخوتها وأجبروه على الطلاق ، بعد أسبوع أو أسبوعين ، ربما شهر ..
هذه المرة أحكم الأمر مع الشيخ خالد ، وسارت الأمور كما رسما معاً ، بقى أن تسرع الخطوات التالية فيتم الزواج قبل أن تعلم زوجته .
وكان واثقاً من أن هذا الزواج سيتم . فإن عبد الكريم ومحمد خطاب ، ككل أب أو جد ، لا يكرهان أبداً فكرة تزويج بنت تخطت الخامسة عشرة . أما أن عم محجوب عجوز ، فمن قال إن الرجال لهم سن ؟ وبالنسبة للطلاق القريب المحتمل ، فمن الذى يضمن أنها لا تطلق بنفس السرعة إذا تزوجت شاباً ؟
على أى الأحوال هناك احتمال وفاة العم محجوب وحصول البنت على تركة ، وهناك احتمالات المساومة على ما يعطيها وما يكتب لها من المال والعقار ، وهو رجل موسر مولع بالنساء . وعيشة بنت حلوة ، لطيفة بيضاء سمينة ، يعرف قيمتها رجل خبير مثل محجوب !
هذه هى الأفكار التى كان محجوب يقرؤها على وجوههم وهم يناقشونه . لقد سبق أن قرأ مثلها على وجوه أخرى كثيرة قبل ذلك ، وعرف كيف

يمكر بأصحابها ويخرج من المأزق رابحاً غانماً ..

وأحس محجوب أن المقاومة تنهار شيئاً فشيئاً ، فضاعف الهجوم ومضى يذكر كيف سيقدم لعيشة من فرص السعادة والهناء ما لا يمكن أن يدور بخلد أمها أو أبيها أو جدها : سيسكنها فى شقة وحدها فى بيته فى ميت غمر بعيداً عن الحاجة نفيسة ، وسيشترى المتاع كله باسمها ، وسيأتيها بالمصاغ الغالى وملابس الحرير ، وسيكرم أمها بالهدايا ، ولديه على سبيل المثال « ملس » حرير معتبر شغل المحلة أحضره لها خاصة ، ونظر إلى الشيخ خالد وقال : فين الملس ياشيخ خالد .. ؟

ــ عند منصور البقال .. نرسل من يحضره

وقال محجوب :

ــ الثلاثون جنيهاً التى لى عليكم هى المهر ..

وفكر جد العروس قليلا ثم قال :

ــ ياعم محجوب ، خل المهر خمسين جنيهاً ، منها الثلاثون التى تديننا بها ، والباقى تعطيه لنا فنشترى للبنت حاجة ونجهزها ..

وأراد محجوب أن يحتج ، ولكن الشيخ خالد سارع فقال :

ــ لا مانع ، كل هذا إكراماً لخاطرك يا محمد ..

ومضى الكلام فى التفاصيل ، كان محجوب يريد أن يفرغ من العقد هذه الليلة ، فوافق على كثير مما لم يعجبه ، وأرسلوا فأتوا بالشيخ زيدان مأذون القرية ، فكتب العقد بعد أن سلم محجوب لعبد الكريم عشرين جنيهاً بقية الصداق ، وقرر فى الوثيقة أن عليه خمسين جنيهاً مؤخر صداق...

* * *

وبينما كان المأذون يكتب والرجال يتحدثون ، مضت أم عيشة إلى ابنها الصغير أحمد فأيقظته ، وأمرته أن يسرع إلى بيت الحاجة نفيسة ويبلغها الخبر ، ويرجوها الإسراع فى المجىء . . .

وبعد العقد أرسلوا إلى عم منصور البقال ، ففتح الدكان وأتى بملس

الحرير وزجاجتين من الشربات . وفيما كانت الأكواب تدور سمعوا ضجة وأصوات أقدام مقبلة ، ثم فتح الباب ودخلت الحاجة نفيسة يتطاير الشرر من عينيها ، ومعها إخوتها الثلاثة بدوى ومحروس ودسوقى ، كل منهم كالمارد ضخامة ورهبة ..

وقفوا فى رحبة الدار كأنهم سباع تتأهب للانقضاض . ونظر إليهم محجوب واجماً ، وتمشى فى جسده الخوف وهو يرى هذه العيون النارية الثمان تنظر إليه فى غضب وتهديد ، وقالت نفيسة :

— ماذا عملت يا عجوز السوء ؟

ولم ينطق . وضع كوب الشربات على الأرض ولم ينطق ، وقالت أم عيشة :

— تزوج .. تزوج ابنتى عيشة .. رغماً عنا !

— أنا عارفة .. هكذا يعمل دائماً ... يأخذ بنات الناس بالديون .

وقال دسوقى وهو ينظر إلى محجوب بعينين تخرقان الفولاذ : طلقها ..

وجمع الشيخ خالد أطراف شجاعته وقال :

— بس يادسوقى ...

ولم يدعه دسوقى يتم كلامه ، بل لكزه بفوهة بندقيته فى بطنه لكزة آلمته وأخرست صوته . وكانت ورقة الزواج فى يد عيشة ، فطوتها ووضعتها فى صدرها ، وقالت نفيسة : طلقها الآن .. !

ولم يشعر محجوب فى حياته بمثل هذا الخوف .. كان الموت يتواثب فى عينى دسوقى ، وكان هذا رجلا رهيباً له جرائم ومصائب ، ولا يجرؤ أحد على تحديه ، خاصة إذا كان فى هذه الحالة من الغضب . وقال دسوقى :

— قلت لك طلقها .. قل إنها طالق بالثلاثة !

— إنها طالق بالثلاثة ..

— اكتب ياشيخ زيدان ورقة الطلاق ..

وفى أقل من خمس دقائق كانت الورقة قد كتبت ، وتم التوقيع والإشهاد عليها ، ثم سلمت لعبد الكريم ...

ونهض محجوب والشيخ خالد وخرجا ، ومن خلفهما الحاجة نفيسة وهؤلاء المردة الثلاثة ...

وأقفل الباب وساد الصمت ، ثم انفجرت أم عيشة ضاحكة وقالت: خلصنا منه ومن اللبن ...

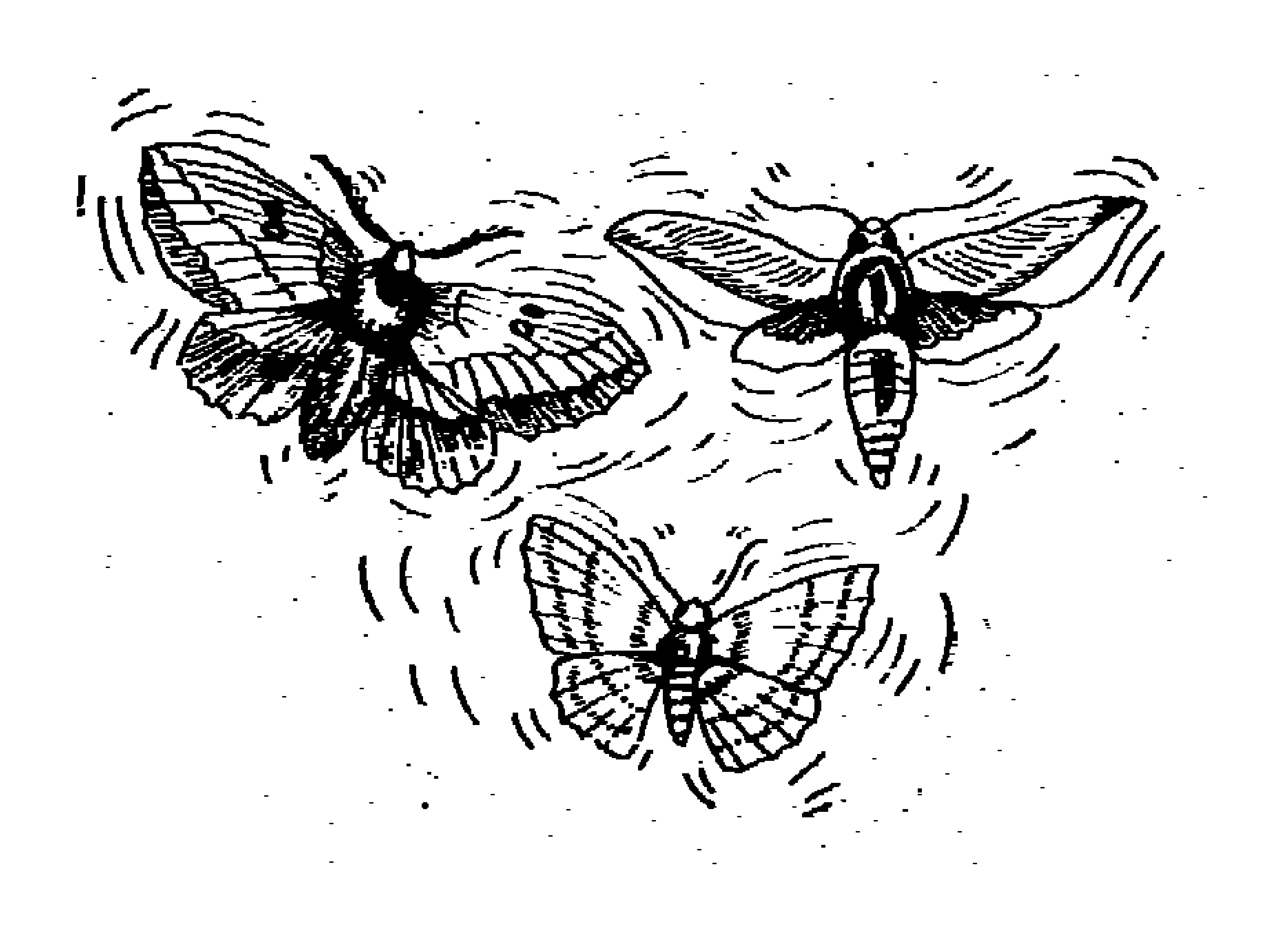
وقال محمد خطاب :

— ولنا عنده خمسون جنيهاً مؤخر الصداق ..

ولم يسمع عبد الكريم شيئاً ، كان لا يفكر فى مؤخر الصداق هذا ؛ كان شعوره بالسعادة لمجرد الخلاص من اللبن لا يوصف ، وأخذ زجاجة شربات ومضى يفرغ منها فى الماء الذى يشرب منه «ورد» وهو يقول :

— اشرب ياورد اشرب ... كلك بركة يا أمير ... !

الفراشة



أغمض المعلم خليل عينيه ليستمتع استمتاعاً كاملاً بآخر جزء من عملية حلاقة الذقن الثقيلة التى كان «يجريها» له الأسطى توفيق ، بموساه الرهيبة التى لم تعرف قط حجر المسن منذ اشتراها . وتناول الأسطى توفيق فوطة مبللة بالماء الساخن ، وأدارها حول وجه المعلم خليل ، من إحدى سالفتيه إلى السالفة الأخرى ، مارة بمنطقة الذقن الحافلة بالجروح ، وضغط الفوطة ضغطاً رقيقاً ، ومضى — فى أثناء ذلك — يقص على عميله المستسلم له بين يديه آخر ما فى جعبته من حكايات اليوم ، وتتلخص فى أن عم خليفة البقال أضاع من يده عريساً معتبراً تقدم لابنته «إلهام» بسبب اختلاف بسيط على المهر ، فقد عرض العريس — وهو ابن أخى إبراهيم رفاعى العلاف — ثمانين جنيهاً ، وأصر الأب — أو الأم ، كما يقول البعض — على مائة كاملة ..

ولم يكن المعلم خليل مصغياً إلى حديث الأسطى توفيق ، لأنه يعرف أنه ثرثار لا يدقق فيما يحكى ، ومن ثم فكلامه لا يستحق عناء الإصغاء ، هذا إلى أنه — أى الأسطى توفيق — عدو لدود لعم خليفة البقال ، وقد قامت بينهما منذ سنوات حرب ألعن من حرب البسوس كما يقول عبد السلام أفندى كاتب الأستاذ صفوت المحامى ، وبالأمس فقط شرح لهم الأسطى توفيق — فى شبه محاضرة طويلة — كيف يغش عم خليفة الجاز بالماء ، والسمن بزيت جوز الهند ، والشاى بقشر العدس المصبوغ ، والبن بالفول السودانى ، وختم محاضرته قائلا إن « بقالة خليفة » لا يمكن أن تبيع إلا ما هو مغشوش ، هذا بالإضافة إلى الغش فى الوزن ، ولعم خليفة فى ذلك حيل تحيرت فيها عقول الجان ..

وفى هذه اللحظة بالذات ، لم يكن المعلم خليل مستعداً للإصغاء لأحد من الناس ، لا للأسطى توفيق ولا لسواه . لأنه كان يريد أن يشعر بسخونة

الفوطة الموضوعة على ذقنه شعوراً كاملا . يخفف عنه آلام الجروح الكثيرة التى خلفتها معركة حلاقة الذقن فى وجهه . نعم إن هذه الفوطة الساخنة كانت تزيد انبثاق الدم من الجروح . ولكن علاج ذلك سهل ، فبعد أن يرفع الأسطى توفيق فوطته يضع فى كفيه قدراً طيباً من مسحوق التلك ويكبسهما على وجه المعلم المستسلم له بين يديه استسلامه لقضاء الله الذى لا يرد ، وبعد ذلك ينفض المسحوق عن وجهه بفرشاة بالية تساقط شعرها من طول الاستعمال ، فبدت كأنها ذيل دجاجة من دجاجات أم عطية ، التى تسرح وتمرح فى أكوام الزبالة التى تعتبر من المعالم التاريخية المميزة لزقاق «الطابونة» منذ خلقه الله ..

ثم انتهت هذه العمليات المتوالية ، وتلقى المعلم خليل تهانى الموجودين فى المحل : نعيماً ! .. نعيماً ! .. كأنه خرج منتصراً من معركة . وربما كانوا على حق ، فإن موسى الأسطى توفيق كانت فى الواقع قد أصبحت سكيناً باردة منذ سنوات . ولم تكن هناك وسيلة للهرب منه ، فإن أمواس المزينين الآخرين كانت أسوأ وأبرد ، وخصوصاً موسى الأسطى بيومى ؛ فقد كانت زوجته أم رجب تستعملها فى تقشير الخضار وتقطيع اللحم فى الليل ، وتقول إنها تسنها بهذه الطريقة ...

* * *

خرج المعلم خليل من «صالون النعيم» وسار على مهل فى طريقه إلى المقهى ، ومن حين لحين كان يرفع كفيه إلى أنفه ليستمتع ببقايا عبير قطرات «كولونيا القسيس» التى صبها فيهما الأسطى توفيق كختام لعملية حلاقة الذقن ، وكانت هذه القطرات من كولونيا القسيس امتيازاً خاصاً يقصره الأسطى توفيق على الأعزاء من عملائه ، وكان المعلم خليل من أولئك العملاء الأعزاء وإن لم يكن أكرمهم ..

وفى هذا المساء كان المعلم يشعر بنشوة تفيض فى كيانه كله ، فقد حصل فى الصباح على حكم لصالحه فى قضية الفرن الذى ينازعه ملكيته

من سنوات محمد أفندى كامل سكرتير المدرسة الابتدائية ، وهو رجل يقول المعلم خليل أنه سيذهب إلى جهنم رأساً دون حساب ، فإن حياته كلها ظلم فى ظلم ونهب لأموال الناس ، ومع أنه من أعرف الناس فى بر مصر كله بالقانون والقضايا والمحاكم ، إلا أن المعلم خليل عرف كيف ينتصر عليه ، ويحصل من الاستئناف العالى على حكم نهائى مشمول بالنفاذ ، ومن غد بإذن الله سيشرع فى إجراءات طرد عم جعفر الفران ، وإخلاء الفرن ليبنى على أرضها الواسعة عمارة من ثمانية أدوار ، فى كل دور أربع شقق على الأقل . وقد وعده المهندس وصفى بأن يبنى له فوق العمارة فيلا ذات حديقة وأشجار وزهور .

كان هذا وحده كافياً لإشعار المعلم خليل بنشوة شاملة ، فما بالك وقد تغدى بعد الحكم غداء كفيلا يبعث الحياة فى الحجر ؟ أكل كباباً وكفتة مع محاميه الأستاذ أحمد نور ، ثم مضى إلى بيته فنام ساعتين كاملتين ، ثم صحا فشرب فنجانين من القهوة المحوجة بجوزة الطيب المحلاة بنصف ملعقة من عسل النحل ، مضافاً إليها قطرة واحدة من العنبر الذى « يشد الوسط » ، ثم لبس الجلباب السكروتة الذى يسميه القفطان ، وأسبغ عليه المعطف الأسود — إذا أغضينا النظر عن عشرات البقع التى تزينه من كل لون — ووضع على رأسه الطربوش ، ثم مضى فخاض معركة حلاقة الذقن ، وهى — مهما يقال فيها — تشعر الإنسان بالشباب والنشاط ، وخاصة إذا وضع بعدها شيئاً من القرنفل تحت لسانه ، كما يفعل هو الآن ..

كان فى طريقه إلى « قهوة » المحبة ، وكان يتباطأ فى سيره ليرجئ لحظة وصوله ، لأن شلة الإخوان كانت تنتظره هناك — ولابد — للاحتفال بانتصاره العظيم ، وعلى رأس الشلة عبد السلام أفندى كاتب الأستاذ أحمد نور المحامى ، والحاج برهان تاجر المانيفاتورة ، والمعلم مجلى صاحب محل « الموبيليات النهبية » ، وأمين أفندى راغب الموظف على المعاش ، ونديم أفندى زوج أخته ، وبقية أولئك الكهول الذين يتلاقون فى هذا المقهى

من سنوات طويلة . لابد أنهم سيستقبلونه بزفة كبرى . فقد شرح لهم عبدالسلام أفندى تفاصيل آخر أدوار المعركة مع محمد أفندى كامل سكرتير المدرسة . حتى نديم أفندى سيتوقف عن لعب الطاولة مع المعلم مجلى لينهض ويعانقه . وهذا فى ذاته حدث عظيم : لأن نديم أفندى والمعلم مجلى غريمان فى الطاولة . لا تتوقف الحرب بينهما يوماً . برغم أنهما يسكنان فى بيت واحد فى حارة زيتون .

*

وانتبه وهو فى الطريق إلى أنه تأخر أكثر مما قدَّر : فقد هبط الليل وأوقدت الأضواء . فأسرع فى سيره فقطع الباقى من شارع الترعة ثم انحرف إلى اليمين فى شارع العطار : وهو شارع طويل موحش بالليل لقلة الدكاكين فيه ، ثم انعطف إلى اليمين مرة أخرى فى حارة سيدى الأربعين . وهى حارة لا يكاد يمر فيها إنسان بعد الغروب : لأن جانبها الأيمن كله حائط جامع سيدى الأربعين ، وجانبها الأيسر دكاكين تجار خضر وفواكه بالجملة تعمل فى الصباح فقط ، وبعد صلاة العصر تخاو هذه الحارة إلا من قطط وكلاب كثيرة تعيش على أكوام القمامة وترقد فى بقايا الخضر وغيرها مما تخلفه هذه الدكاكين ويظل إلى صباح اليوم التالى حين تمر عربات الزبالة فتحمله ...

وكانت هذه الحارة تصب فى شارع أكثر منها وحشة هو شارع القبانى : وهو شارع طويل يمتد بطول السور الخلفى لسوق الخضر . وكانت مخازن التجار تملأ هذا الشارع . فإذا مررت فى الصباح لم تكد تجد موضعاً لقدميك ، ولم تستطع سماع صوت محدثك بسبب الضوضاء التى تصم الآذان : مابين نداء الباعة ولغط الناس — ومعظمه شجار — وضجة العربات الغادية والرائحة بالبضائع ، وصياح العربجية الذى يثير الأعصاب ، يضاف إلى ذلك أصوات الراديو المنبعثة من معظم الدكاكين .

أما بعد الظهر فهذا الشارع قاحل ، ماحل لا يعمره إلا بار — أو خمارة

بتعبير أصح ــ افتتحه الخواجا بنايوتى اليونانى من سنوات كثيرة ، ومقهى على ناصيته من ناحية الميدان ، ثم قهوة المحبة التى يقصدها الآن المعلم خليل ، وتقع على ناصية شارع القبانى وحارة سيدى الأربعين ، وهى تقوم على شبه شرفة عالية ، فيصعد الناس إليها سلماً من اثنتى عشرة درجة ، وهى منتدى التجار من كل صنف ، يتلاقون فيها أو على شرفتها فى الصباح ، وبعد الظهر يقل روادها ، ولكنها تظل مفتوحة إلى منتصف الليل ، لأن هدوءها فى الليل مع قربها من الميدان الكبير يجعلانها أنسب الأماكن لتلاقى شلل الكهول مثل شلة المعلم خليل :

وعندما أهلّ المعلم خليل على المقهى من بعيد ، نظر إلى شرفته فلم ير الشلة فى مكانها المعهود تحت فانوس النور ، فأدهشه هذا بعض الشىء ، لأن الجماعة لابد أن تكون موجودة بكامل هيئتها فى هذا الوقت ..ونظر فى ساعته فإذا هى تقارب الثامنة . فاشتد عجبه ، ولكنه قال فى نفسه إنهم ربما كانوا داخل المقهى ، فهم يأوون إلى داخله إذا أحسوا فى الجو برداً ، وهذه الليلة «طراوة شوية» بالفعل .

صعد السلم على مهل ، ووقف فى شرفة المقهى ، ونظر فلم ير أحداً من الشلة هناك ، ووجد منضدتهم خالية ، فسار حتى دخل المقهى ، وبحث عن زكى القهوجى فوجده مشغولا مع جماعة جلست فى ركن هناك ، فخرج وجلس على كرسى من كراسى المنضدة التقليدية للجماعة ، وخلع طربوشه ووضعه على كرسى آخر ، ومضى يجفف عرقه ، وهو ينتظر أن يأتيه زكى القهوجى ليسأله عما يطلب .

وأقبل زكى فحياه واعتذر إليه عن تأخره ، ثم قال له : لا مؤاخذه يامعلم خليل .. ألم تذهب مع الجماعة ؟ ..

ــ أذهب ؟ .. إلى أين ؟

ــ إلى بيت أمين أفندى راغب : الليلة سنوية المرحومة مراته ، تعيش انت :

– سنوية مراته ؟ الليلة ؟ كيف لم يخبرنى أحد بذلك ؟
– أنت لم تأت إلى القهوة أمس ..

فهز المعلم خليل رأسه ، ورفع يده إلى جبهته ، ومر بالسبابة والوسطى فوق حاجبه وقال :

– آه ... صحيح .. قضيت الليلة الماضية كلها مع الأستاذ أحمد نور المحامى .

وابتسم ابتسامة عريضة ، إذ ذكر انتصاره العظيم . ثم نظر إلى زكى القهوجى فانفجر هذا ضاحكاً وقال :

– الله ! نسيت .. ألف مبروك يامعلم .. اليوم يوم عيد .. والله حفلرم عليك يا معلم .. إلى اليوم لم ينتصر أحد على محمد كامل فى قضية واحدة ، ثم تجىء أنت وتملأ قلبه حسرة على أرض الفرن كلها ! .. فدان أرض فى وسط البلد ، المتر فيه يساوى عشرين جنيهاً ، تأخذها أنت هكذا بالهنا والشفا ! صدق عبد السلام أفندى إن الأستاذ أحمد نور أعظم محامى فى البلد كلها ... .

فهرش المعلم خليل رأسه وابتسم وقال :

– الأستاذ أحمد نور ؟ .. وماذا كان الأستاذ أحمد نور أو غيره يستطيعون أمام الثعبان محمد كامل ؟ .. تصدق بالله يا ابنى يازكى ؟ . . هذه القضية ما كسبها إلا ذراع عمك خليل والتكال على الله .. بيدى هذه كتبت له المذكرات واحدة واحدة .. وهل هناك محام يكسب قضية لأحد ؟ .. المحامون يتقاضون الأتعاب ويلبسون الروب ويقفون فى المحاكم أمام القضاة ، لأن هذه وسيلتهم للرزق .. أما القضايا فيكسبها أصحابها ..

– لكن برضة عبد السلام أفندى اشتغل معك ..

– عبد السلام أفندى يا ابنى يا زكى كاتب المحامى ، يعنى بتاعه ، يخدمه هو ، يخدم رزقه .. وكل يوم والتانى يأخذ جنيهاً أو اثنين ، ولا يكتب ورقة أو يقوم باطلاع إلا بفلوس .. أرزاق يا ابنى أرزاق !

سبحان من خلق الكون ورزق الخلق فيه ...

وسكت زكى لحظة ، ثم قال :

– لابد أن تذهب يامعلم إلى سنوية المرحومة .. الوقت متأخر والإخوان ينتظرونك هناك ..

فتمكر المعلم خليل قليلا ثم قال فى امتعاض ، وصوته يفيض بالشكوى والتألم :

– والله تعبان يازكى يابنى ... الليلة الماضية لم أنم ساعة على بعضها .. سهرت مع المحامى للساعة الثالثة صباحاً . ولم أستطع النوم بعد ذلك .. تعبان ... والله تعبان يازكى ..

ثم بدت على وجهه علائم ملل وضيق شديدين ، ومضى يقول :

– وهذا الثقيل البخيل أمين راغب .. ألم يعجبه من ليالى الزمان غير هذه الليلة للاحتفال بمرور سنة على وفاة امرأته ؟ .. قضية كسبناها بعد خمس سنوات من الحرب مع الغيلان ، فيأبى علينا هذا الثقيل أن نفرح بذلك ويحشر سنوية امرأته الليلة ! والله يا ابنى لاهو أحبها لحظة ولاهى أحبته ، وفى حياتها كان يجلس هنا ، على هذا الكرسى الذى تراه ، ويشكوها ويلعن آباءها أجمعين ساعة بعد ساعة .. وكان فى كل صباح يترك لها نصف ريال للطعام ، ويعود ساعة الغداء ويغضب إذا لم تقدم له دجاجاً .. الدنيا كلها تعلم أنها باعت مصاغها كله لتطعمه هو وأولاده العجول الذين لم ينفع منهم أحد ... ثم يحلو له أن يقيم لها سنوية فى هذه الليلة بالذات ...

فقاطعه زكى قائلا :

– معلهش بقى يامعلم .. المسامح كريم .. أمين افندى راغب صاحبك برضه ، ومراته الله يرحمها كانت ست أميرة وكريمة .. تستطيع أن تذهب إلى هناك فى نصف ساعة ..

– أى نصف ساعة يابنى يازكى ؟ .. إنهم يسكنون فى منشية البكرى .. لكي أصل إلى هناك أحتاج إلى ساعتين ، وأنت أعرف بالمواصلات ..

وفكر قليلا . ثم أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة ومضى يقول فى عصبية وغضب :

— ولماذا لم ينتظرونى ؟ ..

— والله كانوا كلهم قد نسوا الموضوع ، وتجمعوا هنا على العادة حوالى الساعة السابعة . ثم جاء إبراهيم ابن أمين راغب بسيارته وأخذهم كلهم معه ..

— ونسرنى طبعاً . . لقد تعمدها إبراهيم .. طبعاً ، إنه لا يحبنى لأنى لا أعهد إليه فى قضاياى .. والله مادفع من ثمن هذه السيارة إلا خمسين جنيهاً ، وصاحبها يجرى وراءه من ستين .. كل عيشته حرام ؛ وأنا لا أركب سيارته هذه أبداً ..

— يعنى .. لن تذهب ؟ ..

— لا ياابنى .. البيت بعيد والمواصلات صعبة والليل متأخر .. ثم إنهم لابد آتون بعد قليل .. السنويات لا تدوم أكثر من ساعة أو ساعتين

— والله أظن أنهم سيتعشون هناك ..

— أمين راغب يعشيهم ؟ .. كم أنت متفائل ! .. غير ممكن .. وحياتك ماهو إلا فنجان القهوة السادة ولا زيادة .. هات لى القهوة هات . . لعن الله من يسأل عنهم أو ينتظرهم .. كنت آتيا الليلة على نية الاحتفال معهم بكسب القضية ، فأراد لهم وجه النحس أمين راغب أن يذهبوا إلى محزنة .. فى داهية ! .. فى ستين داهية كمان ! ..

ولم ينتبه وهو يتكلم — إلى أن زكى القهوجى مضى ليأتيه بالقهوة ، فمضى يتكلم وحده ويسب أصدقاءه ويلعن آباءهم ، لأنهم ضيعوا عليه فرحة الاحتفال والسعادة بالنصر العظيم .. وكلما ذكر أمين راغب ازداد غضبه وأطلق لسانه فيه بكل جارح مهين من الشتم والسباب .. وقد كان كاذباً حينما زعم لزكى أنه متعب . فالحق أنه كان يشعر بالعافية تتدفق فى جسمه كأنه حصان شاب . كان الفوز بالأرض الواسعة ثم الغداء الطيب والنوم العميق .. كل هذه كانت قد رجعت به سنوات إلى الوراء وملأت قلبه

غبطة .. وأتى زكى بالقوة ، فأخذ المعلم خليل يرتشفها فى بطء وتلذذ ، ونسائم الليل الطرية تصافح وجهه وهو جالس فى ركن شرفة المقهى العالية تحت مصباح النور ..

* * *

ومضت ساعة أو نحوها ، والمعلم خليل جالس ساكن فى ركنه ينظر إلى شارع القبانى تارة وإلى حارة سيدى الأربعين تارة أخرى ، كأنه ملك عظيم يتأمل رعاياه . كان الوقت فى أواخر يونيو ، وهواء القاهرة يهب دافئاً ثقيلا ، تختلط به بين الحين والحين نسمة بحرية منعشة ، كأنها نفس رقيق ينبعث من فم ملاك رحيم ..

ولم يكن فى الشرفة غيره . كان هناك ثلاثة رجال على منضدة بعيدة ، جلسوا ساعة شربوا أثناءها قهوة وتهامسوا ، ثم مضوا .. فأتاه زكى بقهوة أخرى ، فمضى يشربها فى صمت شامل شعر معه كأنه وحيد على وجه الأرض . كانت الرجل قد سكنت فى الشارع والحارة تماماً ، واستغرق المعلم فى أحلام المبانى والعمارات ، والفيلا التى على سطح ثمانية أدوار بالحديقة والزهور والأشجار .

رفع المعلم رأسه ونظر إلى فانوس النور . إن علاقته بفانوس النور تعود إلى أيام طفولته .. كانت مصابيح الغاز — فى تلك الأيام — جديدة فى القاهرة ، وكان هو وغيره من الصبيان إذا أقبل المساء يطوفون شوارع الحى وحاراته ، خلف ذلك الرجل الطريف الذى يلبس بذلة وعمامة ويسير حافياً ، وفى يده عصا طويلة فى آخرها شعلة يوقد بها مصابيح الغاز بعملية فنية عجيبة ، والأولاد من خلفه عشرات يزفونه مترنمين كأنهم كورس كبير : عفريت الليل بسبع رجاين ..

أما اليوم فلم يعد مصباح الشارع هنا غازياً ، بل كهربائياً . كان المصباح يقوم فى صندوق زجاجى قاعدته صغيرة ولكن أعلاه متسع ، وكان زكى القهوجى يحرص على تنظيفه وتلميع زجاجه كل يومين ثلاثة ،

لأنه كان كأنه جزء من القهوة . ولكن الليل لا يكاد يهبط ويتلألأ نور المصباح حتى تسرع نحوه عشرات من الفراشات من كل حجم ونوع ، وتأخذ فى الدوران حوله والهبوط عليه كأنها بشر يقومون برقصة طويلة حول صنم .

وكان المعلم خليل ينفق وقتاً طويلا وهو جالس مع أصحابه يتأمل هذا المشهد الذى لا ينتهى ، ويتعجب من أمر هذه الفراشات التى تتزاحم على فرجة صغيرة بين المعدن والزجاج ، ولا تزال الواحدة منها تحشر نفسها فى الفرجة شيئاً فشيئاً . حتى تفضى إلى داخل الفانوس فتندفع نحو المصباح الكهربائى الملتهب فتلسعها حرارته ، وتجد نفسها فى حرارة خانقة حارقة فتمضى تدور وتدور مصطدمة بزجاج الفانوس فى كل حركة .. وبعد دقائق تكون أطرافها وأجنحتها قد احترقت .. ويخنقها الهواء الساخن ، فتدور دورات قليلة مخبولة مترنحة ثم تهوى على جثث أمثالها فى قاع الفانوس ، مفسحة المكان لأخريات فى مراحل شتى من دوران الموت الرهيب هذا ..

هذا المشهد رآه المعلم خليل عشرات المرات . ولكنه يتأمله هذه الليلة فى هدوء وانتباه كاملين . فقد كان وحيداً ، ثم إن عدداً من فراشات كبيرة الحجم صغيرة الأجنحة كان يتزاحم فى عنف وعصبية على الدخول من ثقب الموت .. كان يرى الواحدة منها تحاول أن تحشر رأسها فلا تستطيع ، فتطير فى عصبية وتدور دورات : ثم تحاول مرة أخرى ، ثم تطير فى غضب أكثر ، ثم تعود .. وتطير وتعود .. وأخيراً توفق إلى الدخول لتهلك فى دقائق فى نار جهنم ؛ بينما تكون غيرها تحاول وتفشل وتطير ، وتحاول وتفشل وتطير .. ساقية موت رهيبة تدور وتدور .

جعل يقول لنفسه وهو يشعل سيجارة : « ما أتعسك أيتها الفراشات المجنونة ! ترين جهنم الحمراء وتتزاحمين على الدخول فيها ! حقاً إنكن فراشات لا عقل لكن ! حتى أنت أيها الفراش الضخم تجاهد كأنك

بعوضة صغيرة لتدخل من ثقب لا يكاد يتسع لرأسك ... ألا تدرى ما ينتظرك إذا دخلت ؟ .. ألا تحس بالحرارة من الخارج ؟ .. إنها نار أيها الغبى .. نار .. ألا تفهم ؟ ..

وفيما هو يناجى هذه المخلوقات المسكينة لمح من بعيد شبحاً أحمر يتحرك فى شارع القبانى . ونظر فإذا امرأة تسير فى خطى متزنة ذات إيقاع رتيب ، ثم تختفى فى بار بنايوتى .

* * *

كانت إحدى نساء هذا الشارع المهجور فى الليل . نساء شقيات ممن تعودنا أن نسميهن بنات الهوى ؛ أولئك اللاتى يسرن فى طريق الغواية بسبب الكسل أو الجهل أو الضياع أو سوء القدوة ، ويجدن أنفسهن بعد سنوات فى وسط طريق طويل ممل بلا نهاية ولا عودة ، فيمضين سائرات ، سائرات ، سائرات حتى يأكلهن الأفق المظلم البعيد ...

كان المعلم خليل يعرف أولئك النسوة ، كان يراهن يسرن فى شارع القبانى الموحش هذا ، ويلتقين هناك بمن يسعى إليهن من الرجال .. كن قليلات : خمساً أو ستاً يرحن ويجئن دون ملل ؛ ومن حين لحين تختفى الواحدة منهن لساعة أو نحوها فى صحبة رجل ثم تعود .. وقد تدخل بار بنايوتى ، وهو محطتهن الوحيدة فى سفر الحياة الطويل ..

كان المعلم خليل وأصحابه يتسلون بالفرجة عليهن ، فمنهم من يتندر عليهن ومنهم من يأسف لحالهن ، وقد تتحرك فى نفس أحدهم الرغبة فى الاقتراب من إحداهن ، ولكن هذه الرغبة تظل مجرد رغبة حتى تموت، لأن عيون الإخوان مفتحة .. وإذا بليتم فاستتروا ..

وكانت عين المعلم خليل قد استقرت — على غير وعى منه — على باب خمارة بنايوتى تنتظر خروج المرأة ، وخرجت وسارت وبصره يتبعها . كانت ترتدى ثوباً أحمر ينم على تفاصيل جسدها — أو خيل إليه ذلك — وكانت فى يدها بسيجارة ، وسحابات الدخان تحوم حول

وجهها بين الحين والحين ، ووجد نفسه يهز رأسه فى اشمئزاز ويقول :

ـ أعوذ بالله ! اللهم احفظنا واستر علينا يارب ! دخان وخمر وحياة سوداء .. ربنا يتوب عليكم ...

وتلفت حوله فلم ير أحداً : كان وحده فى الشرفة . من داخل القهوة لم يسمع صوتاً ، ونظر فى ساعته فإذا هى العاشرة والنصف . فى هذا الوقت من كل يوم يجلس زكى مع صاحب المقهى فيتعشيان ويستريحان بعض الشيء ، استعداداً لنوع آخر من العملاء يأتون حوالى منتصف الليل . لا يعرف المعلم خليل أو أحد من أصحابه شيئاً عن أولئك الناس ، لأنه وأصحابه يرحلون عن المقهى حوالى الحادية عشرة .

كان السكون شاملا . فى الشارع الطويل لم يكن هناك أحد ، حتى المرأة ذات الثوب الأحمر اختفت ، ونظر المعلم إلى فانوس النور : كان الفراش الضخم لايزال يحاول الدخول فى الفرجة بين المعدن والزجاج ، ويئس فطار .. وأخذ يدور فى عصبية ، وابتسم المعلم ، ونفث دخان سيجارته وقال :

ـ تمهل قليلا أيها المسكين .. هل تخشى ألا تموت ؟ اطمئن .. ستموت بإذن الله وتشبع موتاً .. ستحترق فى هذه النار التى تترامى عليها .

وخيل إليه أنه يسمع وقع قدمى المرأة من جديد ، فاتجه ببصره فى اهتمام إلى مصدر الصوت ، فإذا امرأة أخرى فى ثوب أصفر . عندما اقتربت من فانوس النور رأى وجهها ، كان أبيض سمينا : وعندما صارت تحت الفانوس رأى هيئتها . لم تكن بيدها سيجارة ولا هى دخلت خمارة بنايوتى ، فظل يتابعها ببصره حتى اختفت فى نهاية الطريق .. واستقرت يده حول ذقنه وأخذ يفركها بأصابعه كأنه يفكر ، وتلفت حوله .. لم يكن هناك أحد .. كان وحده فى الدنيا ..

ونظر فى ساعته : الحادية عشرة إلا عشر دقائق . الإخوان لن يعودوا هذه الليلة ، لن يعودوا قطعاً . لابد أن أمين راغب احتجزهم

للعشاء عنده ليحول بينهم وبين العودة إلى المقهى، فعل ذلك ليتركه وحيداً ليلة نصره العظيم .. طبعاً ، ما كان أمين راغب ليحتمل رؤية الناس يهنئونه بكسب القضية !

وضحك ضحكة صغيرة جامدة كلها مرارة واحتقار .. وسمع وقع قدمين ، فنظر .. كانت المرأة ذات الثوب الأصفر ، تبعتها عيناه خطوة خطوة ، هذه المرة دخلت خمارة بينايوتى . ظل ينتظرها بعينيه ، وارتفع بصره إلى فانوس النور .. الفراش الشقى يوشك أن يدخل .. دون وعى منه شعر بغضب فنهض ، ومد عصاه فى حذر إلى الفانوس حيث كان الفراش قد حشر رأسه ، وجعل يزيحه حتى أبعده ، فطار وأخذ يدور غاضباً .. وجلس المعلم وقال وهو يبتسم :

— وتغضب أيضاً ؟ ! أحول بينك وبين الموت فتغضب ؟ سبحان الله فى طبعك يا أخى .. حقاً إنك لغبى !

وخرجت المرأة ، خيل إليه أنها تنظر إليه من بعيد ، ربما ابتسمت له أيضاً ، وسارت فى طريقها .. ها هى تلتفت إليه وتنظر مرة أخرى . تلفت حوله ، لا أحد . مازال وحيداً .. إنه وحيد مع ذات الثوب الأصفر .. ها هى تبلغ ناصية الشارع وتختفى .. أين اختفت ؟ .. هل تعود ؟ ..

ووجد نفسه يسأل : كم تطلب مثل هذه المرأة ؟ جنيهاً ؟ اثنين ؟ ثلاثة ؟ .. ربما كانت ثلاثة .. مبلغ كبير .. أى غبى يدفع مثل هذا المبلغ فى الشيطان الرجيم ؟ .. ولكن لابد أن هناك من يدفعون . وإلا فكيف تعيش هذه المرأة ؟ حقاً إن الدنيا حافلة بالأغبياء ..

وتأخرت المرأة فى العودة ، ونظر إلى الفانوس . كان الفراش الكبير قد عاد يحاول ، هذه المرة فى تصميم بالغ .. فمضى يتأمله ، ثم هز كتفيه وقال فى نفسه : ماذا أفعل لك ؟ .. لابد أن تموت محترقاً .. ربما كان هذا قدرك .. من يدرى ؟

وتوقف لحظة ، ثم استرسل يقول : وماذا تهم ثلاثة جنيهات أو

أربعة مادام الإنسان يملكها ويستطيع أن ينفقها ؟ .. أو حتى خمسة .. ما الضرر ؟ .. لقد كسبنا اليوم بضعة ألوف .. الأرض ١٨٤٠ متراً .. المتر بعشرين جنيهاً على الأقل .. يا له من مكسب عظيم ! ستة وثلاثون ألف جنيه وكسور ! .. خمسة جنيهات ؟ .. وما هي خمسة جنيهات ؟ .. لقد كنت مستعداً لإنفاق عشرة جنيهات على هؤلاء الخنازير الذين تركوني وحدى ! .. لا .. لن أكون وحدى .. يقولون إن أولئك النساء لهن غرف جميلة أنيقة مفروشة بسجاجيد غالية وفيها أسرة عريضة وستائر من الحرير .. هكذا قرأ فى قصة نشرتها إحدى الصحف ..

واسترسل مع أفكاره : هذه القصة تحدثت أيضاً عن الأمراض السرية وحذرت منها . قالت إن كل هؤلاء النساء مريضات . وأن من يذهب معهن يخاطر بنفسه . وتحدثت القصة كذلك عن البوليس الذى يتتبعهن ويهاجم أوكارهن ويقبض عليهن وعلى من معهن ويأخذهم إلى القسم .. أى أخطار وأى فضيحة ! اللهم احفظنا ! سترك يارب ! من الغبى الذى يلقى بنفسه فى كل هذه المخاطر ، وفوق ذلك يغرم خمسة جنيهات ؟ ! ..

ونظر إلى الفانوس .. الفراش الكبير على وشك الدخول .. ها هو قد دخل جهنم فعلا .. ياللمسكين ! ها هو يدور ويتخبط فى زجاج الفانوس .. كلما تعب من الدوران حط على الزجاج فتلسعه الحرارة فيطير ويتخبط .. ها هو يترنح ثم يقع فى قاع الفانوس : ويأخذ فى الاحتضار . يستحق ما جرى له ! ها هو فراش آخر يحاول الدخول . . إنه يرى ما يجرى لإخوانه داخل الفانوس ، ولكنه يصر على الدخول .. هذه قسمته وذلك مصيره .

* * *

نهض المعلم خليل ، كانت الساعة بعد الحادية عشرة بقليل . لا أحد فى الشرفة ولا فى الطريق ، إنه وحيد تماماً . أخذ يهبط السلم

فى حذر . لكيلا ينتبه إليه زكى القهوجى . وصل إلى الطريق فى رفق ، ثم أسرع فى سيره حتى انعطف فى شارع القبانى . الشارع خال تماماً ومظلم ، فيما عدا أشعة النور التى تخرج من الخمارة . شعر باطمئنان، وسرى فى جسده تيار من النشوة وهو يتأمل نور الحانة ..

هذا الرجل ارتكب موبقات كثيرة ، ولكنه لم يصطحب قط امرأة من بنات الهوى . لا يدرى لماذا ، ربما لأنه كان — فى قرارة نفسه — يخاف من الذهاب مع امرأة منهن وحيداً . من يدرى ماذا تخبئه أولئك النساء ؟ فى شبابه الباكر وقعت حادثة مروعة لرجل سقط فى هذا الشرك وذهب مع إحداهن ، فى الصباح وجدوه ملقى فى الطريق قتيلا .. وسرت فى جسده رعدة .. ولكن ، ما هذا الهراء ؟ .. ذلك كان زماناً آخر .. أما اليوم فقد تمدنت الدنيا وهناك بوليس وحكومة .

تمهل فى سيره ، ثم توقف على أمتار من الخمارة . عادت إلى ذاكرته القصة التى قرأها عن امرأة من هؤلاء . كاتب القصة يقول إنها كانت — فى قرارة نفسها — قديسة .. قديسة ألقى بها الشيطان فى طريق الغواية . جوهرة فى وحل . لا تقسوا على هؤلاء المسكينات . الكثيرات منهن جديرات بالحب والرحمة . إنهن يبحثن عن الحب فى عالم بلا حب . عطاش فى صحراء بلا ماء .. ولهن فتنة لا تعرفها الزوجات . ترى ما معنى ذلك ؟ .. لهذا يجرى وراءهن الرجال ، ويدفعون لهن بسخاء ..

صدقونى : لسن كلهن شيطانات . الشيطانات هن الزوجات اللاتى يمتصصن دمك العمر كله ، ثم يرثنك أيضاً بعد الموت ! أما هؤلاء فماذا يأخذن ؟ خمسة جنيهات ؟ وما خمسة جنيهات فى مقابل ساعة جميلة ، فى غرفة مفروشة بسجادة حمراء ، يزينها فراش وثير ، وتعمرها امرأة تعرف كيف تعطيك السعادة فى سخاء ؟ .. جوهرة فى الوحل .. الجوهرة جوهرة ، سواء أكانت فى علبة من المخمل أو فى الوحل .. هكذا قال كاتب القصة ..

وهل من الضرورى أن يصاب بالزهرى كل من ذهب مع امرأة كهذه ؟ . . هراء . . والبوليس ؟ ماذا يفعل البوليس ؟ . . مخاوف وأوهام لا محل لها ، وهذه الدنيا لا يفوز بها إلا الجسور . .

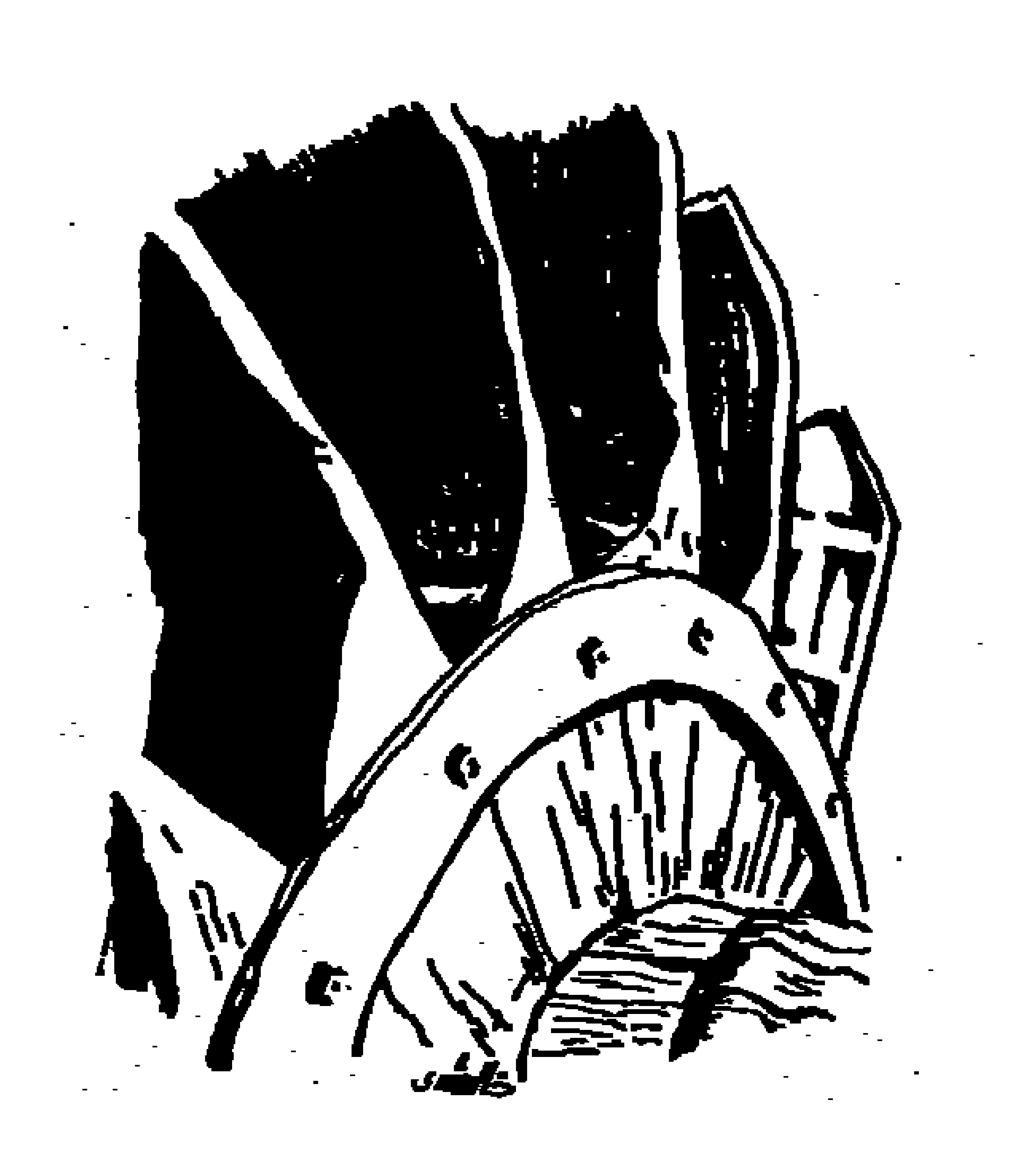
وخطرت بباله الفراشات التى تحوم حول الفانوس . ثم تموت فيه . . وانتبه على وقع قدمين ، فاتجه بصره نحو الحانة . ها هى المرأة ذات الثوب الأصفر تخرج منها ، وفى يدها سيجارة . على ضوء الحانة رأى قسمات وجهها . ما أجملها ! أين منها زوجته سامحها الله ! لقد قضى حياته مع خفير . تحول — مع الزمن — إلى شيخ خفراء . .

وابتسم . وسارت به قدماه — وهو لا يدرى — فى أعقاب المرأة . ما أجمل السيجارة بين أصبعيها ! أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة ، واقترب منها . رأى وجهها الأبيض السمين عن قرب . أعجبه وجهها وشعرها الأصفر المصبوغ ، وملأت أنفه رائحة البودرة المعطرة ، وتسارعت دقات قلبه . .

عندما صار بحذائها كانا قد وصلا إلى ناصية الشارع . دون قصد منه نظر ناحية المقهى ورأى الفانوس . . مازالت الفراشات تدور فى رقصة الموت . .

حياها . فابتسمت . . ودون وعى منه ، مد يده وأمسك بذراعها . . وسارا فى صمت . .

الطـاحُون



كان فى أحلى نومة عندما روّعه « دسوقى شقرف » يهتف به بصوته الأجش الجافى : « صح النوم يا عم عطا ! نوم العافية على بدنك ! »
انتبه عطا بعض الشيء ، وتشبث لحظات بأطراف النعاس ، على أمل أن يكف عنه هذا الثقيل ، ولكن هيهات ! فإن دسوقى ذبابة لحوح يغريها توالى الطرد بتوالى الإقبال ، فهو ما زال يهتف به ويضحك ضحكته الخشنة التى تشبه تدحرج شيء على سلم ، حتى أفاق عطا وفتح عينيه . .
لو كان الهاتف رجلا غير دسوقى لنهض إليه وشفى منه غضبه ، ولكن هذا كان ذا دالّة عليه ، وليس أبغض إلى النفس من ثقيل يتدلل. كان دسوقى حارس محطة سكة حديد الدلتا ، وكان يأتيه بأخبار الناس وصفقات الأرض والمواشى ، وأسرار شون البنوك وما فيها ، واعتماداً على هذه المعلومات وغيرها كان عطا يشترى ويبيع ويكسب ، ورجل كهذا لم يكن هناك مفر من احتمال ثقل ظله وبشاعة هيئته . .

وفتح عينيه شيئاً فشيئاً ، فإذا بوجه دسوقى أمامه كأنه شيطان خرج من قمقم : عينان ضيقتان كأنهما شرخان فى جدار عتيق ، وأنف ضخم منتشر فى وجهه كأنه كوز ذرة ، وشارب كبير أشعث كأنه حشائش طويلة نابتة على حافة بركة راكدة ، والبركة هى فمه الواسع الذى يمتد من أذن لأذن . .

وقال عطا فى هدوء ظاهر التكلف: يا دسوقى يا ابن سليمان شقرف، حرام عليك ! أنت لا تترك هذه العادة السيئة أبداً ؟! رجوتك ألف مرة أن تدعنى فى حالى إذا رأيتنى نائماً . . يا راجل حرام عليك ! أنت تعرف أننى صحوت اليوم من الفجر ولم أذق طعم الراحة إلا الآن..
فضحك دسوقى وقال : « وهل هذا يسمى تعباً ؟ .. صحوتَ من

الفجر ، وطرت إلى دسوق : فخطفت تسعة عشر فداناً بسعر التراب ، ثم عدت إلى هنا ورقدت تحت الجميزة تجترها كأنك جمل بارك . . ومحسوبك الذى همس بالسر فى أذنك وصحا من الفجر مثلك . ووضعك فى القطار ، واستقبلك فى رجوعك كأنك راجع من الحج . ماذا كسب؟ لا شيء ! يلك على الحلاوة فإن قطار الساعة السادسة على وشك المجيء، والعيال ينتظرونني والبركة فيك . . عند وصولى إلى دسوق سأقرأ لك الفاتحة عند مقام سيدى الشيخ إبراهيم .. شيء لله ياسيدى إبراهيم يا بو الكرامات .. »

فاغتصب عطا ابتسامة باهتة . ودس يده فى جيب معطفه ومضى يبحث عن شيء يسكت به هذا اللحوح ، ولكن هذا هز رأسه وهو يضحك : « لا والله يا أبا المعاطى ! لا آخذ من هذا الجيب أبداً . . دعك من جيب الفكة والبرونز هذا، وسم بالرحمن ودس يدك فى صدرك وأخرج المبروكة الدافئة ، حافظة الورق الجميل الأحمر والأخضر . . ورقة بعشرة، وحياة المحروسين . بارك الله فيهم وفى العزب والعمارات .. »

ونظر إليه عطا نظرته إلى حية خبيثة نهضت برأسها أمامه . يفكر فى قتلها ، ولكن لا يدرى كيف . وهو بعد ذلك لا يجرؤ على أن يرفع يده إليها بشيء ، خشيه أن تعاجله . وتمالك نفسه، مرغماً لا بطلا، وقال وكأنه يسترحم :

— شوف يا دسوقى ، أنت دائماً تنظر إلى ما عندى كأنك تحسب أن عندى ألوفاً. والله ما اشتريت اليوم ولا بعت . عندما وصلت ووجدت السخاوى قد طبخ الطبخة ، وأكلها بليل ، ضحك على الأرملة واشترى الفدادين بربع ثمنها ، ودفع ألف جنيه عربوناً ، وأخذ توقيع هذه السمينة الملعونة ، وأشهد أخاها بعد أن دس فى جيبه عشرة جنيهات .. ضاع على كل ما كنت قد أعطيته للسماسرة زبانية جهنم ؛ وعدت بخسارة لا تقل عن خمسين جنيهاً . . هذه نصيحتك يا سيد دسوقى . ولا أدرى هل تستحق عليها حلاوة أم سماً ؟ ..

فقال دسوقى : يا عم عطا .. أنت سيدى وتاج رأسى ، ولحم أكتافى من خيرك . ولكنى لست مغفلا .. السخاوى اشترى لحسابك ، لأن الأرملة أقسمت ألا تبيع لك ، اشترى ثم باع لك ، وتغديتما كباباً عند المهيلمى ، وأثناء الغداء تم التحويل.. إننى لست عبيطاً يا عم عطا .. إن ورائى صبية وبناتاً وأمهم وأنت تعرف ، وحرام أن تظلم مسكيناً مثلى يعيش من جود الكرام أمثالك . .

فابتسم عطا دون أن يبدو عليه شىء من الخجل ، وقال : حقاً إنك شيطان .. بماذا أقسم لك لكى تصدقنى ؟ .. حقاً تغديت مع السخاوى عند المهيلمى ، ولكننا لم نتفق .. إنه طماع دنىء ، ولا أدرى كيف سأستخلص البيعة منه ..

فقال دسوقى : أنتم أكابر ياعم عطا ، طول عمركم هكذا : ديوك تتشاجر . ولكنكم فى النهاية لا تنامون إلا أحبة .. إذا لم تأخذ منه هذه الصفقة عوضك عنها بخير منها ، والمال — كما يقولون — نسب .. إنما المساكين هم أمثالى ، كلاب تلهث وراء عظم ، وليتها تناله ! .. هات ياعم عطا هات ، قرش تعطيه لمسكين مثلى ينزل بركة عليك وعلى أولادك .. سم بالله وأخرج المبروكة وناولنى الورقة ذات المئذنة ، ووالله إذا لم أحصل عليها الساعة فلن ترى وجهى أبداً ، والله الغنى عن شغلة الهباب والشحاذة هذه ! .. عيب ياعم عطا .. نحن رجالك ، وخدمك ، وكلاب صيدك ولا بركة لنا إلا أنت ..

وسكت عطا وأحنى رأسه كأنه يفكر ، ثم رفعه ، ورفع طربوشه عن رأسه ودعكه بمنديل كبير ذى ألوان باهتة ، ثم وضع المنديل على رأسه ، وأرسى الطربوش فوقه ، وتدلت أطراف المنديل من كل ناحية فأخفت عينيه ، ثم أمال رأسه إلى الوراء وأغمض عيناً ورفع وجهه نحو دسوقى وقال :

— عشرة جنيهات يادسوقى؟..عشرة؟..لو أنك بعتنى البنك الأهلى ما دفعت لك فيه هذه السمسرة ، فكيف بصفقة هزيلة كهذه؟..وياليتها تمت!

وأدرك دسوقى أن المعركة بدأت ، وعطا لا يدفع قرشاً فما فوقه إلا بمعركة ، فهذا الرجل — عطا — فرع من شجرة عنيلة ترى أن الحياة أخذ فقط ، أخذ بلا عطاء .. بهذا جمع المال وكلسه . وبهذا وحده يشعر بطعم الحياة ..

وكانت طريقة دسوقى فى كسب المعارك من عطا هى الكر والفر ، أى التهديد ثم اللين ، الهجوم ثم الارتداد ، والتظاهر بالغضب ثم التذلل ، مرة بعد مرة حتى يسأم عطا ويمل ، ويعطيه شيئاً تخلصاً منه وهرباً من صوته الشنيع ووجهه الأشنع ..

وقد طال الكر والفر هذه المرة ، واستمات عطا فى الدفاع عن قروشه ، واستهلك دسوقى فى الحصول على أقصى ما يستطيع : صاح وهدد ورجا واستعطف وبكى واستبكى ، ولم يفز بعد ذلك الجهد إلا بجنيهين ، أخرجهما عطا من جيبه وكأنه يخرج الروح . وقال دسوقى وهو يدسهما فى جيبه ويمسح عرقه :

— يا هوه ! لعن الله حياة تلجئنا إلى هذا كله ! اللهم تب علينا من هذا الشقاء والنكد ! نلطم على الألوف ويبخلون علينا بالملاليم .. هذه آخر مرة أدلك فيها على شىء ، إن خدمتكم حرام ومالكم حرام .. اللهم احفظنا يارب ! ..

وتركه عطا يقول مايريد . أغمض عينيه نصف إغماض ، وتصنع أنه يحاول العودة إلى النوم ، وشعر بالسرور يغمر نفسه ، فقد تخلص من دسوقى بأيسر الخسائر ، ولم يكن يضيره بعد ذلك أن يشتمه دسوقى أو يطيل عليه لسانه ، ذلك أهون بكثير من دفع مليم . وقد علمته التجارب أن أمثال دسوقى يحصلون على أقل جزء من أتعابهم نقداً والباقى شتائم يفرجون بها عن صدورهم ، فكان يأذن له فى أن يتمتع بسبه وشتمه كيف شاء ..

وعندما ابتعد دسوقى تحسس عطا صدره ، فسمع همس وثيقة الشراء

المطوية فى جيب الصدار الأيمن تحت الجلباب . وأحس بالدفء يغمر جسده كله . فقد كانت صفقة عظيمة حقاً استخدم فيها ذكاءه كله . فقد كان منافسه السخاوى قد اتفق مع أرملة بلهاء على أن تبيعه تسعة عشر فداناً بسعر زهيد . وأعطاها مائتى جنيه مقدماً . ولكنه لم يوقع عقداً . وأبلغه دسوقى الخبر . فبكر بالذهاب إليها حاملا أسورة من الذهب دفع فيها تسعة جنيهات . وما زال بالمسكينة يحاورها حتى زادها خمسة جنيهات فى الفدان . وأسرع فأتى بصديق له محام ووقع العقد . ودفع ٥٠٠ جنيه .

وأقبل السخاوى بعد ذلك وعلم بما حدث . فثار وسب وشتم وهدد . ولكنه لم يجد بداً من أن يسترد مادفع وينسحب داعياً على عطا بألا يبارك له الله فى تلك السرقة التى سرقها، وأقسم ليبذلن من جنيه إلى ألف لكى يفسد هذه الصفقة . واجتهد عطا فى أن يسترضيه، ودعاه للغداء مع المحامى . وتغدوا معاً غداء أعداء. وكان هذا حالهما معاً : يتحاربان أبداً . ولا يفارق أحدهما صاحبه أبداً . .

وفى أثناء الطعام عرف السخاوى أن العقد لم يسجل بعد. كل ما يثبته ورقة حررت فى بيت الأرملة، وهى تلك التى يحتفظ بها عطا فى صدره . ولو ضاعت منه قبل أن يسجل فى المحكمة فكأنه ما اشترى ولا باع . .

ولم يكد الغداء ينتهى . ويسرع عطا إلى القطار . حتى مضى السخاوى إلى هذه البلهاء وأمضى ساعة يحاورها . وخرج من المساومة باسماً راضياً عن نفسه . وأسرع إلى بيت كئيب فى حارة مظلمة . بيت من هذه التى تحوم حول أهلها الشكوك . ودق الباب وهو يضحك . .

* * *

وصفق عطا بيديه . فسمعه عامل المقهى المتنقل وهتف : أيوه حاضر! حاضر يا حاج . القهوة السادة والماء المثلج بماء الورد . . حاضر!

ولم يكن مقهى ، وإنما عربة صغيرة يجرها هذا المسكين من مكان لمكان . عربة صغيرة ، ولكنها كأنها بوفيه عظيم : القهوة والشاى والقرفة والجنزبيل وللعسل والتنباك والجوزة والنارجيلة والكيف وسجاير الملكونيان وكوتاريللى الممتاز ودخان اللف وورق البفرة وسجائر هوليوود وو ينجز وبلمونت ودخان المضغه والكوكاكولا وأختها البيبسى وبنات عمها من زجاجات البرتقال والليمون والكازوزة الراقدة فى الثلج . وشىء من الطعمية والخبز والملح والفلفل والشطة والترمس ، ثم قلتان عامرتان بماء الترعة الدسم الذى يشد ظهور الرجال ويقوى الأوصال . .

وبينما كان عطا يرشف القهوة . كان القطار الصغير قد وصل يجرجر وراءه عرباته الأربع . ويستقر بها فى المحطة الهزيلة التى لا تزيد عن كوخ خشبى كأنه دولاب ملابس ، ومظلة من خشب ناءت تحت ثقل السنين وهموم الزمان . ووقف القطار ينفخ ويلهث ، ونزل السائق يبحث عن جردل الماء ليطفئ ظمأ القطار . .

وهبط أربعة أو خمسة يحملون القفف وربطات الملابس والأقفاص ، ثم صفر القطار مرتين أو ثلاثاً . ونفخ وسعل ، ثم تحرك يجرجر عرباته الأربع بكل ما فيه من جهد . وسكن المكان شيئاً فشيئاً . وعاد عطا إلى النوم . .

* * *

يقولون فى بلدنا إن الثعلب لا ينام نوماً متصلا أبداً ، وإنما هو يغفو دقيقة ويصحو دقيقة ، حتى لتستطيع أن تضبط ساعتك على ذلك . ويزعم الأستاذ زكى مدرس الألعاب فى المدرسة الابتدائية : أن الثعلب فى هذه الناحية أضبط من الكرونومتر . .

وسواء أصدق هذا عن الثعلب أم لم يصدق ، فهو صحيح بالنسبة لعمنا عطا ، فقد كان آية من آيات الذكاء واليقظة ، وإن لم تدل هيئته على ذلك ، فقد كان سميناً محتقن الوجه ضيق الجبهة ، حتى ليكاد شعر رأسه أن يتصل بحاجبيه الكثيفين . .

وكان يبدو دائماً وكأنه نائم ، ولكن عينه لاتكاد تغفل . نهض بنفسه من « نفر » إلى « مقاول أنفار » : إلى وزان فى الأسواق ، إلى تاجر ماشية ، وعلم نفسه القراءة والكتابة ، وعرف البنوك والحسابات التى تجرى والأخرى التى لا تجرى . فتراكم عليها الأرباح كما يتراكم اللحم على البقر الذى يربط ليتهيأ لسكين القصاب .

كان من أولئك الذين أعطاهم الله موهبة صنع المال : أولئك الذين يتمتعون بحاسة خاصة تعرفهم أين يوجد المال ، وكيف يؤخذ ، وكيف يستغل ويحبس فلا يرى النور : أولئك الذين لا يعرفون من لذاذات الحياة إلا لذة واحدة : جمع المال وتثميره وحبسه وتأمله من بعيد كما يتأمل الوثنى صنمه ، ثم التفكير فيه وتسريح النظر فى أرقامه ، كما يسرح العاشق النظر فى سطور بطاقة معشوقته .. ثم يخلفونه بعد ذلك لينفقه أبناؤهم المحرومون ، فى سفه وغيظ ورغبة فى التضييع ، كأنها لون من الانتقام من الأب البخيل الملق المكدود ..

وقد ورث عطا تلك الشهوة عن جده ، وكان آية فى البخل والتقتير ، ولكنه لم يجمع — برغم ذلك — شيئاً ، لأنه كان سيئ الحظ : جمع المال وعدّده ، ثم ابتلاه الله بزوجة متلافة ، تزوجها على كبر واستهلك فى عشقها واستهلكت فى إتلاف منزله ، وصرفته عن العمل والسعى ، فما هى إلا سنوات حتى نفد ماعنده ، وغاضبته المرأة وانصرفت ، وبقى مع الشيخوخة والفقر والحسرة ، وهذا الغلام عطا ، وكان أبوه قد توفى ونشأ يتيما فى حجر الشيخ المسكين ..

وتحول الشيخ إلى فيلسوف ، كما يحدث للكثيرين من الفاشلين ، يجرى لسانه بالحكمة عن أساليب جمع المال والحفاظ عليه . ولم تكن له فى ذلك إلا قاعدة رئيسية : البعد عن المرأة .. كان يقول : إذا دخلت المرأة من الباب خرج المال من الشباك .. ما يجمعه الرجل بكده فى سنة تنفقه المرأة بخفقة رمش ، فى لحظة .. لا يجتمع مال وامرأة أبداً..

حذار يابني من النساء ، إذا وهبك الله مالا فإن النوم لا يواتيهن وفي البيت مال .. إنهن حليفات الفقر والفقراء ، لا يستمتع بهن إلا الفقراء .. وماذا يأخذن من التراب ؟ .. لا تصدق أنهن يعشقن الغني . ذلك كذب .. لو تزوجن غنياً لم يكن لهن هم إلا إضاعة ماله.. الفقر هو معشوقهن وسيدهن..لكل شيء طاحون يجعله تراباً..وطاحون الرجل امرأة.

نشأ عطا وفي نفسه هذه العقدة من النساء .. وكان قد تزوج في أيام الفقر ، فلما بدأ المال يتجمع لديه فكر في طلاق زوجته : ثم أراحها الله وأراحه فماتت وخلفت له أربعة من البنين وبنتين ، فاستقدم أختاً له كانت أرملة لتقيم له شئون البيت ، ومضى بعد ذلك يخوض معركة المال وهو محمي الظهر آمن .

غير أنه – برغم اجتهاده – لم يستطع أن يقتل المرأة في كيانه تماماً . في ركن من أركان النفس الإنسانية ، التي تشبه أعماق بحر مظلمة لايدرى ما فيها غير خالق الكون سبحانه ، وبين شعاب هذه الأعماق ، رقدت المرأة كأنها قوقعة ، إذا هاج ماء البحر ماجت وطفت على السطح فأرقته أرقاً شديداً ، حتى إذا مرت العاصفة وسكن الماء عادت القوقعة إلى الشعاب واستكنت ، وساد السلام ..

وهذه القوقعة – فيما يبدو – راقدة في شعاب كل نفس ، وهي لاتزال تطفو وتهبط حتى يتخطى الإنسان من مراحل العمر ما يجعله في مأمن من العواصف ، عندما يهبط عليه شتاء العمر الطويل ، وتثلج المياه وتموت القوقعة في الأعماق . وكان عطا لا يزال بعيداً عن عصر الثلوج هذا ، وكانت قوقعته لا تزال تطفو ..

وأكثر ما تطفو هذه القواقع في أثناء النوم ، عندما يهبط على النفس ظلام الموت الأصغر ، وتأمن القواقع والأصداف ونجمات البحر وجنيات الماء فتبارح شعابها وتسبح . وفي اليابان يقولون إن المحارة عندما تكبر اللؤلؤة في جوفها ويشتد كربها منها تطفو على السطح في الليالي المقمرة ،

وتتفتح : فيذيب ضوء القمر اللؤلؤة وتتحول إلى جنّية .

ولم يسمع عطا بذلك . ولكنه كان يشعر — على أية حال — بأن الليالى القمرية الساجية تُخرج من أعماق نفسه جنية ساحرة ذات صورة واحدة لا تتغير ،فهى بيضاء مليئة. ذات عينين سوداوين وأهداب طويلة. وشعر طويل متموج غزير لونه فضة وذهب ، وهى تسبح فى الماء تحت ضوء القمر . وهو يمضى نحوها هاتفاً بها ، فإذا مد إليها يده ليلمسها انتهى الحلم وأفاق . .

صورة غريبة لا يدرى من أين استقرت فى نفسه ، ولكنها — فى الحقيقة — أتت من « ألف ليلة » . . فإن صاحبنا عندما تعلم القراءة والكتابة ، نصحه صديق بأن يقرأ ألف ليلة على سبيل المران ، فقرأها بالشغف الذى قرأناها به جميعاً . وفى أثناء القراءة هربت هذه الجنية من صفحات الكتاب واستقرت فى نفسه . .

وعلى طول العصور الوسطى كانت جنيات ألف ليلة يهزبن ويكمن فى بحار نفوس أجدادنا . فنهم من اجتذبته الجنية إلى الأعماق فذهب ولم يعد . ومنهم من خرجت له من مياهها وعاشت معه على وجه الأرض. هكذا كنا نسمع ، والله سبحانه أعلم . .

وقد مضت هذه العصور ، ولم يعد من الممكن أن يغوص عطا وراء جنيته أو يستدرجها إلى الشاطئ ، ولم يبق له — ولا لغيره — إلا أن يقنع برؤيتها فى عالم الأحلام لحظات قصاراً ، ثم تعود القوقعة إلى الشعاب ويعود السكون . .

* * *

ولا يدرى عطا ما الذى حرك مياه نفسه فى هذه الساعة من الغسق ، فإن اليوم كله كان ثقيلا متعباً : رحلة مبكرة فى قطار الدلتا الكسيح ، وحديث متعب مع أرملة مترهلة لا يوحى منظرها بأى شىء له علاقة بعرائس الماء ، ثم مناقشة سقيمة مع للسخاوى ذى الوجه الكالح الذى

تذكره تجاعيده بحصير عتيق فى مسجد. وغداء ثقيل حضره معهما الأستاذ كامل المحامى ، وجلسة طويلة لتحرير عقود ودفع نقود . .

وانتهى ذلك كله بوجه دسوقى بن شقرف وغرم جنيهين . وليس فى هذا كله ما يوحى بحلم جميل . . ولكن النفس الإنسانية سر هائل . فهاهى العروس تطفو من عالم الباطن ، وتنظر إليه بعينى السحر . وتبهر عينيه بوجهها الأبيض الناصع وشعرها الفضى الذهبى . وهى تبتسم له وتلقى إليه تحية . وتمد له يداً كأنها شعاع من نور . وهو يبسط كفه التى تشبه خف الجمل ويضمها على كف كأنها ريش نعام . .

وفى لحظة الهناء هذه يوقظه عامل المقهى المتنقل الثقيل : تريد الجوزة الآن يا معلم ؟ . . وكاد يخطف الجوزة من يده ويضربه بها ، ولكن رائحتها هدأت ثورته ، فتناولها بيد كسلى . ومسح مبسمها بيده، وتناول من عامل المقهى كوباً من الماء ، فتمضمض بالماء ثم مجه . وطلب فنجاناً ثانياً من القهوة ، ومضى يدخن الجوزة فى هدوء . ويده اليمنى تتحسس صدره من يمين ليطمئن إلى وجود العقد . ثم من يسار ليطمئن على أن حافظة النقود فى مكانها ، منطوية سبع طيات على المائتين وتسعين جنيهاً التى بقيت معه من صفقات النهار . .

كانت الشمس قد بدأت تهبط . وهبت نسمات المغرب عليلة تبعث فى نفسه أمناً وسلاماً ، وأحس أن الوقت قد حان لينهض ويعود إلى بيته فى القرية على بعد كيلو مترين . .

وكانت العادة أن يأتيه غلام بحمار من البيت فيركب ويعود ، ولكن الغلام تأخر هذا اليوم ، فأخرج الساعة ونظر فيها . وتبين أن الوقت لم يستأخر بالقدر الذى حسب ، فالساعة ما زالت السادسة والنصف . أى أنه لم ينعس إلا دقائق . .

وبينما كان يلمس الساعة فى صدره سمع أصواتاً تتحدث ، فنظر صوب الصوت ، ورأى تحت شجرة مجاورة رجلين وامرأة جلوساً يتحدثون .

كان المنظر مألوفاً ، فتحت هذه الأشجار فى مفترق طرق كهذا ، كان القرويون يحبون الجلوس فى عودتهم من المهام البعيدة ، وهؤلاء الثلاثة لابد كانوا فى دسوق هذا اليوم ، لزيارة طبيب أو لقراءة الفاتحة عند مقام الشيخ إبراهيم . وهبط القطار الأخير ، ولكن عطا ــ بغريزة الثعلب فى نفسه ــ وجد أذنه تصغى إلى حديثهم دون أن يدرى .

لم يميز الكلام ، ولكن جرس الأصوات وقع من أذنيه موقع الغرابة : فهو رقيق لين أقرب إلى أن يكون منصورياً أو طنطاوياً ،بل قاهرياً .. واسترعى سمعه صوت المرأة خاصة ، كان رقيقاً ناعماً فيه رنة خيل إليه أنه سمعها من قبل ، فأقبل يصغى بأذنيه معاً .

وإذ هو فى ذلك ، إذا بالمرأة تلتفت نحوه وتطيل النظر إليه ، فوجم وظل ينظر إليها دهشاً . . كأنما عاد إلى الحلم : الوجه المستدير الأبيض ، العينان الحوراوان ، والشعر ؟ هل يمكن أن تكون هنا ، تحت شجرة الجميز ، امرأة ذات شعر فضة ذهب ؟ . .

خلال لحظة قصيرة تحركت المياه الساكنة فى الأعماق ، وخرجت القوقعة من بين الشعاب ، وصعدت حتى طفت على السطح ..

وتلفت حوله ليتأكد أنه فى صحوة لا منام ، وجذب من النارجيلة نفساً طويلا ، ثم نظر صوب المرأة . ما زالت تنظر إليه ، ودون أن يدرى مد يده وحك صدره وسبح فى عالم بعيد . .

ثم رأى الرجلين يتهامسان ، ثم ينهض واحد منهما فيقبل نحوه ويقول :

ــ لا مؤاخذة يا حاج .. نحن غرباء عن هنا . . كنا عائدين مع أختنا هذه فى ذلك القطار المتعب ، كنا فى طريقنا إلى المنصورة بلدنا ، ولكن أختنا أصابها ما لا ندرى ما هو . . أغمى عليها وأطبق صدرها على قلبها ، فاضطررنا إلى مغادرة القطار هنا ، ولو لم نفعل ذلك لماتت المسكينة ، ولا ندرى الآن أين نذهب .. وقد توسمنا فيك مروءة وأصلا ، فهل تدلنا على مكان نقضى فيه الليل ، والصباح رباح ؟ ..

فنظر إليه عطا لحظات ،ثم مد بصره إلى المرأة،ثم إلى الرجل الآخر، وأخذ من الشيشة نفساً ، ثم قال :

ــ ومن أنتم ؟

ــ محسوبك جنيدى مخلوف وأخى إبراهيم ،تاجرا غلال فى المنصورة .

وكان عطا يعرف تجار الغلال فى الوجه البحرى كله ؛ فلم يسمع بهذين الاسمين ، وتحرك الشك فى نفسه ؛ ثم نظر صوب المرأة فإذا بها لا تزال تنظر إليه ، وقرأ فى عينيها شيئاً يشبه الابتسام ، فنظر إلى الرجل الواقف أمامه وقال :

ــ أظن أننى سمعت اسميكما .. هل تعرفان عبد السلام مخلوف ؟ ..

ــ ابن عمنا .. وشريكنا أيضاً ..

ــ هل ترك تجارة الأرز ؟ ألم يكن يملك مضرباً ؟

فوجم الرجل لحظة ، وبدأ وكأنه يبحث عن شىء فى ذهنه ، وقال:

ــ نعم .. لا يزال يملك مضرب الأرز .. ولكنه يشاركنا فى تجارة الغلال . .

ــ غريب ! . .

ثم قال للرجل : تفضل اجلس . .

ودعا بكرسى ، فأتاه به عامل المقهى ،وإذا بالرجل ينظر إلى صاحبه وصاحبته ويهتف :

ــ تعاليا . . فرجها الله بفضله . . تعاليا . .

وأقبل الرجل ومن خلفه المرأة . كانت قد أخذت طرفاً من طرحتها السوداء فحجبت به جانباً من وجهها ، وظلت عينا عطا مثبتتين فيها ،وهى تقترب خطوة خطوة ، حتى وقفت على مقربة منه خلف أخيها إبراهيم . وانتبه عطا إلى أن هذا يمد يده إليه ليصافحه،فأسرع ووقف وصافحه . وجلس إبراهيم على الأرض،وجلست المرأة خلفه . ونظر إليها عطا وقال :

ــ كيف حالك الآن ؟

فأرخت أجفانها إلى الأرض وقالت فى شبه الهمس : نحمده .. أحسن ..

وبدأ يفكر فى حل للمشكلة : ماذا يفعل بهؤلاء الغرباء ؟ .. إن المروءة تقضي بأن يؤويهم ، ولكن الحذر المتأصل فى نفسه ينفره منهم نفوراً غريزياً .. وهذه المرأة تجذبه إليها جذباً شديداً ..

وأحس بشبه عاصفة تثور فى أعماق الماء المظلمة ، وطال سكوته ووجومه ، ثم نظر إلى جنيدى وقال :

ـ الآن يأتى غلامى فأطلب منه أن يبلغ أهلى ليعدوا لكم الضيافة . معذرة إذا لم أستطع أن أقوم بحقكم كما أريد ، فالساعة مغرب وكنت طول النهار بعيداً عن البيت . سيقلقكم عيالى ، وهم كثيرون ..

فقال جنيدى ضاحكاً :

ـ بارك الله لك فيهم ، وبارك لهم فيك .. إن أختى تحب الأولاد ..

ونظر إليها عطا وقال :

ـ عندك أولاد كثيرون ؟

فلم تجب . اكتفت بالنظر إليه ، وقال جنيدى :

ـ لا والله يا حاج ، مات زوجها من سنتين ، وهى لا تريد أن تتزوج ، وقد تعبنا معها . .

ووجد عطا نفسه يهز رأسه ويقول :

ـ خسارة ! . .

وقال إبراهيم وهو يهز رأسه أيضاً :

ـ لا ندرى ماذا بها ! منذ مات زوجها وهى تقول لن أتزوج إلا صاحب النصيب ، وصاحب النصيب لم يأت بعد . .

وبدا على عطا أنه لم يفهم ، أوأن هذا الكلام لم يدخل عقله كما يقولون ، فظل ينظر إلى إبراهيم كالمستزيد أو المستوضح ، فقال هذا:

ـ لامؤاخذة يا حاج . . أصلها منذورة . . نذرتها المرحومة أمنا للشيخ

عراقى . ولىّ بلدنا .. وقد قال لنا خادم مقام الشيخ : دعوها،لا يتدخل أحد منكم فى أمرها . إنها مسيّرة وإن ابن الحلال سيرسله لها الشيخ . .
وقالت المرأة :

— شىء لله ياصاحب المقام .. شىء لله ياصاحب النور .. الفاتحة ياحاضرين . .

وتحركت شفاههم جميعاً بالفاتحة .. ومضى عطا ينظر إلى هذه المرأة الغريبة،ثم نقل بصره إلى أخويها ، ولم يقل شيئاً . وانتبه فإذا غلامه قد حضر يجر حماراً عالياً حسن السرج والزينة .

كان الظلام قد أوشك على الهبوط ، وهو هناك يهبط دفعة واحدة بعد شفق قصير لا يدوم دقائق . وعلى ضوء هذا الشفق القانى . حانت من عطا نظرة إلى المرأة . .

رآها تحسر الطرحة عن رأسها فيبدو من تحتها منديل رأس متعدد الألوان،ثم تحل المنديل فيبدو شعرها وكأنه يتوهج،ثم تعصب رأسها وتعيد الطرحة إلى وضعها. فعلت ذلك فى أقل من دقيقة كأنها تخشى أن يراها أحد ، وبعد هذا ألقت نظرة عجلى على عطا ، فكأنما رمته بسهم . .

ونظر عطا إلى الخادم وقام : هل فى البيت ضيوف ياسيد ؟ ..

— ملآن .. نحو ستة أنفار ينامون الليلة فى « المندرة » .. أصهار العمدة أتوا يخطبون ابنته الثانية . ملأوا بيته وفرق الباقين على بيوت أصحابه ؛ وأنت مدعو للعشاء عنده الليلة .. ليلة كبيرة والبلد مقلوب . .

وظل صامتاً لحظات ، ثم نظر إلى جنيدى كأنه يقول : « ما العمل ؟ » وأحس هذا بحرجه فقال :

— لا عليك ياحاج .. إذا استطاعت أختنا أن تنام مع حريمك نمنا نحن فى الدوار .. ولم يقل شيئاً . كان بطبعه رجلا قليل الكلام . قوته كلها كانت فى ذهنه الذى لا يكل له نشاط . كان يشعر أنه غير مرتاح ، غير مطمئن . .

لقد تعود – إلى الآن – أن يمسك بزمام كل موقف يجد نفسه فيه ، ولكنه لا يدرى مابه هذه المرة . إنه لا يريد هؤلاء الناس ، ربما كان يشعر بشيء من الخوف من ناحيتهم ، ولكن هذه المرأة تشل تفكيره تماماً. إنه يريد أن ينظر إليها دواماً ، ولولا شيء من الحياء لما رفع بصره عنها أبداً ..

ونظر إلى جنيدى وقال :

– الدوار مستحيل الليلة . أصهار العمدة وأصحابه كثيرون : لابد أنه امتلأ بهم الآن ، ثم إن دوار قريتنا لا يصلح لأمثالكم ..

ثم قال مخاطباً الغلام :

– ما العمل يا سيد ؟ ..

– هناك غرفة الطاحونة ... ننظفها ونفرشها ويدخلونها قبل أن يتذكرها العمدة ..

ولمعت عينا عطا . كانت هذه الطاحونة ملكه . كان قد حازها بإحدى حيله بربع ثمنها ، فنفر منه القرويون وحرموا الطحن فيها ، فوقف سوقها رويداً رويداً ، ولم تعد تطحن إلا غلاله وغلال بعض أصحابه ، وأصبحت كالمهجورة معظم الأيام ، وكانت تقع فى الطرف الجنوبى للقرية قرب المقابر ، مما زادها فى نظر الناس وحشة ، ولكنها كانت بناء واسعاً فيه بعض الغرف تصلح لإيواء الضيوف النزلاء فى حالات الضرورة ..

ونظر إلى جنيدى وقال :

– لا تؤاخذونا ، قد سمعتم بآذانكم .. كنا نود أن نأخذكم فى البيت ، ولكن ما باليد حيلة . غرفة الكاتب فى الطاحونة لا بأس بها ، وسأرسل لكم فرشاً وغطاء وطعاماً وماء .. سنصل إلى القرية الآن ، ثم يأخذكم سيد إلى الطاحونة ، وسيأتيكم كل شيء هناك ..

فرغ عطا من تحية العمدة وتهنئته ، أنبأه خبر هؤلاء الغرباء ، فنظر إليه طويلا ثم قال :

— .. ثم تزعم أنك رجل نبيه لا يفوتك شيء ..! من أدراك يا أخي أن هذه أختهم .. ؟

ففتح عطا عينيه دهشاً ، ووضع يده على فمه وقال :

— عندك حق يا عمدة .. لم يخطر ببالي ذلك ..

— نرسل خفيراً الآن يأتي بالحرمة لتنام مع الحريم عندى..أو عندك..

— أنا ذاهب إليهم بعد قليل مع سيد ، وسأدعه يعود بها إلى بيتى ..

— ذلك أسلم ، نحن الآن في أيام موالد وأولاد الحرام كثير .

ثم ألمّ ببيته لكي يودع مامعه فى حرز سرى أمين لا يعرفه أحد غيره، ولكنه لم يستطع . كان العمدة قد أرسل ست نساء أو سبعاً ليبتن عنده ، وأقبلت كل منهن ومعها فرقة من العيال والأطفال ، فلم يبق فى البيت ركن هادئ، ثم بحث عن خادمه سيد فلم يجده . فقال لأهله أن يبعثوا به إليه فى الطاحونة ، ومضى إلى هناك ..

كان الليل قد استأخر عندما وصل . وجد السكون مخيماً . كان قد أرسل لهم مع الفرش والطعام مصباحاً غازياً . فأكلوا وأطفأوه وناموا، وكانت الليلة مقمرة ، وعلى الضوء الأزرق الخفيف رأى الرجلين فى غرفة الكاتب يغطان فى النوم ، وبحث ببصره عن المرأة فلم يجدها ،فرجّح أنها نائمة فى موضع آخر .. فخرج وجلس على كرسى خارج الطاحونة لصق الجدار ، وأرسل بصره نحو المقابر يغشيها ضوء القمر الحزين وسكون الأبد .. وأحس بشيء من الخوف، وتمنى لو يصل سيد ليأخذ المرأة ويعود معه ..

وبينا هو فى الانتظار سمع حركة فى الداخل ، وأنصت فإذا وقع أقدام خفيفة تقترب ، ونظر إلى الباب ، فإذا المرأة تقبل وتقف فيه ويقع عليها ضوء القمر ، وبدا له وجهها ناصع البياض تحيط به الطرحة السوداء، ثم أزاحت الطرحة وحلت المنديل وهزت رأسها فانتشر شعرها على كتفيها ، وبدا له منظرها غريباً حقًّا ، ثم حانت منها نظرة فكأنما ريعت، وخطت إلى الوراء وقالت :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم ! ... من أنت .. ؟

ــ أنا عطا صاحب الطاحونة ..

فعادت ونظرت إليه ، ثم ابتسمت وقالت :

ــ لامؤاخذة ياحاج ... حسبتك غريباً ..

ــ ألم تنامى بعد .. ؟

ــ لا .. أشعر بخوف فى هذا المكان ..

ــ ومعك أخواك ؟

ــ إنهما ينامان كأنهما حجران ، ولو قتلنى أحد ما استيقظا ..

ثم أقبلت نحوه وهو ينظر إليها تقترب منه كأنها جنية الأحلام ، ثم جلست على الأرض عند قدميه وقالت :

ــ أنت رجل ابن حلال ... ووجهك كله خير ..

ــ أتيت لآخذك إلى البيت لتنامى مع حرمى .. هكذا طلب العمدة.

فظهر عليها الروع وقالت :

ــ وهل يعلم العمدة أننا هنا ؟

ــ لابد أن يعلم .. وماذا يضيرك فى ذلك ؟

ــ لا أحب العمد ..

ــ ليس فى الدنيا أحد يحب العمد .. ولكن لابد منهم ..

فأرسلت بصرها نحو المقابر ، ثم قالت :

ــ لم آكل شيئاً مما أرسلت .. أمسكنى الخوف عن ذلك .. الآن فقط زال خوفى وأنت هنا .. إننى أشعر بالجوع .. انتظر ..

ثم نهضت فدخلت الطاحونة ، وعادت تحمل «طبلية» الطعام ، ثم عادت وأتت بقلة الماء ، وقالت : تأكل معى شيئاً ..

ولم يفكر فى شىء . مد يده وأخذ يأكل وهى تأكل وتنظر إليه، ثم ناولته قلة الماء فشرب . وجد للماء طعماً غريباً ، ولكنه لم يكترث ، ثم رآها تبتسم فابتسم ، ثم ضحك وضحكت ، وأحس بخدر فى جسمه وخفة

فى روحه . وبشىء يشبه النعاس يطوف برأسه ..

* * *

لا يدرى كم من الوقت مر به على ذلك الحال .. وأفاق على يد تحركه، وتجذبه فى عنف . وسمع صوتاً يهتف :

ــ عم عطا .. سيدى عطا .. انهض .. ماذا جرى لك ؟ ..

وأفاق شيئاً فشيئاً . تبين أن الذى يخاطبه خادمه سيد . وفتح عينيه. أحس أن جسده متخشب من البرد ، وتنبه إلى أنه مجرد من ملابسه غير السروال .. فقال لسيد :

ــ ما الذى جرى ياسيد ؟ أين أنا ؟

ــ أنت على باب الطاحونة ياحاج . نمت هنا طول الليل ؟ .. أين ملابسك ؟ واتسعت عيناه فى رعب ، وحاول أن ينهض ، ولكن ألماً شديداً فى ظهره قعد به ، فعاد يقول :

ــ أنهضنى .. ! أنهضنى .. ! أين هؤلاء الناس ؟

ــ لا أحد هنا .. لا أحد فى الطاحون ..

ــ وملابسى ؟ أين ملابسى ؟

فصرخ سيد :

ــ ياخبر اسود .. سرقوها .. كان من الممكن أن يقتلوك .. سأجرى لأبلغ العمدة ..

وأفاق عطا دفعة واحدة وانتصب قاعداً عندما سمع لفظ العمدة ؛ وقال لسيد ، آتنى أولا بملابسى . أسرع إلى البيت ، وحذار أن يراك أحد . لا تقل إنك وجدتنى على هذه الحالة . لو عرف أحد ذلك قتلتك، أتسمع ؟ أقتلك بيدى هذه .. اجر .. اجر ..

وجرى الخادم ، ووقف عطا شبه عار فى ذلك المكان الموحش . ثم تذكر ما كان فى ملابسه ، فشهق ولطم صدره بيده وصاح :

ــ يا للمصيبة ! ضاعت النقود ، وضاع العقد ..

ثم اندفع كالمجنون داخل الطاحون ومضى يبحث . لم يجد أحداً . ثم خرج وجعل يجرى هنا وهناك باحثاً عن آثار أولئك اللصوص ، دون جلوى ..

وعاد سيد بالملابس ، وريع إذ رأى سيده على هذه الصورة . تناول عطا الملابس ودخل فيها ، ثم جلس على الأرض كأنه حطام ، ونظر إلى سيد وقال : وأنت أيها الحمار ما أخرك ؟ ألم آمرك أن تلحق بى ؟

ــ أتيت ياسيدى فوجدتك جالساً مع هذه الحرمة .. وقد نهرتنى وأمرتنى بالعودة . وكدت تضربنى ...

فضرب كفاً بكف وقال : أنا فعلت ذلك ؟

ــ أجل ، وحياة سيدى إبراهيم ..

ــ وهل قلت لأحد ذلك ؟

ــ لا ، لم أقل ، كانوا جميعاً نياماً ..

ــ قل الحق ياسيد ..

ــ والله ماقلت لأحد . .

ــ أنت تعلم ما سيصيبك لو كنت كاذباً ..

ــ أجل أعرف ..

ثم توكأ على كتف الخادم . وسار كأنه فلول جيش منهزم . فى الطريق استعاد فى ذهنه ماحدث . ضاعت النقود وعقد الفدادين ، ولن يستطيع شيئاً . لن يستطيع حتى إبلاغ العمدة ، فإن هذا لن يفهم إلا أنه أراد شيئاً فوقع فى أيدى اللصوص ، ولو صدقه وبحثوا عن اللصوص وظفروا بهم فماذا يقول إذا زعم الرجلان أنه هم بشىء فضرباه ، وأنهما لم يأخذا منه شيئاً ؟

وعندما رقد فى فراشه محطماً عادت الحكاية كلها إلى ذهنه ، من ساعة ذهب إلى دسوق إلى أن عاد والتقى بالرجلين وأختهما المزعومة .. حورية الماء .. جنية الأحلام .. لصة الطاحونة ! .. وأحس أن الذى

نزل به كان جزاءه حقًّا ،اعترف فيما بينه وبين نفسه أنه لم يكن خالص النية عندما ذهب إلى الطاحونة ليأتى بالمرأة .. ليته أطاع العمدة وأرسل الخفير ليأتى بهذه الشيطانة . .

* * *

فى عقابيل هذه المأساة رقد فى الفراش أسبوعاً — أصابه البرد فى الليلة المشئومة ، علت به الحمى وأحس بالوجع فى عظامه كلها : وفى غمرات الحمى رأى رؤيا غريبة مختلطاً بعضها ببعض : عرائس ماء ، وجنيات نيل ، وضوء قمر ، وأشباحاً مؤتزرة بالبياض وأخرى بالسواد ، ومياهاً زرقاء داكنة ، تعلو وتعلو حتى تكاد تغرقه فيصرخ ويستغيث ، ويهرف بكلام يعجب له كل من حوله ..

وفى بلدنا يقولون : إن علامة شفاء المريض أن يأكل دجاجة : وأكل عطا دجاجته ، وقعد فى فراشه منفرداً بنفسه فى غرفته ، يشرب فنجاناً من القهوة ، ويبتسم ساخراً من نفسه ويقول :

— صدق العجوز ! ما تجمعه بيديك ورجليك فى سنوات : تأخذه حرمة بخفقة رمش ! لكل شيء طاحون يجعله تراباً ، وطاحون الرجل امرأة ! دخلت الطاحون بقدمى ، وها أنا تراب .. أستحق ما جرى علىّ ! يافرحتك ياسخاوى ، يافرحتك ! أتكون أنت الذى دبرت ذلك ؟ ..

حكايـة سِى توفيق



قال فى نفسه، وهو يشتد فى سيره: «لم يبق إلا القليل ثم أكون عند عم رمضان!» . ثم أخرج منديله الأبيض ، ومر به على جبينه وجوانب وجهه ، كأنه يجفف عرقه. ولم يكن به عرق ، فإن الجو كان بارداً فى هذه الساعة الباكرة من النهار ، ولكنها إحدى مستلزمات الأناقة التى يحرص عليها توفيق سالم هذا ، أو «سى توفيق» كما يعرفه أهل الحى ، وهذه الأناقة هى رأس وأساس شهرته ...

ثم انحرف إلى شارع القناوى، فبدت له عربة اليد البيضاء الناصعة التى يبيع عليها عم رمضان بليلته المشهورة... عربة تقوم عليها صينيتان، واحدة يطبخ فيها بليلة القمح ، والأخرى بليلة الذرة، وحول الصينيتين : ومن خلال البخار المتصاعد، رأى توفيق صف الأطباق الصغيرة البيضاء وكوم الملاعق وآنية السكر الناعم ، وجوز الهند المفروم ،واللوز المجروش، وزجاجات ماء الورد والزهر ، وبنات وصبياناً أقبلوا وفى أيديهم الأطباق، أرسلهم أهلوهم مبكرين ليحصلوا على شىء من هذا «البوريدج» المصرى الأصيل قبل أن ينفد، لأن عم رمضان لا يعمل إلا إلى العاشرة صباحاً.

من السادسة والنصف إلى تلك الساعة يكون قد باع ست قدور من بليلة القمح، وأربعاً من بليلة الذرة، يصب القدر فى الصينية ، فإذا فرغت صب الأخرى، والناس تتزاحم ،وتتضارب. نحن الآن قبيل السابعة، ولكن تعال فى الثامنة والنصف مثلاً وحاول أن تفوز بصحن من طعام الجنة هذا ...

وعم رمضان فنان عظيم يعرف قدر ما يعمل. إنه يقف بالفوطة البيضاء الناصعة مدلاة من رقبته ، يغرف من هذه الصينية مرة ومن الأخرى مرة بحساب شديد ، حرصاً على الرحيق المختوم ، وهو يردد فى صوت عال جميل : صلى على النبى ! : صلى على كامل النور .. صلى على اللى يشفع فيك .. وهو يمد صوته بقول «صلى» حتى يسترعى الانتباه .

وإلى جانب الحائط ، وقف فى تلك الساعة الباكرة خمسة أو ستة يأكلون فى صمت ،وفى أيديهم الأطباق الصغيرة ، وعم رمضان ينظر إليهم كأنه يتعجل فراغهم من الأكل ، ليأخذ الأطباق ، ويناولها الغلام ليقوم بغسلها إلى جانبه .

وبين الحين والحين يتوقف عن العمل لحظة ليمسح عرقه المتصبب بالفوطة المعلقة فى رقبته، ثم يعيد فتل شاربه الأسود الضخم المصبوغ ،وربما فتح صندوق النقود وألقى نظرة عجلى تبعث فى صدره برداً وسلاماً ، فمن هذا الصندوق يبنى عم رمضان فى العباسية — كما يقول الناس — عمارة يقولون إنها ستصل إلى عشرة أدوار ..

وابتسم عم رمضان عندما رأى سى توفيق ، فحياه ثم سأله : قمح أم ذرة ؟

ففكر توفيق قليلا ، ثم قال :

— بالأمس أكلت بليلة قمح ..

فقال رمضان وهو يتناول طبقاً صغيراً ، ويضع المغرفة فى صينية بليلة الذرة :

— إذن فاليوم ذرة .. بالهناء والشفاء بإذن الله ..

ومضت يده تعمل .. وضع فى الطبق مغرفتين كاملتين دليلا على احتفاله بسى توفيق ، ثم أربع ملاعق من السكر واثنتين من جوز الهند ومثلهما من اللوز ، ثم أفرغ على ذلك كله قدراً محترماً من ماء الورد ، ثم ناول الطبق لسى توفيق ، مع ابتسامة عريضة . وعادت يده بالقرش ، فألقاه فى الصندوق ، والتفت ناحية أخرى ، ومضى يغرف فى الأطباق ويضع القروش فى الصندوق ..

وأكل سى توفيق الطبق الشهى ، وأعاده فارغاً لعم رمضان وحياه ومضى ، ثم أخرج المنديل الأبيض ومسح فمه ووجهه ، وأعاده إلى جيبه بعناية .. وبعد خطوات انحرف إلى شارع البقلى ومن بعيد بدا له المنزل

الذى يقصده ، منزل الحاج عبد السلام صاحب الدكان الكبير الذى يعمل فيه ، ونظر سى توفيق فى ساعة يده ، فإذا هى السابعة وخمس دقائق ، وابتسم ، فقد وصل فى الموعد كما هى عادته كل يوم ..

* * *

وفى الطريق مر بضريح الشيخ عفيفى . على الجانب الأيمن من الشارع ضريح صغير متواضع بين بيتين عاليين جديدين ، ومن خلفه شىء أشبه بالبيت الخرب. إنه بيت وقف. لا يلفت الأنظار إلى هذا الضريح إلا شباك مغطى بحاجز من حديد علاه الصدأ . هذا الشباك لا يعلو عن الأرض غير ربع متر .

أمام هذا الشباك وقف – على العادة فى كل يوم – ذلك القط المشمشى الكبير – ذو الرأس الضخم . وقف يلعق كفه ويمسح به وجهه – ويحك جلده بأظافره حيناً وبفمه حيناً آخر . عملية ضخمة شاقة تبعث على الإعجاب بهذا الحيوان الصبور ، وكلما مر إنسان توقف القط عن العمل ونظر إليه نظرة كلها ريبة. عندما رأى سى توفيق عاد إلى العمل دون اكتراث لأنه يعرفه جيداً ..

هذا القط المشمشى مقيم فى ضريح الولى ، وهو حارسه . إحساسه كقط هو أن هذا بيته ، والمقام والشيخ ملكه . هنا يعيش من سنوات وقد قضى على كل حشرة أو دابة سولت لها نفسها ولوج هذا العرين . إنه الوحيد فى الدنيا الذى يعنى بأمر الشيخ عفيفى وضريحه ، فقد عدا عليه الزمان وبدأ يختفى فى أطواء النسيان .

ربما كان الشيخ عفيفى مسئولا عن ذلك المصير ، فقد قلت كراماته جداً خلال السنوات العشرين الأخيرة.لم يعد يتولى علاج المرضى أو يتوسط لذوى الحاجات . كانت النتيجة أن أهمل الناس كسوة ضريحه فبهتت وتهلهلت وعلاها التراب ، وقلت الشموع المهداة إليه شيئاً فشيئاً ، ثم تلاشت . وعندما ابتنى الحاج عبد السلام العمارة الضخمة إلى جواره

وارتفعت هذه العمارة ثمانى طبقات . لم يعد للشيخ عفيفى فى الحقيقة وجود وانتهى أمره إلى رعاية القط المشمشى الكبير ...

قرأ توفيق الفاتحة للشيخ فى صوت غير مسموع . ثم وقف أمام بيت الحاج . وتناول اليد الحديدية الصغيرة الممسكة بالكرة ،ودق بها الباب دقتين اثنتين فى غاية الرقة والتواضع . ثم التفت وصعّد النظر فى عمارة الحاج عبد السلام التى ابتناها قبالة بيته ، ثم هبط ببصره إلى مقام الشيخ المجاور لها . ووجد أن القط المشمشى قد فرغ من عملية الاستعداد لجهاد اليوم ، وتمطى ، ثم جلس ساكناً وعيناه تنظران يمنة ويسرة . .

ورفع توفيق يده ليدق الباب مرة أخرى . ولكن يده جمدت على اليد الحديدية الصغيرة الممسكة بالكرة . لأن الباب فتح وبدت أم بهية الخادمة العجوز بوجهها الصبوح الذى يبعث البشر فى النفس . وقد لفت رأسها بطرحة بيضاء أخفت شعرها الأبيض .

ابتسمت عندما رأت توفيق وحيته فى مودة . فدخل ومضى فى تؤدة نحو المندرة القائمة فى الحوش . بينما كانت هى تغلق الباب . قبل أن يدخل المندرة قال : ياساتر ! .. مرتين . ثم دخل . وجلس على طرف كرسى وشبك يديه فى حجره ، وأخفض رأسه فى حياء . ثم أخرج المنديل ومضى يمسح وجهه ..

عندما اطمأن إلى أن أم بهية قد ابتعدت وأخذت تصعد سلم البيت أفرج عن نفسه . فاستراح فى المقعد كله وأسند ظهره إلى ظهره ، ومضى يتأمل الحجرة . بل جرؤ وأخذ ينقر بأصابعه على خشب كرسى مجاور . ثم تحسس بيده شعره وبأصابعه حاجبيه وشاربه . وتبين هنا وهناك بعض الاضطرابات . فأخرج المشط ومضى يسوى ، ثم مرّ بيده ليتأكد من أن الإصلاح قد تم بإحكام . .

ثم أخرج مرآة صغيرة مستديرة ، ونظر فيها ،وأدخل تعديلات طفيفة ، ثم سمع وقع اقدام أم بهية مقبلة ، فأخفى المشط والمرآة ، وأخفض رأسه فى

حياء ، وانتقل إلى طرف الكرسى ، وشبك يديه فى حجره وجلس صامتاً ..

ودخلت أم بهية ، ووضعت أمامه صينية القهوة ، وأفرغت له القهوة فى الفنجان ، وقالت له :

– اشرب يا ابنى على مهلك ... لا يزال الحاج نائماً ، عندما أوقظه سأناديك من الشباك .

ورفع فنجان القهوة وأدناه من أنفه قليلا ليستمتع بعطر القهوة قبل أن يشرب ، ثم أخذ يرشفها على مهل قطرة قطرة .

كان فنجان القهوة هذا هو الجزء الثالث من إفطاره كل يوم . الجزء الأول هو طبق الفول أو البيض المقلى تقدمه له أمه العجوز – وهى كل عائلته – قبل أن يبارح البيت ، والجزء الثانى طبق البليلة عند عم رمضان ، وهذا هو مسك الختام .

إنه شاب بسيط ليس له فى الدنيا إلا أمه ، والعمل الذى يقوم به فى دكان الحاج عبد السلام فى الغورية ، ولا لذة له فى الدنيا إلا الطعام والأناقة التى تعجب العشرات من عميلات الدكان الكبير ، أو المحل كما كانوا يسمونه : الشعر «المسبسب» اللامع المفروق على اليمين ، والشارب القصير المقصوص بحساب ، والقميص الأبيض يزينه رباط الرقبة الحريرى والجاكتة الكحلية المكوية يطل من جيبها منديل حريرى من لون رباط الرقبة ، والبنطلون الرمادى الذى تستقيم كسرته كحد السيف ، وكل هذا يقوم على قاعدة من حذاء نظيف أسود فى الشتاء وأبيض فى الصيف .

ونادته أم بهية من النافذة ، فنهض واقفاً وأعاد مراجعة كل شىء : الشعر والشارب والحواجب ورباط الرقبة ، ومنديل الصدر وكسرة البنطلون التى تهبط كحد السيف ، ثم أحنى رأسه ونظر إلى الأرض فى حياء كأنه «مادونا» ..

وسار على مهل وهو يقول : يا ساتر ! يا ساتر !

وصعد السلم : «ياساتر» !

ودخل الردهة ثم القاعة الوسطى : «ياساتر» !

ووقف قبالة باب حجرة نوم الحاج صامتاً كأنه عابد يلتمس البركات من كاهن الوثن .

كانت الحاجّة وراء الباب ، فحيته تحية الصباح ، ثم مدت يدها فناولته مفاتيح الدكان فى يده . أخذها دون أن يرفع بصره وحيا ومضى .

ونزل السلم ، وعبر فناء البيت ، ثم خرج من الباب وأحكم إغلاقه خلفه ، وأخرج المنديل ليمسح عرقه ، ونظر إلى مقام الشيخ عفيفى . كان القط المشمشى قد اختفى . مضى ودخل معركة اصطياد الطعام . .

وسار توفيق على مهل فى طريقه إلى الدكان . كذا كان يفعل كل يوم . لم يكن له مفر من أداء هذه الطقوس ، لأن الحاج عبد السلام لايثق إلا فيه ، وهو لا ينام فى الليل إلا ومفاتيح الدكان تحت وسادته .

وفى الساعة السابعة صباحاً لابد أن يأخذها بيده من الحاجة . عندما يدق دقتيه الرقيقتين المتواضعتين تستيقظ الحاجة بعد قليل ، فتوقظ الحاج وتستأذنه فى أخذ المفاتيح . يسلمها إياها ، بيده فى يدها ، لتناولها لتوفيق عندما يصعد . بعد هذا يعود الحاج إلى النوم . ينعس ساعة أو نحوها ، ثم ينهض ليكون فى الدكان حوالى التاسعة .

هناك يجد «توفيق» قد فتح المحل ، وتثبت من حضور العمال وأشرف على التنظيف والترتيب ، وبدأت عمليات البيع وسارت سيرها العادى فى كل يوم .

* * *

أثناء هذه الطقوس كلها كان شىء آخر يجرى بنفس النظام . شىء لم يكن لتوفيق به علم ، ربما كانت أم بهية تعرف عنه شيئاً ، ولكن أم بهية بئر عميقة . .

عندما يتردد فى الجو صدى الدقتين الرقيقتين المتواضعتين ، كانت سوسن ابنة الحاج تقفز من فراشها لتتأمل مى توفيق وهو داخل . إنها

تنام مع بهية فى حجرة واحدة، وبهية تستيقظ فى السادسة صباحاً لتبدأ عملها المرهق فى البيت .

ويقطع توفيق فناء البيت وعينا سوسن ترقبانه . كانت تتأمل فى إعجاب بالغ شعره الأسود اللامع المفروق على اليمين، وسوالفه الطويلة التى تنساب على جانبى وجهه بقدر وحساب ، وعينيه اللتين تنظران إلى الأرض أبداً ، والشارب الأنيق الصغير ، والجاكتة المكوية يطل من جيبها المنديل فى هيئة الأهرام ، وكسرة البنطلون تنساب كحد السيف ، ثم المنديل الأبيض يمسح العرق الموهوم ..

ويختفى سى توفيق فى المندرة ، وتظل سوسن فى مكانها حتى يشرب قهوته وتناديه أم بهية ، فتراه سوسن وهو يقطع الفناء، ويختفى فى بئر السلم وتسمع صوته : يا ساتر! وهو يصعد على السلم ..

ثم يدخل باب المسكن ، ويمر على قدر شبر منها ، لأنها تنتقل إلى باب غرفتها ، وتنظر من شقه ، وتشم هذا العطر الغريب الذى يعطر به مناديله . لقد بلغ من إعجابها بهذا العطر أن قطعت السوق كله باحثة عنه ، إنه يسمى « ڤينوس » ..

ثم تراه واقفاً أمام الباب ينتظر المفاتيح ، ويمر بها مرة أخرى، لو أصغى لسمع أنفاسها ، ويهبط السلم فتجرى إلى النافذة، وتودعه ببصرها وهو يغلق الباب خلفه ، فتعود إلى فراشها لتسترسل مع أحلام السعادة مع هذا الأمير الفاتن الجميل ..

هكذا كل يوم .. وراء طقوس تسليم المفاتيح كانت تجرى حلقات قصة حب من طرف واحد ، حلقات متشابهة يتلو بعضها بعضاً مع مرور الأيام . واحدة من أقاصيص الهوى ، التى كانت تدور حول سى توفيق الشاب البسيط المتواضع ، الذى ما كان يتصور أن أناقته وعطر ڤينوس ونظرة الحياء الساهمة الحالمة ، سيكون لها هذا العدد العظيم من الضحايا ..

من حى الدراسة إلى باب المتولى كان سى توفيق موضع الإعجاب

وبطل الأحلام للعشرات .. كلهن كن عاشقات لهذا الأنيق الصغير الحيي : معجبات بالشعر الأسود اللامع المفروق على اليمين والسوالف المرسلة على جانبي الوجه بحساب . والشارب الصغير الأنيق ، والجاكتة ذات المنديل فى هيئة الأهرام ، وكسرة البنطلون الهابطة كحد السيف . وفوق هذا كله : عطر ڤينوس والمنديل الذى يمسح العرق الموهوم ..

كان هذا كله سراً من أسرار الإقبال على المحل. ربما لاحظه الحاج عبد السلام، فهو رجل بعيد الذكاء . وهو يرى البنات يسألن عن سى توفيق ويتحدثن مع سى توفيق ، ويشترين من سى توفيق . ولكن سر سى توفيق هذا عنده ، هو أنه كان رجلا أميناً جداً ، متواضعاً جداً ، لا تسمو به المطامع إلى أكثر من راتب الشهر الذى كان يتقاضاه ..

* * *

ولكن إذا كان توفيق رجلا متواضعاً جداً لا تسمو به المطامع إلى أكثر من راتب الشهر الذى يتقاضاه، فإن مطامع سوسن كانت تسمو إلى أكثر من نظرة من وراء نافذة أو من شق باب .. كانت ابنة مدللة وسط شقيقتين ، وكانت أمها تحبها حباً يفوق الوصف : وكان أبوها يدللها ويبحث عما يفرحها أو يرضيها ، وكان المال بين يديها كثيراً ، والآمال فى صدرها أكثر ، وكان ذهنها الصغير يدور ويدور باحثاً عن طريق إلى هذا الشاب الذى صورت لها سنوات عمرها القليلة – ثمانى عشرة – أنه أعظم وأجمل شاب فى الدنيا . .

بعد تفكير طويل عزمت على أن تذهب إليه فى الدكان. قد يعرف وجهها بعض العاملين فيه ، ولكن الملاءة والبرقع تخفيان كل شىء ، وما أكثر ما يستر الحجاب !

وجعلت ترقب حتى سافر أبوها وأمها للحج ، وخلا لها الجو بعض الشىء ، فتعللت بشىء وأفلتت من أم بهية، وفى منزل صديقة لها لبست ملاءة وبرقعاً ، وذهبتا معاً إلى الدكان ، ووقفتا مع سى توفيق تطلبان

صنفاً بعد صنف ، والمسكين يروح ويجيء ويصعد ويهبط ويفتح أثواب القماش ، ويجتهد فى الإقناع . ثم اشترتا بضعة أشياء ومضتا والمسكين يلهث لكثرة ما صعد وهبط ، وفى الطريق قالت الصديقة ، وكانت فى سن مقاربة لسن سوسن :

— إنك معذورة !

— ألم أقل لك إنه شاب عجيب ؟

— فعلا .. لطيف وأمير ومؤدب . .

— وجميل جداً .. أليس كذلك ؟

ففكرت الصديقه ثم قالت :

— جميل جداً .. ؟ لا أدرى .. المهم أنه رقيق جداً . .

ومضى الحديث بين البنتين على هذا النحو وقتاً طويلا ، وفى منزل الصديقة تركت القماش الذى اشترته وعادت إلى البيت . هناك وجدت أم بهية تكاد تموت خوفاً ، فقد غابت البنت فى الطريق ساعات ، وجرى بينهما نقاش حاد انتهى بأن أكدت الفتاة أنها لن تعود إلى ذلك أبداً . .

ولكنها عادت ، وعادت ، وماذا تفعل خادم كهذه وكلت إليها حراسة صبية ركبها الشيطان ؟ وفى كل مرة كانت تطيل الحديث مع توفيق ، وصاحبتها تتفرج على الأقمشة وتشترى لحسابها ، ثم تخرجان بشيء ضخم من كل لون ، وسى توفيق يتأملهما دون أن يفهم شيئاً . كان يحسبهما بعض فتيات الحى ممن لا يجدن ما يعملن فيزجين الفراغ بالتردد على الدكاكين . .

أخيراً ، وقبل أن يعود أبواها من الرحلة بقليل ، ذهبت وحدها . تعمدت أن تكون زيارتها أوائل بعد الظهر ، وفى وقت تخف فيه الرجل ويقل الناس فى المحل ويهوم بعض العمال على الكراسى . .

وجدت سى توفيق على الباب كعهده ، دخلت وسار وراءها حتى انتهيا إلى قاع الدكان ، ثم طلبت شيئاً ، وأتى به ووضعه أمامها ، وفتحه لتتأمله ، ووقف ينظر إليها فى زهو وسرور ، شأن التاجر يعرض بضاعة

لا يشك فى أنها ستلقى قبولا من الناس ، فوقف متحفزاً بهذه النظرة ليخوض معركة الثمن .

ولكنها ألقت نظرة عجلى على القماش ، ثم تلفتت حولها . لم يكن هناك أحد ، ولا كانت هناك عين ترقب ، فرفعت يدها إلى خلف أذنيها وكشفت النقاب عن وجهها ، ونظرت إليه طويلا وهو واجم ثابت النظر إليها ، ثم قالت :

— توفيق...أنا سوسن بنت الحاج عبد السلام.. اطلبنى من أبى...

وفى هدوء أعادت النقاب مكانه ، وجمعت ملاءتها ، ووقفت ، ثم أخذت طريقها إلى الباب ، واختفت فى الطريق ..

وظل توفيق مكانه واجماً ، جمد مكانه وزاغ بصره . وأحس أنه يفقد توازنه كأنما صدم رأسه شىء هائل ، فأخذت الأرض تميد تحت قدميه، واجتهد فى أن يستمسك ، ونظر فإذا كرسى صغير غير بعيد عنه ، فمد يده فى جهد ، وقربه، ثم جلس . ورآه على هذا الحال زميل له مرقوبياً منه فأسرع إليه ، وقال :

— توفيق .. ! مالك ياتوفيق ؟

وبعد لأى ما ، استطاع أن يجمع نفسه الشاردة ويقول :

— لا شىء .. لا شىء .. !

— مريض .. ؟

— لا أدرى ... أحسستِ بدوار شديد ... الآن أنا أحسن ..

— تريد شيئاً ؟

— شيئاً من الماء ... وفنجان قهوة إذا استطعت ..

ومضى عنه صاحبه ليأتيه بما طلب . لم يكن بحاجة إلى ماء أو قهوة، كل ما أراد هو أن يتخلص من هذا الزميل ويخلو إلى نفسه لحظة. واسترد نفسه شيئاً فشيئاً ، وأخذ يعيد عليها ما حدث ويفكر علّه يفهم .

لم يعد عنده شك فى أن هذه الزائرة الغريبة هى سوسن بنت صاحب

المحل . كان قد رأى وجهها لمحات خاطفة ، ولكنه لم يفهم شيئاً . لماذا تسترت بالملاءة والبرقع وأتت إليه ؟ هل أتت على هذه الصورة مرات قبل ذلك دون أن تكشف عن نفسها؟ هل هى تحبه ؟ أم أنها تسخر منه؟ أم أنه عبث المترفات أمثالها بالمساكين أمثاله ؟ وأتت القهوة والماء وشربهما دون أن يدرى ، وإن كان قد استمسك بعض الشيء .

وأقبلت زحمة بعد الظهر ، وامتلأ الدكان على سعته بالنسوان ، وأقبل بعضهن يشاغلنه ، ويداعبنه على عهدهن ، وفى أثناء ذلك نسى مأبه وأقبل على العمل ، ولكن سوسن كانت تقتحم عليه كل شيء ، وتملأ نفسه ويتردد صوتها فى كيانه ، كأنه انفجار هائل يصرفه عن كل شيء لبضع لحظات . كانت تبدو له بوجهها الوردى الجميل الحزين بعض الشيء بشعرها الكستنائى الغزير المتهدل على جبينها الأبيض ، بعينيها الساجيتين المعاتبتين ، ثم بفمها الصغير الجميل وهو يقول فى همس ذى دوى يهز كيانه هزاً :

ـ توفيق ... أنا سوسن بنت الحاج عبد السلام... اطلبنى من أبى .!

وخيل إليه أن بعد الظهر هذا لن ينتهى أبداً ، كان ينظر إلى ساعته كل دقيقة ، لأنه كان يريد أن يهرب من الناس إلى مكان هادئ يفكر فيه .

وانتهى العمل وأغلقوا الدكان ، وتسلم مفاتيحه صبحى ابن الحاج عبد السلام ، وكان شاباً يدرس التجارة ويعمل مع أبيه ، وكان يحب توفيقاً ويعطف عليه ، فسأله وهو خارج إن كان يستطيع أن يحمله بالسيارة إلى مكان ما ، فشكره وحياه ، ثم مضى مسرعاً واختفى فى زحمة الناس فى الغورية ثم فى السكة الجديدة . وفى الزحمة شعر بشيء من الاطمئنان . .

استقر رأيه على أن يذهب إلى شاطئ النيل ، ولكنه أحب أن يطمئن أمه قبل أن يذهب ، فهى عجوز قلقة تثير الدنيا إذا هو تأخر عن موعده بضع دقائق ، فمر على دكان صاحب له يسكن إلى جواره ، ورجاه أن

يبلغ أمه أنه ذهب فى عمل للمحل وسيتأخر إلى حوالى الحادية عشرة مساء، ثم انطلق مسرعاً يطلب الخلوة والسكون ...

* * *

لم يفعل أثناء خلوته على شاطئ النيل أكثر من استعادة المشهد ألف مرة، دون أن يهتدى إلى رأى . خطر بباله أن يذهب إلى بيت الحاج فى الصباح الباكر ، ويتحدث إلى أم بهية فلعلها تعرف شيئاً ، ولكنه خاف أن يراه صبحى أو أحد من أهل البيت ؛ وكان أعسر شىء على تصوره هو أن يتحدث مع سوسن نفسها ، أو أن يطلبها من أبيها بعد أن يعود من السفر ...

وعاد إلى بيته ، وأوى إلى فراشه ، فلم يستطع أن ينام لحظة . ظل يتقلب فى فراشه إلى الصباح، وسألته أمه عما به المرة بعد المرة ، فأبى أن يجيب ، وأخيراً استحلفها ألا تقول شيئاً ؛ ثم قص عليها الأمر . . . واستمعت إليه العجوز ثم ابتسمت وقالت :

ــ خير يا ابنى ... وما الذى يحيرك ؟

ــ الذى يحيرنى ؟ أننى لا أدرى ماذا أعمل ..

ــ اطلبها من أبيها ..

ــ أنا أطلب ست سوسن من الحاج عبد السلام؟ هل انقلبت الدنيا؟

ــ إذا كانت البنت نفسها طلبت إليك ذلك ..

ــ البنت مجنونة .. هذه طفلة ...

ــ وماذا تخاف ؟

ــ أن يطردنى الحاج من المحل ..

ــ لن يطردك .. ومع هذا ، فإذا طردك هناك محلات أخرى كثيرة تستطيع أن تعمل فيها ..

ــ تريدين أن تقطعى عيشى .. ؟

ــ أريد أن أفتح لك الطريق .. لقد طرق الحظ بابك ، وأنت ابن

بحلال وتستأهل كل خير .. ولكن ياخسارة ..

— ياخسارة إيه ؟

— تنقصك الشجاعة يا ابنى ..

فضرب على فخذه بيده وقال :

— سوسن تضحك علينا يا أمى .. نحن ناس فقراء وهم ناس أغنياء جداً . .

— هم أيضاً كانوا فقراء يوماً ما ..

وسكت قليلا ، ثم قال :

— هل تتصورين أن سوسن تحدثت إلى أبيها فى الموضوع ؟

— أبوها وأمها مسافران .. ولكن لابد أنها تعرف أنهما سيوافقان .. إن سوسن ليست مجنونة ..

— إذن لماذا فعلت ذلك ؟ ..

— لأنها تريدك ياابنى .. عشرات من نساء الحى يردنك .. أنا امرأة وأفهم ذلك ..

— لاياستى .. أنت لا تفهمين شيئاً .. لا أريد أن أرى نفسى فى الطريق أبداً ..

وهزت الأم رأسها أسفاً ، وسكتت ..

وقبل أن يخرج استحلفها بكل عزيز عليها ألا تقول شيئاً ، ولا تفعل شيئاً ..

* * *

ومرت الأيام ...

لم يستطع توفيق أن يعلو بنفسه شبراً عن الأرض . لقد عاش عمره كله هادئاً مطمئناً فى رعاية أمه ، مدللا من أولئك الفتيات اللاتى يداعبن أمثاله للتسلية . كان مرتبه صغيراً ، ولكنه كان قانعاً به ، ثم إن الحاج عبد السلام كان يحبه ويكرمه ، ويتفضل عليه بشىء من المال فى الأعياد

وبعض المناسبات . كل هذا كان يتصوره شيئاً عظيماً لا يمكن المغامرة به ...

لهذا ، وبرغم افتتانه بالفتاة ، لم يجرؤ على أن يخطو خطوة ..

وكلما أرادت أمه أن تشجعه وتدفعه تراجع إلى الوراء وتخوّف ..

وبعد شهور ترامى النبأ بأن سوسن قد خطبت ..

وبعد شهور أخرى تم زفافها . تزوجت شاباً كريماً من أبناء مياسير التجار . وليلة الزفاف كان توفيق يسير وراء الحاج كأنه خادمه ، يأمره بهذا فيفعله ويرسله فى شىء فيجرى ..

وبين الحين والحين كان يلقى نظرة على سوسن فى ثوب الزفاف ، وقد جلست إلى جانب زوجها ، وأطال النظر مرة ، والتفتت ناحيته وتأملته بعينين كلهما عتاب أو غضب .. لا يدرى .. ومن مكانه فى الركن الخفى أحس للمرة الأولى أنه فقد شيئاً عظيماً ، وأحس بيد تستقر على كتفه . كانت أمه .. همست فى أذنه :

ـــ ألم يكن أحسن أن تكون هناك .. تحت الأنوار ؟

وأحس باللمع فى عينيه ، وتركها ومضى . واقترب منها أخوها وكانت قد قصت عليه الحكاية ، فهز رأسه وقال :

ـــ لا فائدة .. توفيق ابننا تنقصه الجرأة .. ينقصه الطموح .. بدون جرأة ، بدون طموح ، لا يمكن أن يتقدم الإنسان خطوة ..

فابتسمت الأم فى مرارة ، وقالت :

ـــ يريد أن يتزوج بنت عم رمضان ..

ـــ بتاع البليلة ؟ ..

ـــ أيوه . . بتاع البليه . . يقول إن عنده عمارات . . .

ـــ أى أنه يريد أن يتزوج عمارة .

ـــ ليته يصل إلى ذلك ..

ـــ سيصل ..

وأشعل سيجارة ، ثم قال وهو يهز رأسه آسفاً :

— توفيق طماع .. إنه ساكن هادئ، ولكنه طماع .. الفرق عظيم بين الطماع والطامح ..

— قسمته . . المهم أن يتزوج . .

وتزوج سى توفيق من جليلة بنت عم رمضان . بعد الزواج تبين أن عم رمضان لا يملك عمارات ، ولا عمارة واحدة . كل ما يملكه قطعة أرض بنى عليها أربعة دكاكين .. وله من الأولاد خمسة . .

وظل سى توفيق مكانه . كل ما حدث له أن حماه أمده بشىء من المال فاستأجر شقة أوسع تحمله وزوجته وأمه وما يستجد من البنين ، وزاد الحاج عبد السلام راتبه شيئاً ، ومضت الأيام ، وأقبلت مع الأيام البنات والبنون . .

واستمر توفيق يمضى كل صباح ليأخذ المفاتيح ، ويقف كل يوم ليأكل طبق البليلة . وعندما يصل إلى ضريح الشيخ عفيفى يبحث عن القط ، وقد اختفى القط المشمشى وحلت محله قطط أخرى ..

وعندما كان توفيق ينقر على الباب باليد الحديدية الصغيرة الممسكة بالكرة ، كان يلتفت وينظر إلى عمارة الحاج . فى شقة بالدور الرابع كانت تسكن سوسن . وفى بعض الأحيان كان يجد سيارتها تنتظر عند الباب . كان يتأمل نفسه صغيراً ضئيلا أمام الباب الكبير ، وربما تساءل : هل كان من الممكن ياناس أن أتزوج هذه ؟ ! ثم يهز رأسه ويبتسم مهنئاً نفسه : « بأن البنت لم تلعب به » ..

* * *

وبعد سنوات ، فى صباح أول يوم من أيام عيد الأضحى ..

كان أولاده قد كثروا ، وأصبح القيام بمطالبهم صراعاً لا يعرف هوادة .. ذهب مع الحاج إلى المدافن كعهده فى كل عيد ..

قرأ القراء ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ووزع توفيق « الرحمة »

على الفقراء .. وخلا الضريح إلا من الحاج وخادمه الأمين . وعندما حان وقت انصراف الرجل ، أخرج ورقة مالية كبيرة ودسها فى يد توفيق ليستعين بها على نفقات أولاده ، واستكثرها توفيق . فابتسم الحاج وقال :

— تستكثرها يا توفيق ؟ كان من الممكن يابنى أن تكون اليوم صاحب الحق فى جزء كبير من أموالى ..

ونظر إليه توفيق واجماً ، فهو لم يفهم شيئاً ، فاستطرد الحاج يقول :

—كان ذلك من ١٥ سنة .. أنت تعرف كيف كنت أثق فيك دائماً . كانت سوسن قد بلغت السابعة عشرة وآن زواجها ، ولاحظت أمها أنها تترقب حضورك فى الصباح ، فانتهرتها دون جدوى ، فحدثتنى فى الأمر .. إننى أذكر ما قلت لها :

— والله يا أم صبحى لا مانع عندى . توفيق ابنى وابن حلال ، وقد بدأت حياتى أنا أقل منه ...

واتفقنا على أن نجيب طلبك إذا تقدمت تخطبها ..

وسافرنا للحج ..

وعندما عدنا أحسسنا فى البيت بشىء ، ثم أبلغتنا أم بهية — يرحمها الله — أن بعضهم أوحى إليك أن تخطب سوسن .. والحقيقة يا ابنى كان قلبى متفتحاً لك .. وظللنا ننتظر ..

ولم تتقدم أنت .. قلنا إن البنت لا تعجبك . هذه المسائل قسمة ونصيب ..

وضحك الحاج ، ثم نهض ورجا توفيقاً ألا يقول لأحد شيئاً من ذلك ، وأوصاه بإحكام إقفال الباب ، وركب سيارته ومضى . .

وعاد توفيق إلى المدفن وأسند رأسه إلى قبر وأجهش فى البكاء ، وعلا نشيجه حتى سمعه حارس المدفن ، فأقبل وربت على كتفه قائلا :

— ماذا جرى يامى توفيق ؟ .. هل مات لك أحد ؟

فرفع بصره ونظر إليه طويلا ثم قال :

ـ أيوه .. أنا ياعم دسوقى .. أنا اللى مت .. وعلى نفسى أبكى .

وتركه الرجل وخرج وهو يهز رأسه قائلا :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله ، لقد جن الرجل !

أنا وابني



هذه ليست مجرد قصة واقعية ، إنها اعتراف . . .

اعتراف بسر ثقيل ، ناء بحمله صدرى سنوات بعد سنوات ، أستميحكم العذر إذا حططته عن كاهلى لحظات ، ورجوت ذوى القلوب الطيبة أن يشاركونى حمله بعد ذلك ، أو التخفيف عنى بكلمة تبعث الرجاء فى المغفرة فى قلب تضيق به مذاهب الأمل كلما تقدمت به الأعوام . .

فإذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فلا أقل من رأى أو مشورة ، فلعل الأخذ والرد واتصال الكلام تخفف عن صدرى ثقل وزرى . وعزائى فى حكايتها أننى أعتقد أن كل سطر منها يحس به أولئك الذين أنعم الله عليهم بالولد، وعرفوا شقاء الأبوة ومتاعبها قبل أن يعرفوا لذاذاتها . . ويتعزى بها أولئك الذين لم يرزقهم الله الولد، وحسبوا — لهذا — أنهم حُرِمُوا نعيم الدنيا كله . .

أما الذين لم يدخلوا بعد دنيا الزواج وعالم الأبناء والبنات ، وأولئك الذين شاءوا أن يقطعوا صحراء الحياة أفراداً عُزُباً زاهدين فى متعة الأهل ، وناجين بأنفسهم من متاعب الأسرات ، وأولئك الذين شاءت لهم الظروف أن يظلوا على شاطئ هذه الدنيا متفرجين.. هؤلاء جميعاً ربما قسوا فى الحكم علىّ ، أو على ابنى ، أو علينا معاً . .

وهؤلاء جميعاً تضعهم هذه الحكاية أمام مشكلة لا زلت أنا ، بعد ثمانية عشر عاماً من مرورها ، فى حيرة من أمرى وأمر زوجتى .. أكانت هى على صواب فيما فعلت ؟ أم كنت أنا على الحق فيما أتيت ؟ هل تحق علينا لعنة الإجرام ؟

وهل هناك أمل فى الغفران ؟

إليك القصة أولا . .

* * *

كنت فى أواسط العقد السادس من عمرى ، تاجراً ذائع الصيت فى

الوجه البحرى كله . كنت قد استطعت – بعد كد السنين – أن أجعل متجرى من أكبر متاجر دمياط وأكثرها عملا وأولاها بثقة الناس ، فكان محلى – بأبوابه الأربعة ، وبضائعه التى جمعت فأوعت – أشبه بسوق عامرة لا تسكن الحركة فيها من البكور إلى الغروب ،وكنت – إلى جانب ذلك – من أسرع الناس لمعاونة إخوانى فى الحرفة وأكثرهم استعداداً لحلمتهم فمنحنى الله حبهم وثقتهم . وكثر المال فى خزائنى ، وزادت ودائعى فى المصرف ،واقتنيت ضيعة جنوبى البلد أنشأت فيها داراً خلوية ،كنت أخرج إليها كلما سئمت نفسى العمل وطلبت شيئاً من الاستجمام ..

ولم يرزقنى الله من الأبناء إلا ولداً واحداً ، أكرمنى به الله لأول زواجى فى شبابى الباكر ، وانتظرنا له أخاً أو أختاً ، ولكن الوهاب سبحانه لم يشأ . وحمدنا لله عطيته ، وأقبلنا – أنا وزوجى – نربى وحيدنا ونحوطه بما استطعنا من العناية . وبارك الله لنا فيه ،فنشأ شاباً ذكياً واعياً باراً بوالديه . وزاد سعادتى به أنه رغب فى العمل معى فى المتجر ، بعد أن أصاب الضرورى من التعليم ، فحمدت الله على ذلك ، لأنى كنت أخشى أن ينصرف إلى طلب الطب أو الهندسة وما شاكلهما ،كما فعل الكثير من أترابه. ومن أسوأ ما يحدث لنا – معاشر التجار – ألا يجد الواحد منا من بين أبنائه من يرغب فى التجارة ، وينصرف الأبناء إلى مطالب أخرى من العيش ، فيباع الدكان أو يأكله العاملون فيه ، ويتلاشى الاسم بعد طول العناء فى إنشائه وتثبيت أركانه . .

وكنت أجد فى هذا الولد خير العوض عما لقيت من العناء فى تأسيس المتجر ، فصار يخلفنى فيه لأمضى إلى الضيعة أو إلى المنصورة أو بورسعيد أو القاهرة ساعياً فى شئون تجارتى ، فيسد مكانى ويقوم بالأمر على خير وجه . وكانت مفاتيح الخزانة فى يدى أو يده سواء ، وكل منا يفتح ويراجع ويقابل على المدون فى الدفاتر ، فإذا أخذ واحد منا شيئاً قيده فى الدفتر حتى لا يضطرب الحساب .

وتخطى إسماعيل — وهذا اسمه — الخامسة والعشرين من عمره ، وبدأت أمه تتحدث فى أمر زواجه ، ولكن انصرافه إلى العمل وطموحه إلى التوسع فيه جعلاه لا يلقى إلى حديثها بالا ، ولم أكترث أنا للأمر ، ثقة منى فى أنه سيتزوج على أى حال يوماً من الأيام ، ولم يكن بصاحب سهر أو عبث ، وما أظن أن الحادية عشرة مساء أتت فى ليلة من الليالى إلا وهو فى الفراش .

ولكننى بدأت ألاحظ تغيراً واضحاً فى أحواله فى مطالع عامه السادس والعشرين . لاحظت أنه يتأخر خارج البيت إلى منتصف الليل أو بعده ، ويأتى إلى المتجر متأخراً مع الضحى ، جهماً عابساً متعباً ، فيأوى إلى المكتب ويظل واجماً كأن أمراً يشغل ذهنه ؛ ولاحظت كذلك إهمالا منه فى العمل ، فإذا نبهته إلى خطأ فى القيد أو توان فى مخاطبة هامة ، اعتذر واستدرك خطأه فى تكلف وتثاقل .

وحاولت أن أعرف السر ولكنه لم يشأ الإفصاح ، بل بدالى أنه يستثقل ذلك منى ويراه فضولا ..

ولو أن ابنى كان شاباً طائشاً ثقيل الإحساس معتاد الإهمال ، لما ترددت فى لومه والإكثار عليه ، ولكنه كان — فى هذه السن — رجلا ذا هيبة تعجبنى ، فاستحييت أن أفاتحه فى الأمر ، ولم أتحدث فيه إلى زوجى ، وعولت على الصبر ، وعقدت ثقتى فى الله ..

ومرت الأيام ..

ولكن الأمر زاد وأخذ صبرى ينفد ، فقد لاحظت أن يده بدأت تمتد إلى المال يأخذ منه العشرين والثلاثين جنيهاً دون أن يثبت ما أخذ ، وكان يرانى أحصى ما فى الخزانة وأراجع الدفاتر وأتعجب ، فيُطرق كأن الأمر لا يعنيه ، حتى جاء يوم وجدت الناقص فيه مائة وخمسين جنيهاً دفعه واحدة ، فأحسست أن الحياء لم يعد ينفع ، فقلت له يوماً وقد خلونا فى المكتب :

ـ يا إسماعيل .. ألم تلاحظ النقص المتوالى فى ودائع الخزانة ؟ لى ثلاثة أسابيع وأنا أتبين خلافاً بين المودع فى الخزانة والمقيد فى الدفاتر ، وقد رجوت أن تلاحظه أنت أيضاً وتفاتحنى فيه . .

ـ ولم أفاتحك مادمت أنا الذى آخذ هذه الفروق ؟ ..

ـ يابنى هذا المال مالك ، ولا حرج عليك فى أن تأخذ منه ما تحتاج إليه ، ولكن للتجارة وحساب المال أصولا أنت تعرفها ، وكان لابد على الأقل أن تدون ما تأخذ ..

فقال فى جفاء يدارى به حرجه :

ـ هذه الخزانة لا يفتحها أحد غيرنا ، ومن المفهوم أننى أنا الذى أخذت هذا المبلغ ، مادمت أنت لم تأخذه .

ـ وكيف أعرف إذا لم تقل أو لم تسجل ما أخذت ؟ ثم إنى فى حيرة من أمرك،إنك تأخذ ما بين عشرين وثلاثين جنيهاً كل يومين أو ثلاثة، حتى بلغ ما أخذته إلى أول أمس اثنين وثلاثين جنيهاً ، ثم أخذت أمس مائة وخمسين دفعة واحدة ، وهذا مال كثير .

ـ ألم تقل إن هذا المال مالى كما هو مالك؟ففيم تغضب إذا أخذت منه شيئاً ؟ وهل تستأذنني أنت فيما تأخذ ؟ لقد أخذت خمسمائة أول أمس . .

ـ إننى أقيد فى الدفاتر ما آخذ ، والخمسمائة التى أخذتها مدونة ، وقد دفعت بها صكوكاً علينا وأثمان بضائع ، والأوراق عندك ، أما ماتأخذه أنت فلا ذكر له فى الدفاتر ولا علم لى أين يذهب . .

ـ إننى رجل أعرف ما أصنع يا أبى ، وليس من الضرورى أن أستأذنك فى كل قرش آخذه كأننى طفل ، وليس لطيفاً منك أن تحاسبنى هذا الحساب ..

ومضى الحوار بيننا على هذا النحو الغريب المؤلم ، وقد أحسست فى كلامه نغمة من الجفاء وشيئاً من الضيق أيأسانى من الوصول إلى نتيجة ، وبدا لى بوضوح أن وراء الأمر سراً يخجل منه ويجتهد فى مداراته ، وانتهيت

إلى أن أعطيه خمسمائة جنيه دفعة واحدة يتصرف فيها كما يريد ، ولا يعود يمد يده إلى الودائع إلا فى شئون المتجر ..

وكان المبلغ الذى أعطيته إياه جسيما دون شك ، ومهما كانت ثروتنا فإن ضياعه على هذه الصورة أمر مؤلم . ونحن قوم تجار نحارب من أجل القرش ويؤلمنا فقد قرش واحد فى غير وجهه . وقد علمتنا التجارب أن مثل هذه الثغرات قد تبتلع المتاجر الضخمة وقد تجر إلى الإفلاس . وضحايا هذا النوع من التصرف كثيرون . وكم من تاجر ملىء ثابت الأقدام تزعزعت الثقة فيه ومادت الأرض من تحته بسبب بئر انفتحت تحت قدميه وأكلت ماله . ولكننى قدرت أن ابنى واقع فى إشكال كبير لا يريد أن يصارحنى به ، فآثرت إعطاءه هذه الجملة الكبيرة من المال ليستعين بها على الخروج من المأزق ، وربما استرحنا بعد ذلك ، وليس لى فى الدنيا غيره على أى حال ..

وكان لنا شيخ زاهد نحبه ونزوره لنقرأ معه الأوراد ونصيب من بركاته ونستمع إلى وعظه ، وكنت أثيراً عنده أفتح له صدرى وأستشيره فيما حزبنى من أمر ؛ فأجد عنده من الحكمة وجودة الرأى ما يفرج كربى .. فمضيت إليه ليلة . وصلينا العشاء وقرأنا الأوراد والأحزاب ، ثم قصصت عليه الأمر كله ، فظل واجماً لحظة ، ثم قال وهو يعبث بأصابعه بمسبحته :

— فى الأمر امرأة يافلان . . مشكلة ابنك امرأة عرضت له وملكت عقله وأخذت تستصفى ماله . . امرأة لعوب هلوك لا تهدأ إلا إذا ، جردتكم من ثيابكم هذه ، والرأى ألا تظل ساكناً . .

— أى امرأة ياشيخ ؟هذه بلدنا نعرف كل ركن فيه ، والولد لا ، يبرحه حتى نقول إنه وقع فى حبائل هذا النوع فى المنصوره أو بور سعيد مثلا . . .

— هؤلاء يوجدن فى كل مكان يا أخى ، ولا تخدع نفسك . . لا يصلح هذا الكون إلا باريه . . لقد قلت لك فتدبر أمرك وانظر فى شأنك ، وما أحسب هذه الشيطانة إلا لاعبة بعقل ابنك ؛ ولو انتظرت لأصبح فى القريب عدوك . .

ولكنك تعرف إسماعيل يا شيخ ، إنه ملاك طاهر ورجل عاقل . .

– لهذا وقع فى حبائلها . هذا الطراز من الشباب الطيب السليم القلب هم أسهل فرائس هؤلاء الملعونات . لو أن ابنك كان عابثاً ماجناً ما تمكنت منه ، وهى تعرف ذلك ، وتعرف أيضاً أنها ستستمر فى استصفاء دمكم إلى آخر قطرة . . وعليك أن تدافع عن كيانك . .

ولا أبالغ إذا قلتُ إننى لم أنم ليلتها لحظة . ظللت أتقلب فى فراشى وأتصنع النوم حتى لا تنتبه زوجى ، وهى امرأة حازمة عاقلة أريحية . وقد كنت عولت على ألا أخبرها بشىء حتى لا ينفجر بركانها ، وكانت تحب ابنها حباً يقرب من العبادة ، وشىء كهذا كان كفيلا أن يهد كيانها هداً . وقد سألتنى أكثر من مرة . ولكنى طويت عنها الأمر رفقاً بها ، فإذا نحن فى أخذ ورد سمعت صوت باب البيت يفتح . فأصغيت إلى وقع قدمى ابننا يدخل متلصصاً حذراً مخافة أن ننتبه ، ثم دخل حجرته وأغلقها عليه ، وساد الصمت . ونظرت فى ساعتى فإذا نحن بعد الرابعة صباحاً بقليل ، فنهضت المسكينة جالسة فى فراشها وقالت :

– أما كان قد دخل حجرته لينام بعد العشاء ؟ .

– نعم ، ثم خرج مرة أخرى متلصصاً كما دخل الآن . .

– وسمعت ذلك كله . . ؟

– نعم سمعت ، وهكذا يفعل منذ أيام . .

– وتكتم عنى يا رجل ؟ ألا يهمك أمر ابنك ؟

فسكتُّ لحظات ، ثم رأيت أن أخبرها بالأمر ففعلت ، وأصغت إلىّ فى ذهول ، وأحسب أن الدموع جرت من عينيها ، ولكنها تماسكت على عهدى بها وقالت :

– وما العمل ؟ . .

– دعينى أدبر الأمر . .

– لا أستطيع أن أدعك ، إنه ابنى ولا أستطيع أن أتركه يضيع هكذا . .

ثم همت واقفة تريد أن تذهب إليه، فما زلت أرجوها أن تهدأ وتسكن حتى قعدت ، ثم قلت لها :

— إن ابننا الآن كالمسحور لا يدرى ما يفعل ، ولو فعلت شيئاً دون تفكير لتعجلنا المصيبة وخسرناه جملة . .

— إن كانت امرأة فأنا لها، وأقسم بالله لا يطمئنن لى جنب حتى أخرجها من هذا البلد وأستريح . .

— إن إخراجها أمر هين . ولو اتصلتُ بأصحابى من أهل الحكومة وشرحت لهم الأمر لما أطل مساء الغد إلا وهى بعيدة عن بلدنا ، ولكن الخوف أن يطير عصفورنا وراءها . . هذا أمر لا تعرفينه أنت، والشاب إذا وقع فى مثل هذا الشرك فلا خلاص له إلا فى رفق وبروية .. فدعينى أدبر الأمر أرجوك . وإياك أن تفاتحيه فيه أو تدعيه يعرف أنك تعرفين ..

ثم أذن الفجر . فنهضنا وصليناه ، وجعلنا نبتهل إلى الله أن يزيل عنا هذا الكرب ، وأن يخلص ابننا من هذا الخطر المحيق . .

وعولت على أن أتصدى لعلاج الأمر بالحزم الذى أشار به الشيخ ، وقررت مع ذلك أن يكون عملى فى طى الكتمان ، حتى أتفادى فضيحة سيئة العواقب .

وكان لدينا فى المتجر رجل ناصح أمين ، نشأ معى فى العمل وخدمنى بإخلاص عمراً طويلا ، وكان أشبه بوكيلى وصاحب سرى ، فناديته يوماً وأفضيت إليه بالأمر ، بعد أن أخذت عليه عهداً بالكتمان ، وطلبت إليه أن يتتبع ابنى حيثما ذهب بالنهار أو الليل ، وأن يستعلم عن المواضع التى يتردد عليها ويأتينى فى ذلك كله بنبأ صحيح ، فنهض الرجل بكل ما فيه من همة ، ومضى يبحث ويتعقب أياماً متوالية ،فتبين لى صدق فراسة الشيخ فيما قدّر . . وثبت عندى أن إسماعيل قد ألف امرأة من بنات السوء ، وفدت على بلدنا منذ شهور مع نفر من صاحباتها وأصحابها، واتخذوا لهم وكراً فى دار خافية فى حى متطرف من البلد معظمه خرائب ،

وإلى هذا البيت يفد الشباب ومن كتب الله عليهم الشقاء ، فينفقون مالهم وصحتهم ويتعرضون للفضيحة . .

وعرفت أن صاحبة ابنى من هؤلاء ، امرأة شريرة يقال لها زكية ، لها رفيق من عتاة الأشرار يقال له محروس ، وأن الاثنين يتعاونان على ابتزاز المال من ابنى ساخرين منه ومن غفلته ، والمسكين واقع فى أسر المرأة لا يكاد يطيق فراقها ولا يبخل عليها بمال ، وهو يحمل إليها كل يوم من الهدايا ما يكلفه المال الجسيم ، ولا تقنع هى بذلك بل تسأله العشرات من الجنيهات ، زاعمة له أنها تحبه وأنها لاتطيق الصبر عنه ، وهو — لغفلته — كالمسحور يفعل ما تريد . .

وبدا لى — بعد تفكير — أن أذهب للقائها بنفسى ، لأعرض عليها شيئاً من المال لتتركنا فى حالنا ؛ ومثل هذه الشيطانة لا تطلب إلا المال ، ولن يعسر علىّ إقناعها ، فإذا أصرت على العناد كان لى معها شأن . وقد كنت أستطيع أن أعهد فى ذلك إلى ذلك الرجل الذى ذكرته ، واسمه عبد السلام ، ولكن شيئاً فى نفسى كان يدفعنى إلى رؤية وجه الشؤم الذى جلب علينا هذا الشقاء كله . .

وفى يوم من الأيام أخذت معى شيئاً من المال ، واصطحبت عبد السلام ومضينا نحو ذلك البيت ، ولقد عرفت وأنا فى الطريق أننى أعرض نفسى لما لا أحب ، ولكن رغبتى فى إنقاذ ابنى هوّنت علىّ الأمر . ومضينا فى حوار ودروب وخرائب ، حتى انتهينا إلى بيت كئيب رابض وسط أطلال ، وكان الوقت ضحى والشمس ساطعة ، ولكن سكوناً رهيباً كان يخيم على ذلك الدرب وما فيه . وكان عبد السلام قد أخذ معه سكيناً حادة ليدافع بها إذا لزم الحال .

ودققت الباب مرتين وثالثة ، حتى كدت أيأس من أن يفتح لى أحد ، ولكنى كنت أسمع أصواتاً وحركة أقدام ، ثم أقبل من فتح الباب ، ووجدت نفسى أمام عجوز قبيحة الشكل رثة الملبس قد عصبت

رأسها بعصابة حمراء ، سألتنى عما أريد فقلت إننى أريد أن أتحدث مع الست زكية ، فقالت دون تردد إنها لا تعرف أحداً بهذا الاسم . . وكادت تغلق الباب ، ولكن عبد السلام دفعها ودخل ، ودخلت وراءه ، ووقفنا فى ردهة مظلمة بعض الشىء ، وأصررنا على رؤية زكية ، فإذا نحن فى فى جدل مع العجوز ، إذ أقبل من الداخل رجل ما أظن أننى رأيت فى حياتى أقبح منه : أشعث أغبر فى جلباب قذر مفتوح الصدر ، وعلى رأسه طاقية قد أمالها على حاجبه الأيسر ، محاولا أن يخفى بها عيناً عوراء . أقبل حافياً وفى يده سيجارة وقال :

— ما هذه الضجة ؟ من هناك ؟ من هؤلاء . . ؟

فلما صار قبالتى نظر إلىّ طويلا ثم قال :

— كيف تقتحم البيوت هكذا أيها الشيخ ؟ وماذا تريد منا ؟

— خيراً إن شاء الله . . أردت أن أتحدث مع الست زكية . .

— وأى صلة لك بالست زكية وماذا تريد منها ؟ هكذا الأمور فى بلدكم ؟ يأتى شيخ مثلك ولا يستحى أن يطلب الكلام مع امرأة متزوجة ؟

— يا هذا أنا لا أعلم عنها شيئاً ، وما كنت أعرف أنها متزوجة ، ولو عرفت ما أتيت . .

— إذن فقد علمت ، إنها زوجتى ولا صلة لأحد بها . .

وفاجأنى هذا الشيطان بذلك ، وقطع علىّ كل سبيل للقول أو العمل ، فاعتذرت إليه ووليت وجهى منصرفاً ومن خلفى عبد السلام . وإذا بالرجل يهتف بى : تعال هنا . . لن تخرج من هنا حتى أعرف فيم أتيت تكلم زوجتى ، أم هل أنت لا يعنيك فى شىء أن يتردد الرجال على امرأتك دون أن تعلم . . ؟

ولا أذكر أن الغضب تملكنى فى حياتى كما تملكنى هذه اللحظة . ولو لم يمسك عبد السلام بذراعى لضربته ضربة حطمت بها رأسه ، فظللت

مكانى أنظر فى وجهه الكئيب وبودى لو لطمته لطمة تطير عينه الباقية . وأحسست أن الخوف يتمشى فى جسده . وأنه يتلفت ملتمساً الهرب من أمامى ، فإذا نحن على هذه الحال سمعت صوت امرأة يهتف من الداخل :

ـــ ما هذا ؟ من هؤلاء وماذا يريدون ؟

ثم أقبلت امرأة تمشى على مهل حتى صارت قبالتى . ومدت يدها فأزاحت ذلك الرجل من أمامى ، ونظرت إلىّ طويلا كأنها تعرفت ملامح ابنى فى وجهى ، ثم نفضت الرماد من سيجارة فى يدها . وقالت :

ـــ ماذا تريد يا شيخ ؟

وأراد الرجل أن يتكلم ، ولكنها أسكتته بإشارة من يدها . ولم أجد ما أجاوبها به ، فمضيت أتفرس فيها : كانت امرأة وسطاً . ربما كانت أصغر من السنوات التى ينطق بها وجهها . كانت بيضاء ذات شعر أشقر واضح الخضاب ، وفى وجهها شىء من ملاحة ورقة . وتحت عينيها هالة من زرقة اجتهدت فى تغطيتها بالصباغ . وكان لها عينان واسعتان يبدو فيهما أثر السهر . ثم انتبهتُ إلى نفسى . فنظرت إلى الرجل وقلت

ـــ هذه زوجتك ؟

وأراد الكلام ، ولكنها قاطعته قائلة :

ـــ أنا لا زوج لى . إننى حرة نفسى ، من أنت ؟

ـــ أنا والد إسماعيل ، إسماعيل الوزان . .

فنظرت إلى الرجل ، ثم إلىّ ، ثم هزت رأسها وكتفيها ساخرة وقالت :

ـــ آه . . هذا الشاب الذى يأتينا مع توفيق . . وماذا تريد ؟

ـــ أريد أن أتحدث إليك على حدة . .

ـــ قل ما تريد . . نحن على حدة ، كل من هنا أهل بيتى . .

فهززت رأسى فى حيرة ثم قلت :

ـــ لا أدرى ما أقول . . كنت أود أن أرجوك لو كان من الممكن

أن . . أن تتركيه . .

فانفجرت ضاحكة وقالت :

— أتركه ؟ هل سمعتم شيئاً مثل هذا ؟ وهل أنا ممسكة به ؟ . . أطفل هو أم ماذا ؟ إنه يأتى هنا بمحض اختياره ، وهو رجل يعرف ماذا يفعل . . ألست أباه تستطيع أن تأمره بما تريد ؟ . . إنه يأتى هنا مع نفر من أصحابه ليسمر قليلا وليلعب الورق . . ماذا فى هذا . . ؟

— فى هذا شىء كثير يا سيلتى . . إنه ينفق ماله ووقته . .

— ونحن مسئولون ؟ . .

— اسمعى يا سيلتى . أنت تفهمين ما أريد ، وقد أتيتك لأرضيك بما تحبين إذا تركت لى ابنى . .

— لا أستطيع أن أتركه . . إننى أحبه . . هل الحب فى بلدكم حرام . . ؟

ولو أنها لطمتنى لكان أهون علىّ من سماع هذه الكلمة ، وشعرت أننى أمام ثعلب ماكر قد أنشب مخالبه وتمكن ، ولن نستطيع النجاة منه بالسهولة التى تصورتها ، وزاد الأمر حرجاً أن ذلك الرجل قال :

— ثم إنه مدين للست بمال كثير . .

— مدين لك ؟ كيف وقد أنفق عليك منذ عرفك المئات . .؟

— على نفسه . . إنه يشرب ويلعب الورق ويخسر ، ولدىّ عليه عليه صكوك بخط يده . .

— أين هذه الصكوك ؟

— هذه مسائل بينى وبينه ولا دخل لأحد فيها . . ربما تنازلت عنها عندما نتزوج . . .

وكدت أصعق عندما سمعت هذه الكلمة ، ومضيت أتأملها وهى تشعل سيجارة وتنفث دخانها فى وجهى وتنظر إلىّ فى تحد وسخرية . ثم جمعت أشتات ذهنى وقلت لها :

— اسمعى يا هذه . . هذا الولد وحيدى فى الدنيا ، ولن تتزوجيه أو تمسى شعرة من رأسه وأنا حى ، وهذه الديون التى تتحدثين عنها تلفيقات لا تجوز علىّ ، وهذه بلدنا ولنا فيها عزوة وقوة ، ولو أردت لهدمت هذا البيت على من فيه ، وليس أمامك إلا أن تحملى متاعك وتخرجى من هذا البلد ، أقولها لك وأرجو ألا تحدثك نفسك بالوقوف فى وجهى ..

وأراد الرجل أن يتكلم ، ولكنها أخرسته بنظرة قاسية ، وأقبلت نساء أخريات هن فى هيئاتهن أقرب إلى الشيطانات : فأحطن بنا وجعلن يتضاحكن ويتغامزن مشيرات إلىّ ، ثم قالت :

— لا مانع عندى من مغادرة هذا البلد .. ولكننى لن أمضى وحدى ..

— طبعاً . . تذهبين مع هؤلاء جميعاً . .

— ومع من أحب !

— قلت لك . . دعى ابنى فى سلام ، قد حذرتك . .

— قل هذا لابنك . .

ثم استدارت وتركتنى ومضت ومن خلفها رجلها ونساؤها ، وفتحت العجوز الباب ورجتنا أن نذهب . .

وسرت مع صاحبى فى الطريق وأنا لا أكاد أعقل من الغضب والهم ، ومضيت إلى شاطئ النيل ، فجلست على الشاطئ أستروح النسيم وأفكر فى أمرى ، ثم نظرت إلى عبد السلام وقلت :

— طالما ندبت حظك يا أخى لأن الله لم يرزقك الولد ! فها أنت ترى ما يفعل الولد بأهله . ربينا وتعبنا ، وبنينا لكى يصير كل شىء إلى يد من رأيت ! تعرضنا للإهانة ، ودخلنا بيوتاً ما كان يدور بخلدنا أن تجرى إليها بنا قدم ، وآخر المطاف تستكتب الأحمق صكوكاً وتكبله ثم تتزوجه ، وتطير به ويتهدم كل ما بنيناه . . ما أتعس الآباء لو علموا ! يعيشون لغيرهم ويبنون على رمال . . . يشقون مع العيال ، حتى إذا شب الواحد منهم عن الطريق كان أول ما يقول : لا شأن لكم بى . . .

لا تتدخلوا فى شئونى . . أنا حر ولست طفلا . .

فهز الرجل الطيب رأسه وقال :

ـ هوّن عليك يا سيدى ولا تبتئس إلى هذا الحد . . هى سحابة وتمر بإذن الله . .

ـ وما العمل إذن ؟ . .

ـ هذه المرأة ستقول هذا كله لابنك حينما يراها الليلة ، وأحسب أننا فى حاجة لمزيد من الصبر وضبط النفس فى الأيام القادمة . .

ـ إننى أخشى أن يكلمنى فى هذا الأمر فيزيد غضبى وقد أوذيه . . والله لو قال لى إنه يريد أن يمضى مع هذه العاتية ما منعته . . سأحتسب الله فيه وعلى الله العوض . .

فسكت الرجل طويلا ثم قال :

ـ ما رأيك فى أن تترك الأمر لى ؟ فلعلى أعالجه على نحو يرضيك . . إنك الآن مغضب متأثر ، وهذه حال لا يؤمن فيها الزلل . . وإسماعيل ابنك وابنى ؛ ومهما كان فهو لحمنا ودمنا ، وما تقوله الآن بلسانك لا يرضاه قلبك . .

ـ ماذا ستفعل ؟ . .

ـ لا أدرى الآن ، ولكنى لن أعدم سبيلا على أى حال . .

ومضيت إلى بيتى ، فما لقيتنى زوجى حتى توجست الشر ، ولم تزل تلطف بى حتى قلت لها كل شىء . وكنت أتوقع أن تبكى أو تصرخ ، ولكنها تلقت النبأ وكأنها طود راسخ ، ثم هزت رأسها وقالت :

ـ نعم الرأى ما رأى عبد السلام ، دع الأمر له ، فربما حُلّت على يديه ، قم الآن فأصب شيئاً من الطعام ثم استرح ، والله سبحانه لن يخذلك أبداً . . قم على بركة الله .

ونزل كلامها برداً وسلاماً على قلبى ، وأحسست براحة كبرى أن وجدت إلى جانبى هذه الزوجة العاقلة الصادقة الحازمة ، وذلك الصديق

الأمين ، وتركت الأمر لله . .

وشغلتنى شئون المتجر فلم ألق إلى الأمر بالا ، وقد كنتُ قد قدرت أسوأ التقديرات وعولت على مواجهتها بالصبر والثبات ، ولو أن إسماعيل فاتحنى فى الأمر لقلت له : افعل ما بدالك . . إن شئت اختيار هذه المرأة علينا فالباب مفتوح أمامك ، وليكن فى علمك أنك إذا خرجت فلن تعود . .

ولكنه لم يفاتحنى ، ولا كلمتنى زوجتى ، ولا عبد السلام . .

وفى ذات يوم قالت لى زوجى : يا أبا فلان أبشر . . أظن أننا حللنا الإشكال . .

قلت : كيف . . ؟

قالت :

ـ أرسلت عبد السلام فأتانى بهذه المرأة ، وبعد مقابلات متعددة اتفقت معها على أن تأخذ خمسمائة جنيه وتمضى عن البلد دون أن يعلم إسماعيل . .

ـ لن تصدقك . . ستأخذ المبلغ ولن تبالى ، ثم تطلب غيره وهكذا . .

ـ لن تستطيع . . لست أنا بالتى تلعب بها مثل هذه . إن هذا الرجل الذى قابلته عندها زوجها حقاً ، وهى تريد أن تفر منه ، وقد رجتنى أن يظل الأمر سراً بينى وبينها ، فإذا أخذت المبلغ هربت وحدها فى الحال ، وقد أعدت الأمر لذلك وأتتنى بحقيبة ملابسها لكى تمضى من عندى إلى حيث تريد .

ـ وهل يعقل أن مثل هذه المرأة تأمن لنا ولا تأمن لمن هم معها ؟ . .

ـ يعقل أو لا يعقل ، هكذا اتفقنا ، والويل لها إذا حاولت خداعى . .

ـ ومتى يكون ذلك ؟ . .

ـ غداً ستأتينى فى الضيعة . .

— فى الضيعة ؟ وما جعلك تفكرين فى ذلك . . ؟

— هى قبلت أن يتم الأمر بعيداً عن هنا . . . ستأتينى مساء الغد هناك . .

— ولكننا لم نخطر أحداً فى الضيعة بأننا قادمون،أظن أن لا أحد من الخدم فى البيت هناك . . لقد استأذننى الحارس والخدم فى أن يذهبوا إلى دسوق ليحضروا مولد سيدى إبراهيم كما هى عادتهم . . وأظنهم ذهبوا . .

— لا بأس،المفتاح عندنا . . سنذهب غداً بعد الظهر ، وبعد غد نكون هنا . .

ذهبت بمفردى مع زوجى ، ولم نجد فى البيت أحداً . وقد استشعرنا شيئاً من الوحشة . ولكن أم إسماعيل بادرت بإعداد البيت . وكنت قد أخذت معى سلاحاً للطوارئ ؛ وقد اتفقنا على أن أرقب الباب حتى تقبل المرأة ، فإذا أتت وحدها تركتها تدخل دون أن تفطن لوجودى ، وأظل أرقب فى الحديقة حتى تنصرف . فإذا أحسست فى الأمر خيانة بادرت بسلاحى . .

ولم يطل انتظارنا . من مكانى تحت شجرة فى الحديقة رأيت المرأة تدخل الباب مهرولة،ورأيتها تتلفت خلفها لتتأكد من أن أحداً لا يرقبها ، وبرزت لها زوجى على شرفة البيت وأشارت إليها فدخلت . كانت الساعة السابعة والنصف مساء ؛ وهبط الظلام دفعة واحدة ، وأعدت النظر فى مسدسى لأتأكد من الرصاص ، ووضعته فى جيبى ، وتناولت هراوة ضخمة ومضيت أتمشى ذهاباً وجيئة . .

وطال انتظارى ، ساعة أو نحوها ، فقررت أن أمضى إلى البيت لأنظر ما هناك ، فإذا أنا قرب السلم إذا امرأتى خارجة تهرول تنظر يمنة ويسرة باحثة عنى ، وأسرعت نحوها ، فراعنى منظر وجهها . كانت مصفرة اللون يتمشى الفزع فى ملامحها ، فمارأتنى حتى قالت :

ضربتُها فوقعت على الأرض لا تنطق . . !

فصرخت : كيف؟ . . ماذا حدث ؟

فقصت عليّ كيف أن المرأة أخذت الخمسمائة جنيه ، ثم طلبت مثلها لزوجها ، قائلة إنه علم بالأمر وأصر على أن يصيب مثلها ، وإلا فلا ذهاب ولا اتفاق . واحتد الكلام بينهما ، فإذا المرأة تخرج سكيناً لتضرب بها ، فأسرعت زوجتي إلى هاون ضربت به رأسها فسقطت جثة هامدة . .

وأسرعت أعدو داخل البيت ، فإذا المرأة منبطحة لا حراك بها ، ونظرت فى وجهها ثم جسست نبضها فإذا هى ميتة ، ووجدت السكين الذى أرادت أن تقتل به ملقى إلى جانبها . .

وجمد الدم فى عروقى ، ونهضت واقفاً وظللت صامتاً كأن ذهنى أصابه شلل ، ثم قلت :

ـ رحنا فى داهية يا فلانة . . قتلت المرأة !

وأدهشنى أننى لم أقرأ شيئاً من الفزع فى وجهها ، وقفت ساكنة رابطة الجأش ، ثم قالت :

ـ أنت لا دخل لك بهذا . هذه غريمتى وقد قضيت عليها ، ولا بأس فى أن يأخذونى بها . لقد أنقذنا الولد ، وهذا هو المهم . .

ـ أنت مجنونة أو محمومة .. كيف تقولين أن لا دخل لى بهذا وأنا شريكك فيه وأنت زوجتى ، وهل خطر ببالك أن أسلمك للبوليس وأظل أتفرج ؟

ـ نعم . . هذا ما لا بد أن تفعله . . هذه خائنة وهذا عقابها . .

ـ وماذا سنفعل الآن . . ؟

ـ سأواريها التراب ، سأدفنها خلف البيت ولن يعلم بأمرها أحد .

ـ تدفنيها الآن ثم يشكو زوجها إلى البوليس ولا تلبث الجريمة أن تنكشف . .

ــ وماذا فى ذلك ، ابننا وأنقذناه . . اذهب أنت إلى الحديقة ، وسأحفر قبرها بيدى . . عليك أن تراقب . .

فإذا نحن فى هذا إذ سمعت وطء أقدام ، فخرجت أجرى والهراوة بيدى ، وعند أسفل السلم وجدت الرجل . . ذلك الأعور الشائه الوجه واقفاً ينظر إلىّ ، ثم قال :

ــ أين زوجتى ؟ ؟ .

ــ لم نرها . .

ــ كيف وقد أوصلتها بنفسى إلى قرب الدار وظللت أرقبها . كان الاتفاق أن تأتينى بألف جنيه كاملة . .

ــ قلت لك لم نرها . .

فهجم علىّ وأخذ بخناقى فى إحدى قبضتيه ، وضربنى فى وجهى بقبضته الأخرى ، فتخلصت منه : فما خلصت يده حتى دسها فى جيبه يلتمس سلاحاً ؛ ودون أن أدرى هويت على رأسه بالهراوة مرة ومرة ، وكأنما انفجر بركان غضبى المكتوم من أسابيع ، فخرجت عن وعيى وأصبحت كالوحش الكاسر ، ولم أكف عن الضرب حتى كلت يدى . ثم نظرت إليه عند قدمىّ جثة هامدة ، ولا أدرى كيف شعرت براحة . . وتصبب العرق على جبينى ، ومضيت أمسحه بالمنديل وأنا ألهث ، ثم روعت إذ سمعت صوت زوجتى تقول :

ــ حسناً فعلت . . لا شلت يمينك . .

فقلت لها دون وعى :

ــ قتلته . . !

ــ لم يكن لها حل إلا هذا . لو لم تقتله أنت لقتلته أنا . . كان ثعباناً ضارياً ولا راحة منه إلا بهذا . .

ــ والعمل . . ؟

ــ الحفرة التى تسع واحداً تسع اثنين . الآن لن يعلم بالأمر أحد ..

كان تفكيرى قد وقف تماماً . كان الصواب أن أسرع بإبلاغ البوليس وأقول إنهما أرادا قتلنا فقضينا عليهما ، وهذه الأسلحة معهما دليل على ذلك ، ولم يكن من العسير أن يصدقنا الناس ؛ ولكن عقلى لم يكن معى ، فجررنا جثة الرجل إلى خلف المنزل ، ومضينا نحفر ساعات متوالية حتى صنعنا بئراً لا يقل عمقها عن أمتار كثيرة ، ثم ألقينا فيها بالجثتين . ووجدت شيئاً من الجير ـ فألقيته فى الحفرة وأطفأته بالماء ؛ ثم أهلنا التراب ودككنا الأرض دكاً حتى لم يعد هناك أثر . .

وبدأ نور الفجر ينتشر ، فطلبتُ إلى زوجتى أن تذهب إلى البيت وتمحو كل أثر ، وعمدت إلى كوم كبير من حطب القطن فنقلته فوق الموضع ، وذهبت إلى حيث مات الرجل فجمعت ما كان قد تناثر من أشيائه ، ثم غسلنا الأرض جيداً ، وراجعت النظر مرة بعد مرة ، وعدت إلى موضع الحفرة فنظرت مراراً ، واطمأننت إلى أن كل أثر قد زال ، ثم دخلت البيت ونظرت ، ولم يبق عندى شك فى أننا سترنا الأمر قدر طاقتنا ، والبقية على الظروف . .

وعدت إلى البيت ، فاغتسلت ثم مضيت إلى الدكان ، ومن عجب أننى تماسكت فلم يلحظ أحد علىّ شيئاً ، وجلست إلى ابنى وتحادثنا فى شئون العمل كأن شيئاً لم يقع . وعدت إلى بيتى مع الليل ، وذهبت بعد ذلك للعزاء فى صديق لنا توفى ، وجلست مع الناس وكأن لم يكن ما كان . .

ومرت الأيام ، فالأسابيع ، فالشهور . .

وفى ذات يوم ، قلت لابنى :

ــ لم أسمعك تتحدث عن هذه المرأة مرة أخرى . .

فسكت لحظة ، ثم ابتسم وقال :

ــ هربت مع خليل لها . .

ــ نجاك الله منها . .

ــ نعم ونجا معى كثيرون . . كانت نزوة شباب يا أبى ، وأرجو ألا

تكون غاضباً عليّ . .

ــ لا . . ولكن المهم أن تكون أنت راضياً عن نفسك . .

ــ لا أدرى إن كنت أغفر لنفسى . لا أدرى أيضاً ماذا كان بى : جنون أم ذهول أم . . . لا أدرى ماذا . . لو كنت مكانك ياأبى وجرى لابنى ما جرى لصفعته على وجهه ليفيق . .

ــ أتدرى ماذا كان يفعل ابنى لو صفعته . . ؟ كان يرد علىّ الصفعة . .

فابتسم فى مرارة . ثم قال :

ــ معاذ الله يا أبى . ما عاشت يد ترتفع عليك . . ولكن عبد الرحيم فعل هذا مع أبيه . . .

ــ عبد الرحيم ؟ ابن محمود جارنا . .

ــ نعم . .

ــ كان معك فى هذا كله ؟

ــ كلنا جرفنا التيار يا أبى ، كل جماعتنا : نشأت ورياض وتوفيق وضياء . .

ــ كلكم عشقتم هذه المرأة ؟ . .

ــ كان هناك غيرها كثيرات . .

ــ وكلكم أنفقتم هناك بهذا الجنون ؟ هل وقع الآخرون صكوكاً ؟..

ــ كلنا دفعنا ووقعنا . . ولكن أظن أننى دفعت أكثر من غيرى.. دفعنا المرات الأولى برضانا ، والباقى بالتهديد والتخويف من الفضيحة . .

ــ وماذا كان يخيفكم وأنتم ستة شبان أو سبعة ؟

ــ رجل مجرم كان هناك . كان قاتلا سفاكاً . . قيل لنا إنه هرب من الجيزة بجناية قتل . .

ــ هل كان أعور ؟ . .

ــ نعم . . من قال لك ذلك ؟.....

– سمعت الناس يتكلمون . .

– على أى الأحوال وصلت الأوامر إلى وكيل النيابة بالبحث والقبض عليه . .

وشعرت بشىء من الخوف ، وتمالكت نفسى ، وقلت :

– متى وصلت هذه الأوامر . . ؟ وماذا فعل ؟

– من شهرين ، وتبين أن الرجل وخليلته هربا معاً ذات ليلة ، هكذا قالت النسوة اللائى قبض عليهن فى البيت .

– وهل مازالوا يبحثون عنهما ؟

– لا أظن . ثبت بالفعل أنهما هربا . هربا ذات ليلة سيراً على الأقدام فى طريق فارسكور . كان معهما نحو ثلاثة آلاف من الجنيهات ..

ودون وعى منى سرح خاطرى بعيداً إلى الضيعة . لقد دفنّا الرجل والمرأة بهذا المال وبالخمسمائة جنيه التى أخذتها المرأة من زوجتى . . ثم انتبهت إلى ابنى يقول :

– أنا أعرف فيما تفكر . .

فقلت جزعاً : فيم ؟

– فى زواجى . . أظن أن الأوان قد آن لذلك . . ألست ترى ذلك . . ؟

وسُرّى عنى . كان وجهه يبتسم ، فابتسمت برغم ما بى ، وقلت له إن أمه كفيلة بزواجه ، فهى تعرف الأسر والبنات أكثر منى .

* * *

هذا ما جرى لى مع ابنى ، أو ما جرى لنا نحن الثلاثة على يد الأيام . .

انقضت عليه إلى الآن ثمان عشرة سنة . .

لم يعلم بسرنا أحد . طوته الأيام التى تعدو ، وتكاثفت عليه ركام السنين وسحب النسيان .

حتى نحن نسيناه دهراً طويلا ، تزوج ابننا وأنجب ، وامتلأ البيت علينا عيالا ومرحاً ومشاكل .

وكبر الأولاد ، فغادرنا ابننا بأهله إلى بيت آخر . .

وعدت أنا وزوجتى إلى الوحدة ، فى صمت البيت الخالى إلا من عجوزين يدبان فى بطء يزيد الصمت رهبة عادت الذكريات . .

بدأت الجريمة تتمثل أمام أعيننا مرة بعد أخرى . كلما اقتربنا من النهاية المكتوبة على كل حي زاد الخوف من لقاء الحى الباقى الذى يمهل ولا يهمل . .

لم ينفعنا عزاء ولا تأس . حججنا ثلاث مرات ، وتعلقنا بالأستار ، واستلمنا الأركان ، ودعونا غافر الذنب أن يتغمدنا بما هو أهله من العفو عن المذنبين . . ولكننا فى خوف . .

أما أننا قاتلان فما فى ذلك شك . .

كنا فى السنوات القلائل التى أعقبت الحادث لا نشك فى أننا فعلنا ما فعلناه دفاعاً عن النفس ، دفاعاً عن العرض والكيان .

ولكن شيخى الذى حدثتكم عنه أوقعنى فى حيرة لا أستطيع الخروج منها . .

كان ذلك قبل أن يموت بأيام . .

ذهبت إليه أعوده وهو دنف يقطع آخر أيام الحياة . . كان صدرى مثقلا بالسر ، فأفضيت به إليه ألتمس الراحة . .

نظر إلىّ طويلا ، طويلا جداً ، ثم قال :

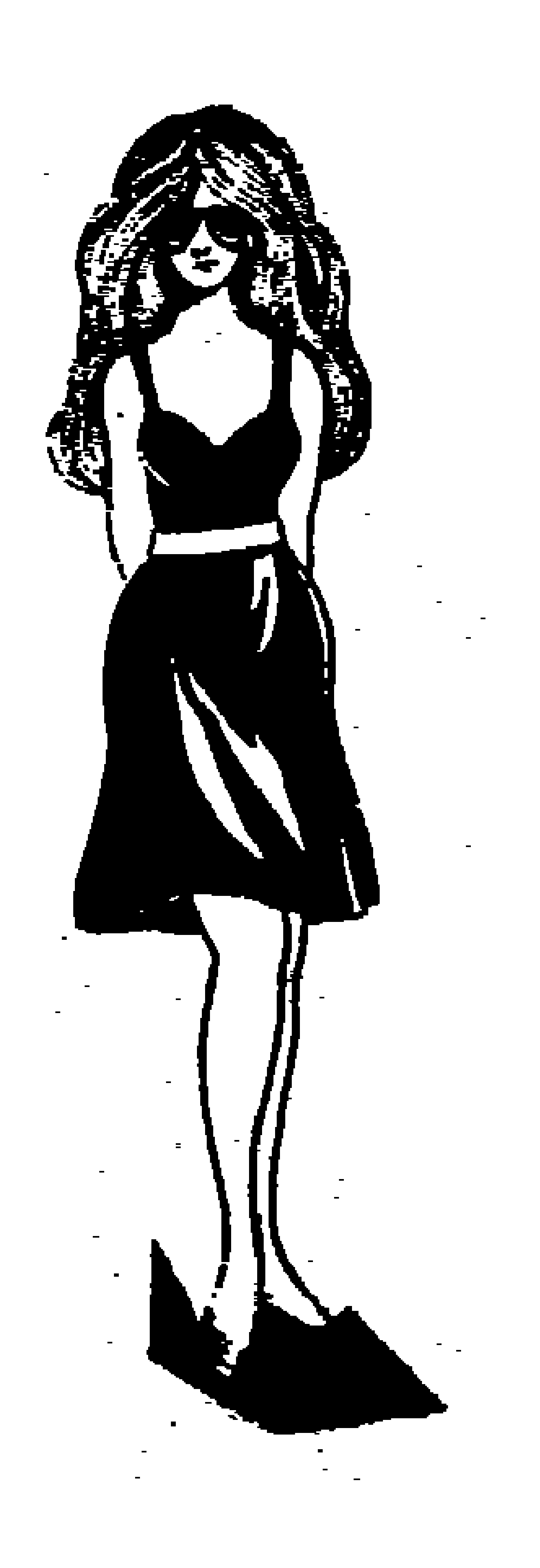
— هذا يا بنى شىء كبير ، شىء أكبر منى بكثير . . أما كفاك ما أنا فيه حتى أتيت تحملنى وزرك وأنا فى طريقى إلى الموقف العظيم ؟

— إذن فادع لى ، لعل دعاءك ينفعنى . .

— لو دعوت لك لحملت معك الوزر . . أدع أنت لنفسك . .

ولم أره بعد ذلك حيا . .
ولم أر الراحة بعد ذلك أبداً !
هل نحن قاتلان فعلا ؟ هل من أمل فى النجاة من عذاب الأبد ؟
. . هذا هو السؤال !

روايـة للسّـينما



مسرحية مصرية فى ثلاثة مناظر

المنظر الأول

(غرفة سكرتير الأستاذ « حليم » المخرج السينمائى ومدير شركة «الأنوار» للأفلام . السكرتير « فهمى » شاب فى الثلاثين من العمر ، منظره أقرب إلى البلطجية منه إلى السكرتيرين.. مكتبه حديث الأثاث ولكنه غير مرتب، لا يبدو عليه شىء من الذوق . . عندما يرفع الستار يكون قد فرغ من محادثة تليفونية ، ويتحدث وحده فى صوت مسموع) .

فهمى : (فى غضب) الأستاذ .. الأستاذ .. ياسلام على الأستاذ ! خلاص أصبح عميد الفن ! (فى نغمة ساخرة) ياسلام على الحظوظ! .. ما يسواش بصلة، والله ما يسوى بصلة ، ولا قشرة بصلة ! لكن .. تعمل إيه ؟ ربك عاوز كده !

(يسمع وقع أقدام نسائية مقبلة من الخارج . يفتح الباب فى عنف وتدخل النجمة « نور العيون » ، جميلة مسرفة فى الأناقة ،ولكن أناقتها تدل على ذوق رخيص .. كل ما عليها غال ثمين ، ولكنه تشكيلة عجيبة من الفراء والحرير والجواهر .. تمضغ « لبانة »؟ ، وأثناء المضغ تفتح فمها إلى آخره و « تطرقع » باللبانة !)

نورالعيون: (فى غير اكتراث) سعيدة يا واد يا فهمى ..

فهمى : يا ألفين و ٦٠٠ سعيدة يا نور العيون.. يانور عينىّ أنا لوحدى! .. يانور قلبى ! ..

نور : الأستاذ موجود ؟

فهمى : طبعاً موجود .. إذا ما اتوجدش علشان نور ، حايتوجد علشان مين ؟ علشان نادية أم الحلول ؟ .. شفتى فيلمها بتاع امبارح ؟

ياحفيظ ! .. تصدق بالله ؟ والله ما تنفع غسالة ، غسالة . ما أخدهاش ! . مفيش غيرك والله يا أم الأنوار ! ..

نور : بس يا واد بلاش قلة أدب .. سيدك موجود ؟

فهمي : (غاضباً) سيدى ؟ .. لا .. كله إلا كده .. سيدى قال! .. وانا لىّ سيد إلا انت .. إنتِ ستى وسته وست الكل ..

نور : ياواد رد .. انت بهلوان ؟ .. قول : الأستاذ موجود ؟

فهمي : موجود بس الله لا يوريكي..الخواجه وياه،بيحاسبه بقّ له ساعتين.. الفيلمين الأخيرين راحوا بوش .. والله أنا قلت له أم الخلول دى ماتنفعش فى حاجة.. لارقص ترقص،ولا غنا تغنى..لكن تقول إيه؟ مزاجه كده ، مخه كده ! .. يعرف خلاصه بقّ مع الخواجه ! ..

نور : (فى شىء من الجد) مش حاتقول لى بقى دفع لها كام فى الفيلمين دول ؟

فهمي : فى الدفاتر عندى متقيد ألف جنيه فى الفيلم .. لكن تلاقيها هفت لها كام ألف جنيه .. دى محفظته فى جيبها .. عدوك..ميت فيها، ميت صبابة .. اتفضلى اقعدى شوية وأنا أجيب لك دفتر الشيكات تشوفى ..

(تجلس نور على مقعد فى الركن ، ينهض فهمي ويفتح الدولاب ويبحث ،يسمع نقر على الباب . فهمي يصيح : « ادخل » .. يدخل « توفيق » : شاب وسيم طويل القامة، تتحدث ملامحه عن رجولة . هيئته تدل على أنه شاب مثقف . فى يده « دوسيه »)

توفيق : صباح الخير ..

فهمي : طلبات حضرتك ؟ ..

توفيق : عاوز أشوف الأستاذ حليم ..

فهمي : فيه ميعاد قبل كده ؟

توفيق : أيوه .. كنت قابلته الجمعة اللى فاتت فى « الأوبرچ » وكلمته عن

رواية من تأليفي . فقال لى : « ابقى فوت فى أى وقت .. »

فهمى : قمت حضرتك صدقت ، وجيت ! ..

توفيق : يا أخى أنا سألتك إذا كان الأستاذ موجود ؟ تقدر تقول مش موجود .. تقدر تقول إنه مش فاضى .. لزومها إيه الطريقة دى ؟ أنا جايب له رواية ، رواية هو طلبها .. عملت غلط ؟ ..

فهمى: اسمع يا أستاذ .. أنا كل يوم بيورد علىّ عشرات من الشبان اللى زى حضرتك .. كل واحد معاه رواية ، وروايات .. وكل واحد منهم الأستاذ قال له : «ابقى فوت»..لكن احنا ماينخلش روايات، مابنشتريش روايات ، أبداً .. بقى لى باشتغل مع الأستاذ عشر سنين ، عمرنا ما اشترينا رواية من مؤلف .. بالعربى : الأستاذ بيضحك على الناس ..

فهمى: أمال بتعملوا الأفلام إزاى ؟ مين بيكتب لكم القصص ؟ الأستاذ .. هو المؤلف والمخرج ، والمنتج ، وكل حاجة . . أمال يبقى مخرج كبير إزاى ، إذا ما كانش يؤلف رواياته بنفسه ؟!

توفيق : يا أخى أنا متذكر إنى شفت له فيلم مش من تأليفه ..

فهمى : فيلم مش من تأليفه؟..ما يبقاش فيلم !.. طب اسمه إيه كده؟

توفيق : فيلم تافه من بتوع الأيام دى .. أظن اسمه « عفاريت الجنة » أو « عصافير جهنم » .. حاجة زى كده ! ..

فهمى : (مغرقاً فى الضحك) بس ولا مؤاخذة يا أستاذ.. الفيلم ده كان من تأليف الأستاذة ! .. (مشيراً إلى نور . كانت تتتبع الحديث باهتمام ، وتنظر إلى الشاب فى إعجاب . تضحك هى الأخرى. توفيق يرتبك .. فهمى يستمر فى كلامه) الأستاذة نور العيون .. الكوكب المشهور وبطلة « عفاريت الجنة » ومؤلفتها ..

توفيق : (يزداد ارتباكاً . يتقدم نحو « نور » ويحاول الكلام فلا يجد شيئاً يقوله) ..

نور : (محاولة التخفيف عنه) مافيش حاجة يا أستاذ .. أنا عارفة إنها رواية تافهة .. لكن نعمل إيه ؟..الجمهور مش عاوز روايات.. الجمهور عاوز رقص وغنا .. الجمهور عاوز ...

فهمي : (مقاطعاً) نور العيون ..

نور : (لفهمي) اخرس انت ..

فهمي : حاضر .. خرست ! ..

نور : (لتوفيق فى تلطف) اتفضل يا أستاذ..سيجارة (تشعلها له) اقعد .. أنا من زمان بدور على رواية ، رواية كويسة .. رواية أضرب بها السوق .. اتفضل اقعد ، وريني – روايتك دى .. (تتناول منه الرواية وتحاول قراءة العنوان) « فَردوس القلوب » (تقرأها بفتح الفاء ، وتلتفت إليه فى اهتمام وتقول) فَردوس ؟ مين فَردوس دى ؟

توفيق : (يبتسم) لا.. دى مش واحدة ولا حاجة .. دى فِردوس بكسر الفاء ، يعنى جنة ...

نور : (فى دهشة) الله ! ياحلاوة !هيه فردوس يعنى جنة ؟ ! عمرى ما سمعت بالحكاية دى ... حضرتك لازم نحوى خالص ...

توفيق : لا نحوى ولا حاجة ... دى حاجة بسيطة ، ده أنا كمان مادرستش لغة ولا أدب ، أنا محامى ..

نور : محامى ؟ محامى صغير كده ؟ .. ولك مكتب وبتروح ترافع فى المحاكم ؟ ..

توفيق : (ضاحكاً) أمال يعنى محامى ازاى ؟ !

(يدق الجرس ، فينهض فهمي ويدخل عند الأستاذ)

نور : (تنظر إلى وجهه نظرة فاحصة، ثم تقول) ما دام حضرتك أستاذ بقى ، فيه عندى مسألة عاوزة أسألك فيها .. الناس دول (تشير إلى حجرة الأستاذ) مغلبينى جداً ..بيلعبوا بالعقود ويضحكوا علينا

... وأنا عاوزة واحد يمسك شغلى .. أنا لى" محامى، الأستاذ إسماعيل عوض ، محامى كبير .. لكن مش مريحنى .. تعال ، تعال ، أنا عاوزة أكلمك .. (تنهض وتجره من يده)

توفيق : (يمانع فى المسير قليلا) بس الرواية .. عاوز أشوف الأستاذ ..

نور : أستاذ إيه ؟ روايتك حناخدها خلاص ..

توفيق : مين قال ؟

نور : (فى كبرياء وغرور) أنا اللى بقول ..

توفيق : كده ؟ من غير ما تقريها ؟ ..

نور : أقراها ؟ .. إحنا ما بنقراش الروايات ..

توفيق : أمال بتاخدوها ازاى ؟

نور : كله من غير قراية .. حد فاضى يقرا ؟ ! تعال بس تعال :

(تشده من يده مرة أخرى . يفتح باب مكتب الأستاذ حليم ويبدو الاستاذ على عتبته)

حليم : (متهللا) أهلا .. نور عينىّ .. إيه .. ما دخلتيش ليه ؟

نور : ما دخلتش ليه ؟ اسأل سكرتيرك ياسيدى ، اسأل سى فهمى بتاعك .. قال لى إن الخواجا بيحاسبك ..

حليم : وخلاكى تستنى هنا؟! يا خبر زى بعضه ! (ينادى) واد يا فهمى.. يا فهمى الكلب !

فهمى : (مسرعاً من داخل المكتب) أيوه يافندم .. نعم ياسعادة البيه ! ..

حليم : إنت ازاى ...

نور : (مقاطعة) معلهش ، معلهش .. حصل خير ، برضه كانت فرصة كويسة .. عرفت فيها مؤلف كبير .. الأستاذ ...

توفيق : (مكملا) توفيق صلاح الدين ..

حليم : تشرفنا يا فندم .. حضرتك مؤلف ؟ بتكتب روايات للسيما ؟ ..

توفيق : دى أول مرة ، معايا رواية أرجو أن تعجبك ..

نور : رواية هايلة .. حاجة مافيش كده ..

حليم : إنتى قريتيها ؟ ..

نور : لا .. الأستاذ حكاها لى .. قصة مدهشة..لازم تاخدها ياحليم . أنا عايزاك تخرجها ..

حليم : بس مش لما أشوفها ؟

نور : (تأخذها من يد توفيق وتفرّها أمام حليم ثم تعيدها إلى توفيق) أديك شفتها .. خلاص ..

حليم : لكن بس .. عاوز أقراها يانور ..

نور : تقراها ؟ .. إنت عمرك ما قريت رواية ! .. إنت بتفرّهم كله زى أا ما عملت قصادك ..

حليم : وبعدين يا نور؟

نور : ولا قبلين .. إيه .. رواية كويسة .. وأنا باقول ناخدها، مش موافق ؟ ..

حليم : (مستسلماً) ناخدها ..

نور : (تجذب توفيق من يده وتسير به إلى الباب) خلاص. الأستاذ يجيلك بعد الظهر علشان تكمل الاتفاق .. سعيدة بقى ..

(تخرج وهى تجر توفيق فى يدها .الأستاذ حليم ينظر إلى فهمى مندهشاً .. فهمى يبتسم . .)

المنظر الثانى

(فى منزل نور العيون . صالون جميل من آخر طراز . الأستاذ توفيق جالس وأمامه منضدة وضع عليها قصته . أمامه كأسان ، نورتفتح بلراً صغيراً وتحضرمنه زجاجة)

نور : .. وكمان «شيرى براندى» ما تشربش؟ ده شربات .. ميه بسكرا ..

توفيق : أرجوكي .. عمري ما دقت حاجة من دى ، اتفضلى بس حضرتك عاوزين نتكلم ..
(تملأ لنفسها كأسا ، تقدم له سيجارة وتجلس)

نور : شوف ياسيدى .. الراجل حليم ده حرامى كبير .. كل تعبي رايح فى جيبه ..

توفيق : إزاى ؟ .. هوه وصى عليكى ؟ .. وكيلك ؟ ..

نور : لا .. شريكى .. أنا وهوه عملنا الشركة دى ، هو دفع ١٠,٠٠٠ جنيه وأنا عشرين ألف .. كل اللى حيلتى . . وكل مرة يقول إن الشركة بتخسر .. تلات سنوات دلوقت وأنا مباخدش أرباح .. ما فيش إلا أتعاب الأفلام اللى بأمثلها ، زيى زى أى واحدة من بره ..

توفيق : وانتى ما بتراجعيش الحسابات ؟

نور : أنا ما بفهمش فى المسائل دى .. أنا كنت فاكراه راجل أمين ، كل ما يخلص فيلم ييجى يدينى نصيبى بالحق.. مش كفاية إنى عملته مخرج ومنتج وبنى آدم فى وسط الناس ؟ ..

توفيق : مش أقدر أطلع على أوراق الشركة ؟ مش عندك أوراقك ؟

نور : الأدراج دى كلها مليانة ورق.. ورق مالوش أول ولا آخر ..مش فاهمه منه حرف واحد وحياتك ..

توفيق : تسمحى لى أبقى آخذ الأوراق دى معاية ؟ عاوز أدرسها ..

نور : تعمل فىّ معروف والله .. أنا حاتجنن ..

توفيق : لا ، لا .. حاتشوفى إن كل حاجة حاتبقى عال.. (لحظة صمت) تقدرى بقى تخلصى حكاية روايتى دى علشان نفضى لأمور الشركة..

نور : أى والله .. إيه ياسيدى قصتك دى ؟ إحكيها لى ..

توفيق : أظن الأحسن إنى أقراها لك ..

نور : ياخبر أبيض ! .. تقرأ ده كله؟! قول بس إيه الحكاية فى كلمتين.. مش لى فيها دور كبير ؟ ..
توفيق : أظن إن مافيهاش أدوار نسائية أبداً ..
نور : (فى دهشة) ودى تبقى رواية؟! فيه فيلم فى الدنيا من غير نسوان ؟!
توفيق : دى نوع جديد ، نوع إنسانى ..
نور : إنسانى يعنى إيه ؟
توفيق : يعنى بيبحث مشكلة إنسانية عليا ..
نور : وهم الستات مالهمش دخل فى المسائل الإنسانية ؟
توفيق : لا .. قصدى يعنى .. القصة دى بالذات بتعالج مشكلة الستات مالهمش فيها دخل .. قصة جماعة من الطيارين كل واحد من جنسية ، وكانوا بيحاربوا بعض .. يعنى أعداء .. وبعدين الظروف جمعتهم فى مكان واحد .. وعاشوا سوا شهور طويلة ، وتحولوا إلى أصدقاء . . وعرفوا أن العداوة والحروب وكل ده كلام فارغ . .
نور : طيارين إيه ؟
توفيق : طيارين حربيين .. ضباط فى الأسلحة الجوية ..
نور : يعنى عاوز تعمل لك حرب؟ .. طيارات وقنابل .. و .. دى دوشة كبيرة ! . . الأفلام بتاعتنا مش كده ، إنت ماشفتش فيلم مصرى أبداً ؟ ..
توفيق : شفت كتير ..
نور : يعنى إنت عارف الصنف بتاعنا ..
توفيق : أيوه عارفه .. وعلشان كده وضعت الرواية دى ! ..
نور : مش فاهمة ..
توفيق : قصدى علشان أنقذ السيما من اتجاه الرقص والغنا ..
نور : (فى غضب) مالهم الرقص والغنا ؟
توفيق : كويسين .. بس الحياة مش كلها رقص وغنا ..

نور : أمال الحياة إيه ؟ .. طيارين وقنابل ؟ !

توفيق : فيها ده ، وفيها ده ..

نور : وحياتك ما فيها إلا الرقص والستات ! إوعى تتجنن وتفتكر إن حد يدفع قرش علشان يشوف إزاى الطيارين بتوعك بقوا أحباب (ساخرة) إنسانية ! .. أفلام إنسانية ! .'. ماتشوف جمعية خيرية تخرج لك روايتك دى ..

توفيق : (ينهض غاضباً ويضع روايته تحت ذراعه) ياستى أنامش جاى هنا علشان تهزئيني .. خيرية أو مش خيرية..أهي دى روايتى.. أهو ده الفن اللى أقدر عليه ، عاوزة رقص وغنا شوفى واحد غيرى..

نور : (فى دهشة) الله ! .. جرى لك إيه ؟ .. ما كنت بعقلك !

توفيق : (بهدوء وفى لهجة جد خالص) أنا دايماً بعقلى يا هانم ، ومش ممكن أبيع عقلى علشان تاخدوا منى رواية . . المسألة مش مسألة ١٠٠ أو ٢٠٠ جنيه حاخدهم فى رواية .. المسألة مسألة رسالة الفن .. الكلام اللى انتم بتعملوه ده مش فن ، ده لعب .. خداع للناس واحتيال عليهم .. الناس مش بتديكم فلوس علشان تفرجوهم على رقص ، وكمان رقص ، وكمان رقص ! . . عندك مؤلفين كتير يقدروا يكتبوا لك كلمتين ترقصى عليهم . . وكل يوم يهبطوا بيكى شوية شوية.. لكن أنا افتكرت إنى أقدر أخدمك .. أنقذك ! ..

نور : (ساخرة) ياسلام ! .. تنقذنى بقصة أدبية فنية ما يتفرجش عليها حد .. مش كده ؟ !

توفيق : لا .. مش كده .. إنتم فاكرين الجمهور ده طفل ، أو إنسان سفيه .. ما يعجبوش إلا الكلام الفارغ . . فاكرين الجمهور ده على قد عقلكم .. لا .. إنتم غلطانين ..

(يفتح الباب ويدخل فهمى . ينظر إلى توفيق ثم إلى نور ،

ويبدو الاستغراب فى وجهه ثم يقول) :

فهمى : جرى إيه ياست نور؟ الدنيا قايمة قاعدة وانتى هنا بتسامرى ؟ ..

نور : اخرس ياولد .. إيه اللى جابك هنا دلوقت ؟ ..

فهمى : إيه اللى جابنى ؟ .. جرى إيه ياست ؟ .. إيه الحكاية ؟ .. الأستاذ بيدور عليكى فى كل حتة ..

نور : قول للأستاذ بتاعك ينفلق ..

فهمى : ينفلق ؟ .. إيه اللى جرى فى الدنيا ياست نور؟ ..

توفيق : (مقاطعا) أظن إن ماليش مكان هنا ..

(يسير نحو الباب ويخرج فى هدوء . نور تجرى وراءه وتناديه)

نور : أستاذ توفيق : . أستاذ توفيق! . . (تفتح الباب) أستاذ توفيق..

(تنتظر لحظة ثم تغلق الباب وتعود والحزن فى وجهها . تجلس فى صمت وهى تنظر إلى الباب)

فهمى : جرى إيه ياست ؟ نحن هنا ! ..

نور : (تلتفت إليه فى هدوء) إنت لسه هنا ياوش النحس ؟ ..

فهمى : لا ، لا .. دى حكاية تانية . . ياست نور ، اللى خد عقلك ..

نور : (فى غضب واشمئزاز) ياأخى إنت إيه اللى جابك هنا ؟ قاعد مستنى إيه ؟ يللا من هنا ..

فهمى : (مندهشاً) يللا من هنا ؟ .. يعنى إيه ؟ .. بتطردينى ؟ . .

نور : أيوه باطردك . . مش عاوزه أشوف وشك ولا وش الأستاذ بتاعك . .

فهمى : يانهارزى بعضه ! . . إيه بس ياست اللى جرى .. ؟

نور : (فى حزم) فهمى .. أرجوك تخرج ..

(فهمى يقف ذاهلا وقد بدا الجزع فى وجهه . يجد أن لا خير فى الكلام . يتجه نحو الباب تشيعه نظرات نور .. يخرج. تسرع إلى دفتر التليفون وتبحث حتى تجد الاسم الذى تريده .. تدير القرص) .

نور : مين ؟ الأستاذ توفيق ؟ أنا نور ، نور العيون . . أرجوك تيجى دلوقت .. لا .. لازم تيجى ، مش ممكن ؟ .. حاجيلك أنا .. يعنى جاى؟ .. أنا منتظراك .. (تنزل السماعة . تجلس صامتة)

المنظر الثالث

(مكتب الأستاذ حليم . غرفة مكتب واسعة فخمة الأثاث . فهمى سكرتير الأستاذ يتحدث مع فراش المكتب) ..

الفراش: يعنى خلاص ياسى فهمى ؟ .. راحت على الأستاذ حليم ؟ ..

فهمى : راحت ؟ .. راحت ونص .. خلاص .. البقية فى حياتك ! ..

الفراش: سبحان المعز المذل ياناس ! .. ياسلام على النسوان ياعالم ، يا .. سا .. لام ! ..

فهمى : على رأيك . مين كان يصدق ؟ ! حتة محامى صغير زى ده . يحط إيده على الشركة بما فيها !

الفراش: لازم غنى قوى ..

فهمى : ولا غنى ولا حاجة ، ده أفقر منى ومنك ! ..

الفراش: أمال إيه بس اللى حصل ؟ .. ما تفهمونى ياعالم !

فهمى : نفهمك ازاى إذا كنا احنا مش فاهمين ؟ .. ده واحد جالنا كده من الباب للطاق من تلات أشهر ومعاه رواية ما تسواش نكله .. يريد ربك إن الست تقع فى دباديبه .. نور العيون اللى الدنيا دى كلها تحت رجليها ، بقت لعبة فى إيد الواد ده ، تقولش ساحرها والا عامل لها عمل ؟ . . الأستاذ حليم حيتجنن . . ماهوش فاهم حاجة ، ولا أنا فاهم حاجة .. مصيبة وحت لنا !

الفراش: إيه بس اللى حصل ياسى فهمى ؟ ما تحكى لى ..

فهمى : أحكى لك ازاى ؟.. ما أنت شايف.. مش شايف إن صاحبنا أصبح مديرا لشركه ؟ . . والا مش عارف إن الست كانت تملك

نص الشركة وجه صاحبنا توفيق روميو طلع لها تحليلة كله خلاها تملك الثلاث أربع .. قامت صاحبتنا المغفلة كتبت له توكيل عن نفسها يعمل اللى هوه عاوزه ..

الفراش: آه .. قلت لى..أتاريه شال صاحبنا من الإدارة وقعد مطرحه.. أهو دلوقت بس أنا فهمت ..

(تسمع أصوات فى الخارج . أقدام مقبلة . يفتح الباب ويدخل الأستاذ توفيق ، وبعده بقليل نور العيون. تتحدث إلى الأستاذ حليم . توفيق يأخذ مكانه على المكتب . حليم يجلس على مقعد أمام المكتب. نور تشعل سيجارة فى مبسم طويل وتجلس على حافة المكتب) ..

توفيق : إيه رأيكم ؟ مش نعمل عقود مع جمال رفعت وسوسو نظاجة ؟

حليم : بس يا أستاذ توفيق دول مهرجين ما ينفعوكش ..

توفيق : ما ينفعونيش ازاى ؟ .. أفلامهم بتكسب والالأ ؟ ..

حليم : بتكسب قوى ..

توفيق : خلاص ! ..

نور : (ضاحكة) أهو كده الجد ! ..

حليم : يعنى التهريج ما كانش بيعجبك قبل كده ..

توفيق : إسمع بس خلينا نشتغل .. إحنا فى الشغل والاقى اللى يعجبنى ؟..

نور : تعجبنى ياحضرة المدير !

توفيق : طيب .. نتفق معاهم بقى .. همه دلوقت بياخدوا كام فى الفيلم

نور : مين جمال وسوسو؟ .. أظن كل واحد ألف جنيه ..

توفيق : (فى دهشة) ياسلام ! .. ألف مرة واحدة !! ليه ؟ !

نور : وحياة أبوك ما يساووا نكلة .. إن كان هوه والا هيه .. لكن ، تقول إيه ؟ الجمهور ما بيفهمش. برضه نتعاقد وياهم، ونسيب لك انت الاتفاق.. اجتهد تنزل شوية، ٧٠٠، ٨٠٠ حاجة زى كده ..

توفيق : طيب . وعاوزين لهم روايات ، مين يكتب لنا ؟
نور : أبو العينين عجوة ..
توفيق : (مندهشاً) ودا يبقى إيه ؟ !
نور : ده مؤلف قد الدنيا .. أستاذ كبير ، يكتب أكبر سيناريو وهو قاعد على القهوة البلدى والشيشة فى إيده .. إنت ماشفتش رواياته المشهورة : « فسيخ وشربات» و « مرجيحة الهوا » ؟ ..
حليم : ده حتى ما بيعرفش يكتب.. يملى بس .. يادوبك يمضى اسمه..
توفيق : عجيبة ! .. وبياخد كام فى القصة ؟
حليم : شوف ياسيدى .. الرواية الواحدة بميتين جنيه .. وإذا أخدت اتنين ياخد ٣٥٠ جنيه .. تلاتة يبقوا بخمسمية ! ..
توفيق : ودا يبقى أديب ده ؟ !
حليم : أهو أديب على قد جمال رفعت وسوسو نظاجة وهنية سامبا .. أمال عاوزين مين يؤلف للول ؟ .. شكسبير ؟ !
نور : عاوزين نشوف حانعمل إيه فى روايتك انت بقى ..
حليم : ناخدها طبعاً ..
نور : طبعاً .. بس عاوزين نشوف لنا مخرج درجة أولى يخرجها .. عاوزين نخليها درة الموسم ..
توفيق : بس عاوزة شوية تعديلات ..
نور : تعديلات إيه ؟ .. ما قلنا ناخدها زى ماهية ..
توفيق : إيه رأيك يا حليم ؟ أنا شايف إنها كده من غير ستات خالص تبقى تقيلة قوى !
نور : (مندهشة) أنا مش فاهمة حاجة ..
توفيق : عاوزين ندخل فيها دور لنور .. خسارة يكون عندنا نجمة كبيرة زى نور ولا تظهرش فى روايتى !
نور : قلنا كده .. قلتوا اطلعوا م البلد !

توفيق : اسمعى يانور .. قصدى ندخل فى القصة دور نسائى ، بس ما يغيرش من جوهرها .. برضه لازم نراعى ذوق الجمهور ..
حليم : (ساخراً) أهو كده الشغل !
توفيق : قصدى يعنى دور من مستوى عالى ..
نور : عالى ازاى ؟ ..
توفيق : يعنى دور بنت ساذجة .. طاهرة .. عذراء ..
نور : (مروعة) ياسم ! بنت ساذجة طاهرة عذراء ؟ ! .. أبقى نجمة قد الدنيا.. وأمثل دور بنت ساذجة طاهرة عذراء ؟ .. دى إهانة .. إهانة لفنى ولقامى ..
توفيق : إزاى بقى إهانة ؟ .. دور بنت طاهره ! ..
نور : (غاضبة) طاهرة يعنى إيه ؟ .. عبيطة يعنى ؟ ! مش كده ؟ .. أمال أرقص ازاى ؟ ..
توفيق : يعنى .. وانتى لازم ترقصى ؟ مش ممكن تمثلى بس ؟
نور : أمثل بس ؟ أقعد أعيط على المسرح والناس تتأسف على حالى ؟.. عاوزنى أمثل دور زى ليلى بتاعة قيس ؟ ..
توفيق : وفيها إيه يعنى ؟
نور : فيها إيه ؟ !
حليم : قصدها إن الفيلم بالشكل ده يسقط ..
توفيق : يعنى بلاش دور نسائى خالص ؟ ..
حليم : فى الحالة دى يبقى بلاش فيلم خالص ، ونوفر فلوسنا ..
توفيق : يعنى رأيكم إننا لو فصلنا دور على قد نور الفيلم ينجح ؟
حليم : ١٠٠ فى المية ..
توفيق : إذا كان كده ، نقدر .. بلاش تبقى بنت ساذجة عذراء ، خليها غانية ..
حليم : غانية من نار..

توفيق : بس فى الحالة دى ما يبقاش اسم الرواية مظبوط .. لازم نغير اسمها ..

نور : (فى دلال) وإيه يعنى ؟ غيره .. أصل الاسم اللى انت اخترته لحا دمه تقيل من الأصل .. نفسى أحط اسمى فى اسم رواية زى ما بيقولوا : « ليلى بنت مدارس » و«ليلى فى الظلام» ... و .. حاجة زى كده ..

حليم : إيه رأيكم ؟ .. نور .. نور ..

توفيق : ونار .. نور ونار ! ..

نور : (تهجم عليه وتعانقه) أهو كده يا قمر!..كده الأسامى والابلاش!.. ياسلام ! .. نورونار .. فيه أحسن من كده؟!حارقص ..حاغنى حاخليه فيلم نار خالص .. ملهلب !

توفيق : أظن إننا كده نضمن نجاحه ..

حليم : عاوزين تضمنوا نجاحه ١٠٠ فى المية ؟ ..

توفيق : طبعاً ..

حليم : دخلوا فيه كمان دورين لجمال رفعت وسوسو نظاجة ..

توفيق : (مروعاً) يانهار اسود ! دول كمان ؟ ..

حليم : شوف ياتوفيق .. إحنا عاوزين الفيلم ده يجيب ١٠٠ فى المية مكسب .. الشركة مديونة ، عاوزين ننقذها ..

توفيق : بس ياناس ازاى حنعمل فيها دورين جداد لواحد مهرج وبنت ما بتعملش إلا أدوار الخدامات البلدى ؟ ..

حليم : إنت عامل مكان الرواية فين ؟

توفيق : فى الصحراء الكبرى ..

حليم : يا نهار زى بعضه الصحراء الكبرى كلها ؟ !

توفيق : أيوه .. أمال انت عايز الطيارين ينزلوا فين ؟

نور : طيلارين ؟ مابلاش ياأخى الطيلارين دول .. حاأجرلك طيلارين وطيارات منين ؟ دى حاجة تتكلف فلوس كتيرة !

توفيق : لا ، لا .. لحد هنا وبس .. كمان موضوع القصة أغيره ؟ !

حليم : مش تغيره كله ، لا .. قصدنا يعنى ، بلاش يبقوا طيارين ومطارات .. خليهم يتقابلوا فى بار .. بار وسط القاهرة، إيه رأيك؟

توفيق : لا .. ده مستحيل .. بار إيه ياناس ؟ دى قصة إنسانية رمزية .. نقوم ندخل فيها رقاصات ومهرجات ؟ !

نور : أنامش عارفة بس أنت مالك ومال الرقاصات! يا أخى همه عملوا لك حاجة ؟ !

حليم : ياريت !

نور : (ضاحكة) اخرس انت ..

توفيق : يعنى قصدكم كمان مكان أحداث الرواية تغيروه ؟ نتقلها فى بار؟ .. لكن أنا ما أعرفش أوصف منظر فى بار .. ما أعرفش الكلام اللى بيتقال هناك ..

حليم : دى حاجة بسيطة .. تشوف واحد زى أبو العينين !

توفيق : (مقاطعا) عجوة ؟ .. لا .. لا .. مش ممكن الأستاذ عجوقده يحط إيده فى روايتى ..

نور : (مغرقة فى الضحك) هيه بقت روايتك ؟ .. ياحسرة ! ..

توفيق : (مفكراً) تعرفوا يا جماعة إن دى فكرة .. (ضاحكاً فى سخرية) والله عال .. قعدتم تقطعوا من الرواية حتة حتة لحد ما بقاش منها حاجة . أنا لى اقتراح ، إيه رأيكم ؟ .. نشيل اسمى كمان من على الرواية ...

نور : لا ، مش ممكن .. ياسلام ! .. ودى تيجى ؟ ..

توفيق : تيجى قوى .. إحنا عاوزين الشركة تنجح ، عاوزين نكسب . المقياس عندنا من دلوقت ذوق الجمهور .. الجمهور هو اللى بيدفع الفلوس . . سيبينا من الروايات الإنسانية . . من الأفكار الخيالية . .

(نور تقترب منه وتحيط عنقه بذراعها فى دلال .. وهو مستمر فى الحديث . . حليم يخرج . . توفيق مستمر فى الكلام)

توفيق : إيه رأيك يانور؟ ..

نور : تمام كده يا حبيبى .. الشركة بتاعتك وكل حاجة زى ما أنت عاوز!

ستار

فهرس

صفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٥٣٨٢

مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٥
١/٧٥/٢٨٧

٢٠

